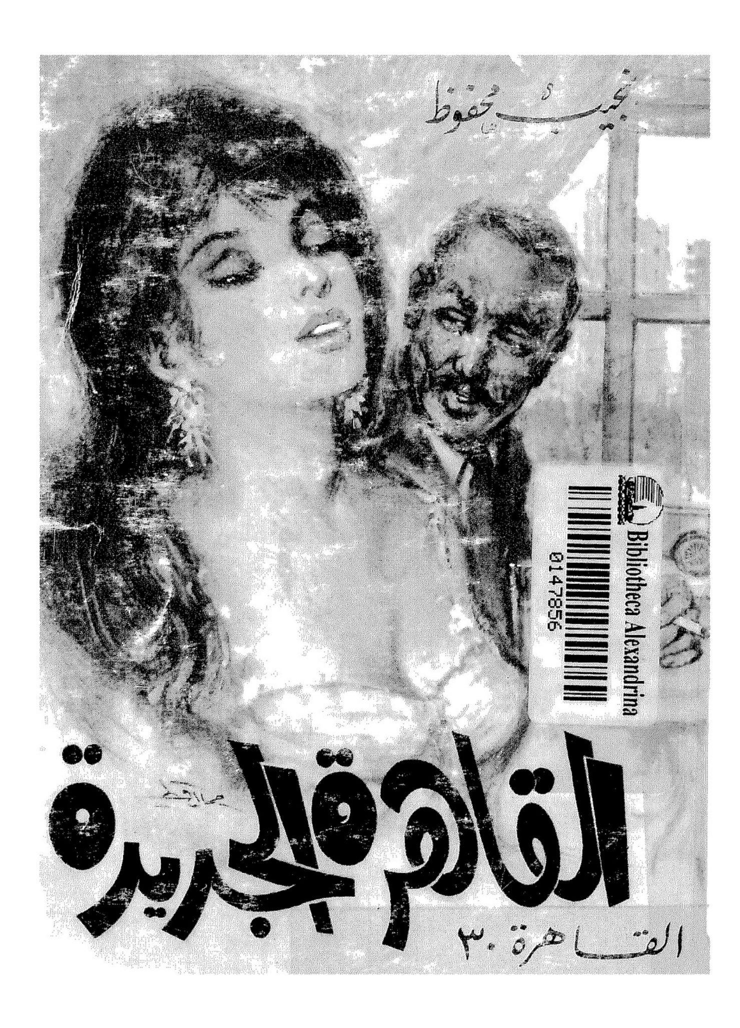


Bibliotheca Alexandrina
01147856

مطبوعات مكتبة مصر

القاهرة الجديدة

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

— ١ —

مالت الشمس عن كبد السماء قليلا ، ولاح قرصها من بعيد فوق القبة الجامعية الهائلة ، كأنه منبثق منها إلى السماء ؛ أو عائد إليها بعد طواف ، يغمر رءوس الأشجار والأرض المخضرة وجدران الأبنية الفضية والطريق الكبير الذى يشق حدائق الأورمان بأشعة لطيفة : امتصت برودة يناير لظاها ، وبثت فى حناياها وداعة ورحمة . وقد قامت القبة على رأس صفين من الأشجار الباسقة امتدت مع الطريق ، فلاحت كإله يجثو بين يديه كهنته العابدون ساعة العصر والسماء متجلية فى صفاء ، مطرزة بعض نواحيها المترامية بسحائب رقاق : والهواء يتخبط بين الأشجار باردا فترجع أوراقها أنينه ونحيبه .

فى السماء دارت حدآت حيارى : وعلى الأرض انطلقت جماعات الطلبة . كانوا يغادرون الفناء الجامعى إلى الطريق مشتبكين فى أحاديث شتى ، ثم لاحت بينهم جماعة من الطالبات لا يتجاوزن الخمس ، يسرن فى خفر ويخلصن نجيا . وكان ظهور الفتيات فى الجامعة لا يزال حدثا طريفا يستثير الاهتمام والفضول ، خاصة للطلبة المبتدئين ؛ فجعل هؤلاء يتبادلون النظرات ويتهامسون ، وربما علت أصواتهم فبلغت آذان زملائهم . قال طالب :

— لا يوجد وجه واحد بينهم يوحّد الله ؟

فأجاب طالب آخر بلهجة لم تخل من تهكم :

— إنهن سفيرات العلم لا الهوى ..

فقال ثالث بحمية انتقادية ، وهو يتفحص ظهور الفتيات المهزولات :
ـــ ولـكن الله خلقهن ليكن سفيرات الهوى !
فقهقه الأول ضاحكا وقال مدفوعا بروح الاستهتار والادعاء :
ـــ اذكر أننا في الجامعة ، وأن الجامعة مكان لا يجوز أن يذكر فيه لا الله ولا الهوى ؟
ـــ منطقي جدا ألا يذكر الله ، أما الهوى ..؟
فقال أحدهم بلهجة تقريرية تنم عن أستاذية ليس وراءها مطمع لعالِم :
ـــ الجامعة عدو لله لا للطبيعة ..
ـــ نطقت بالحق . ولا يؤيسنكم قبح هؤلاء الفتيات . فهن دفعة أولى للجنس اللطيف وسيتبعهن أخريات . الجامعة موضة حديثة لا تلبث أن تنتشر ، وإن غدًا لناظره قريب ..
ـــ أتحسب أن فتياتنا يقبلن على الجامعة كما أقبلن على السينما مثلا ؟
ـــ وأكثر . وسترى هنا فتيات على غير هذا المثال السيىء .
ـــ وسيزحمن الشباب بلا رحمة .
ـــ الرحمة هنا رذيلة .
ـــ ولن يكلفن أنفسهن مشاق الحشمة ، فالقوى لا يحتشم !
ـــ وربما استعَرَت بين الجنسين نار !
ـــ ما أجمل هذا ..!
ـــ وانظر إلى الأشجار والخمائل ! إن الحب يتولد فيها من تلقاء نفسه كما تتولد الديدان في قدور المش .
ـــ رباه !. هل ندرك ذلك العصر السعيد ؟!
ـــ بيدك أن تنتظره إذا شئت..؟
ـــ نحن في بدء الطريق والمستقبل باهر

وانتهوا من الحديث العام : وتناولوا الفتيات ـــ فتاة فتاة ـــ بالتهكم المرير ، والسخرية اللاذعة ..

* * *

وكان أربعة يسيرون معا على مهل ، يتحادثون أيضا وربما أصغوا بانتباه إلى ما يبلغ آذانهم من هذر الشباب . كانوا من طلبة الليسانس ، يشارفون الرابعة والعشرين : وتلوح فى وجوههم عزة النضوج والعلم .. ولم تكن تخفى عليهم خطورة شأنهم ، أو بالحرى كانوا يشعرون بها أكثر مما ينبغى . قال مأمون رضوان بلهجة انتقادية :

ـــ لا حديث للفتيان إلا الفتيات !

فقال على طه معقبا على انتقاد زميله :

ـــ وماذا عليهم من ذلك ؟ إنهما نصفان يطلب أحدهما الآخر منذ الأزل ..

وقال محجوب عبد الدائم :

ـــ اعذرهم يا أستاذ مأمون ، فاليوم الخميس ، والخميس عند الطلبة يوم المرأة بلا منازع .

فابتسم أحمد بدير ابتسامة خفيفة ـــ وهو طالب وصحافى معًا ـــ وقال بنبرات خطابية :

ـــ أدعوكم أيها الإخوان إلى إعلان آرائكم فى المرأة ، على ألا يزيد البيان عن كلمات معدودات . ماذا تقول يا أستاذ مأمون رضوان ؟!

فارتبك الشاب ، ثم ابتسم قائلا :

ـــ أتريد أن تحملنى على حديث أنتقد الغير على خوضه ..؟

ـــ لا تحاول الهرب ، هلم ، كلمات معدودات ، أنا صحافى والصحافى لا ييأس من حديث أبدا ..

وكان مأمون رضوان يعلم أن مراوغة أحمد بدير أمر عسير فاستسلم قائلا :

ـــ أقول ما قال ربى ، فإن رغبت فى معرفة أسلوبى الخاص ، فالمرأة طمأنينة الدنيا ، وسبيل وطىء لطمأنينة الآخرة .

وتحول أحمد بدير إلى على طه ودعاه للكلام بإيماءة من رأسه . فقال الشاب :

ـــ المرأة شريك الرجل فى حياته كما يقولون ، ولكنها شركة دعامتها ـــ فى نظرى ـــ ينبغى أن تكون المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات .

فالتفت أحمد بدير إلى محجوب عبد الدائم وسأله ضاحكا :

ـــ ورأى شيطاننا العزيز ؟

فقال محجوب عبد الدائم باهتمام مسرحى :

ـــ المرأة .. صمام الأمن فى خزان البخار ..

فضحكوا كما تعودوا أن يضحكوا عقب سماع آرائه . ثم سألوا أحمد بدير :

ـــ وأنت ما رأيك ؟

فقال الشاب باستهانة :

ـــ على الصحافى أن يسمع لا أن يتكلم ، خاصة فى عهدنا الحاضر .

ـ ٢ ـ

وانعطفوا مع أول طريق مقاطع لطريق الجامعة ، وساروا فى اتجاه المديرية . كان مأمون رضوان أطولهم قامة ، ومحجوب عبد الدائم فى مثل طوله تقريبا . أما على طه فربعة متين البنيان ، وأما أحمد بدير فقصير جدا كبير الرأس جدا . وكان مأمون رضوان يريد أن يختم ساعات العمل أجمل ختام قبل أن يستقبل يوم اللهو فقال بصوته المتهدج الصاعد من قلبه :

ـــ أنسانا حديث المرأة ما نحن بصدده ، فما تعليقكم النهائى على المناظرة التى شهدناها .. ؟

دارت المناظرة حول « المبادىء » وهل هى ضرورية للإنسان أو الأولى أن يتحرر منها . ؟

فقال على طه مخاطبا مأمون رضوان :

ـــ نحن متفقان على ضرورة المبادىء للإنسان ، هى البوصلة التى تهتدى بها السفينة وسط المحيط ..

فقال محجوب عبد الدائم بهدوء ورزانة :

ـــ طظ ..

ولكن على طه لم يلق إليه بالا واستدرك مخاطبا مأمون :

ـــ بيد أننا مختلفان فى ماهية المبادىء ..

فقال أحمد بدير وهو يهز كتفيه :

ـــ كالعادة دائما .. !

فقال مأمون وقد تألقت عيناه بنور خاطف شأنه عند الاهتمام :

ـــ حسبنا المبادىء التى أنشأها الله عز وجل .

فقال محجوب عبد الدائم كالمتعجب :

ـــ لشد ما يدهشنى أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير ..

فاستطرد على طه قائلا :

ـــ أومن بالمجتمع ، الخلية الحية للإنسانية ، فلنرع مبادئه ، على شرط ألا نقدسها لأنه ينبغى أن تتجدد جيلا بعد جيل ، بالعلماء والمربين .

فسأله أحمد بدير :

ـــ ماذا يحتاج جيلنا من مبادىء ؟

فقال على بحماس :

ـــ الإيمان بالعلم بدل الغيب ، والمجتمع بدل الجنة ، والاشتراكية بدل المنافسة ..

فعلّق محجوب عبد الدائم على كلامه قائلا :

ـــ طظ .. طظ .. طظ ..

فسأله أحمد بدير :

ـــ وأنت يا أستاذ محجوب ما رأيك فى المناظرة ؟

فأجابه بهدوء :

ـــ طظ ..

ـــ هل المبادىء ضرورية ؟

ـــ طظ ..

ـــ غير ضرورية إذًا ؟

ـــ طظ ..

ـــ الدين أم العلم ؟؟

ـــ طظ ..

ـــ فى أيهما ؟!

ـــ طظ ..

ـــ أليس لك رأى ما ؟

ـــ طظ ..

ـــ وهل طظ هذه رأى يرى ؟

فقال محجوب بهدوئه المصطنع :

ـــ هى المثل الأعلى ..

والتفت مأمون رضوان إلى على طه وقال ، وجل همه أن يذكر رأيه لا أن يجذب أحدا إلى عقيدته :

ـــ الله فى السماء ، والإسلام على الأرض ، هاكم مبادئى ..

فابتسم على طه وقال بدوره كما قال محجوب عبد الدائم من قبل :

ـــ لشد ما يدهشنى أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير ..

فقهقه محجوب قائلا :

ـــ طظ ..

وألقى عليهم نظرة سريعة وهم آخذون فى مسيرهم وقال :

— يا عجبا ! كيف تجمعنا دار واحدة ؟.. أنا رأسى هواء ، والأستاذ مأمون قمقم مغلق على أساطير قديمة ، وعلى طه معرض أساطير حديثة .

ولم يلقيا بالا إلى قوله ، لأنه طالما أعيتهما معرفة الحد بين جده وهزله ولأن مناقشته متعبة فهو يروغ من التطويق بالتهريج .

وكانوا شارفوا دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا ، فودعهم أحمد بدير وذهب إلى الجريدة التى يعمل بها مساء ، ومضوا ثلاثتهم إلى الدار ، ليأخذوا أهبتهم لسهرة الخميس .

— ٣ —

تقع دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا . هى قلعة هائلة ذات فناء مستدير واسع ، يقوم بنيانها على محيطه فى شكل دائرة ، مكونة من طباق ثلاثة ، يتركب كل واحد منها من سلسلة دائرية ، من الغرف المتلاصقة تفتح أبوابها على ردهة ضيقة تطل على الفناء . كان الأصدقاء الثلاثة يسكنون ثلاث حجرات متجاورة فى الطابق الثانى . وقد صعد مأمون رضوان إلى حجرته الصغيرة ، وأخذ فى تغيير ملابسه ، وكانت الحجرة مؤثثة بفراش صغير ، يقابله صوان ، يتوسطهما وراء النافذة الصغيرة مكتب متوسط وضعت عليه الكتب والمراجع . وكان الشاب ممن يحبون الكتب حبا بالغا ، فما أن وقعت عيناه على معجم «لالاند» حتى لاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة وشت بحبه وولعه . بيد أنه لم يضع وقتا ، فتوضأ وصلى العصر ، ثم ارتدى « ملابس العطلة » وغادر الحجرة إلى الطريق ، ومضى يرسم جسمه الرشيق هيئة عسكرية جذابة فى مسيره ، وكان ذا قوام ممشوق ، نحيفا فى غير هزال ، أبيض الوجه مشربا بحمرة ،

أجمل ما فيه عينان سوداوان نجلاوان . تلوح فيهما نظرة لامعة ، تذكى ضياء وجمالا وذكاء . وكان يتقدم فى مسيره لا يلوى على شىء ، لقدميه وقع شديد ، ولعينيه هدف لا تحيدان عنه ، كان هدفه ذلك اليوم بيت خطيبته بمصر الجديدة . وكان مأمون يعالج أمور قلبه بنفس النزاهة والاستقامة اللتين يعالج بهما جميع أمور حياته .. خطب الفتاة — وهى كريمة قريب له من ضباط الجيش العظام — بعد مشورة أبيه ، وتم الاتفاق على أن يعقد عليها عقب الانتهاء من دراسته ، وصار يتردد على بيتها كل خميس ، فيجالس الأسرة مجتمعة ، ويمضى بضع ساعات فى سمر لذيذ . ولم يخطر له على بال قط أن يدعو فتاته إلى السينما ، أو أن يدبر حيلة للانفراد بها ، ذلك أنه كان من الكافرين بالبدع الحديثة — على حد تعبيره — الثائرين عليها ، فلقى سلوكه من أسرة الفتاة — أسرة حافظت على تمسكها بالتقاليد القديمة — كل إعجاب وتقدير . بيد أن ذلك لم يمنع قلبه من الخفقان وهو آخذ فى طريقه المعهود ، فبلغ طريق الجيزة بعد دقائق واستقل الترام . وبدا فى جلسته المعتادة ، ونظرته الصافية ، وقامته العالية ، شخصية غنية بعناصر الجمال والجلال. فلو أراد أن يكون عمر بن أبى ربيعة لكان ، ولكنه كان ذا عفة واستقامة وطهر لم يجتمع مثلها لشاب . كان ضميرا نقيا ، وسريرة صافية ، كأن قلبا مخلصا ينشد الدين الحق والإيمان الراسخ والخلق القويم ، وقد نشأ فى طنطا ، وكان والده مدرسا بالمعاهد الدينية — رجل ذو دين وخلق — فشب فى بيئة أقرب إلى البداوة بساطة ودينا وخلقا وقوة ، وعرض له فى صباه عارض ترك فى حياته أثرا قويا . ذلك أنه أصيب بمرض أقعده عن اللحاق بالمدارس حتى الرابعة عشرة ، فذاق مرارة العزلة ، وعرف الألم ، وانصهر فى أتون تجربة قاسية ، ولكنه استطاع أن يدرس الدين على والده فتفقه فيه غلاما يافعا . ولما دخل المدرسة الابتدائية دخلها فتى مراهقا وقلبا كبيرا وروحا حيا وذكاء وقادا

.. على أنه لم يخل من تعصب وحدة ، بل كانت تعتريه لحظات قسوة جنونية ، تنضب فيها خصوبة نفسه ، فينطلق كلسان من لهب يلقف ما يلقاه ويلتهم ما يتصدى له فيضاعف العمل إن كان يعمل ، أو يستغرق فى العبادة إن كان يعبد ، أو يحتد فى النقاش إن كان يناقش ، أو تعلوه الكآبة والانقباض إن كان يعتزل ، وفى تلك الحياة البسيطة لم يجد الفتى سبيلا إلى تحقيق ذاته إلا فى العمل ، فبز الأقران جميعا . وكان فى قدرته أن يتعبد ساعات متتابعات لا يسكت لسانه عن ذكر الله ، وكان يذاكر فى الأيام الأخيرة من العام الدراسى عشرين ساعة فى اليوم ، فكان أول الناجحين فى البكالوريا ، كما ينتظر أن يكون أولهم فى الليسانس ، فصار التفوق من أحلامه العليا كالإسلام والعروبة والفضيلة ، ولم يسمح لمخلوق أن يدانيه فى تفوقه ، ولكن لم ترسب للمنافسة فى صدره أبخرة خبيثة ، بفضل قوته الخارقة ، وثقته الكبيرة بنفسه ، وإيمانه الراسخ بالله . فسما بإنسانيته إلى أعلى المراتب ، ولذلك لم يجعل من إيمانه سبيلا إلى الزهد العاجز أو الفناء فى الغير ، فكان يقول : إن الإيمان امتلاء بالقوة الربانية لتحقيق مثل الله العليا على الأرض . فكان شابا عظيما ، وإن أخفق أن يكون محبوبا ، لأن تفوقه مثار لحسد الحاسدين ،وسلوكه احتقار صامت لحياة الآخرين ،ثم إنه لم ينج من ميل للوحدة تأصل فى طبعه منذ عهد مرضه العصبى الطويل ، هذا إلى جهل بأصول اللباقة الاجتماعية ، ونكران لروح الفكاهة ، وولع بالصراحة جعلت من حديثه أحيانا سوط عذاب ، فسماه منتقدوه تارة بالجامعى الريفى ، وتارة بالمهدى غير المنتظر . وقال عنه طالب مرة : « الأستاذ مأمون رضوان إمام الإسلام فى عصرنا هذا ، وقديما أدخل عمرو بن العاص الإسلام فى مصر بدهائه ، وغدا يخرجه منها مأمون رضوان بثقل دمه » . وظل الشاب على ولائه للتفوق وإن خافه ومقته فى أحايين كثيرة ، أجل كان يخاف ذاك الشعور بالتعالى والتفوق

ويستعيذ بالله من شره ، ولكنه عجز عن قهره ، ولذلك لم يرمق عظيما بعين الإعجاب الحق ، وأعلن فى صراحته يوم افتتح الملك الجامعة استهانته برجال الدولة الذين حضروا الاحتفال ، ولذلك أيضا جعل يهز منكبيه استهانة كلما رأى الطلبة يتحمسون لمن يدعونهم بالزعماء ، وكان ينكر الأحزاب جميعا ، ويأبى الاعتراف « بالقضية المصرية » ويقول بحماسه المعهود : إن هناك قضية واحدة هى قضية الإسلام عامة والعروبة خاصة .

ومن عجب حقا أنه لم يتأثر بموضة الإلحاد التى كانت ذائعة بين طلبة الجامعة على عهده بها وإنما مردّ ذلك إلى أنه التحق بالجامعة ، فى الثالثة والعشرين وقد آمن إيمانا راسخا بثلاثة أشياء لم ينكرها بعد ذلك طوال حياته : الله ، الفضيلة ، قضية الإسلام . فلم يزغ بصره حيال نور الجامعة الجديد ، ولبثت صـــخرة إيمانه القائمة تتكسر عليها أمواج السيكولوجى والسسيولوجى والميتافيزيقا . تحـدى بإيمانـه العلـم والفلسفـة جميعـا وجعلهما من ذرائعه ومقوماته ، وسره أيما سرور أن يجد أعلام الفلاسفة فى ظل الله دائما : أفلاطون وديكارت وبسكال وبرجسون . كما رحب قلبه المخلص بالوفاق الذى بشر به القرن العشرين بين العلم والدين والفلسفة ، فاليوم تنحل المادة إلى شحنات كهربية أشبه بالروح منها بالمادة ، واليوم تسترد الروحية عرشها المسلوب ، واليوم يشغل العلماء بالتفكير الدينى ويرد رجال الدين شرائع العلم والفلسفة ، فطوبى للشاب الفيلسوف المؤمن !

غير أن شاب الجيزة تغير عما كان عليه فتى طنطا المصاب ، صار أوسع صدرا وأرحب فهما ، أمكنه أن يصغى إلى مجون محجوب عبد الدائم مبتسما ، وأن يناقش على طه فى قيمة الدين والإلحاد ، وأن يتلقى صابرا سهام الناقدين والساخرين ، إلا إذا احتد واتقدت عيناه وعرته تلك اللحظة الرهيبة ، فهناك يرتد عنه البصر وهو حسير ! وكان الشاب يجد بين زملائه مؤمنين صادقين ، فلم يشعر فى إيمانه بعزلة ، ولكنه لم يظفر بواحد

يشاركه حماسه فى الدعوة إلى الإسلام والعروبة ، فقد استغرقت الأذهان أمور أخرى فى ذلك الوقت كالقضية المصرية ودستور سنة ١٩٢٣ ومقاطعة البضائع الأجنبية ، ولكن الفتى لم ييأس فى وحدته ، ولا كان من الممكن أن يخالط اليأس قلبا كقلبه .

عاش مشغولا بالآمال الكبار ، إلا أن قلبه استطاع أيضا أن يتنسم الحياة ، وأن يخف مسرورا إلى استقبالها ... بل جعل ينظر من نافذة الترام إلى الخارج فى شبه جزع ، يود لو يطوى الترام فى غمضة عين الطرق إلى مصر الجديدة ...

— ٤ —

ولبث على طه فى حجرته حتى مالت الشمس إلى المغيب ، وكان يجلس إلى النافذة وعيناه إلى شرفة دار صغيرة قديمة ، تقع عند مدخلها دكان سجائر ، تقوم على ناصية شارع العزبة — امتداد شارع رشاد باشا من ناحية عزبة الدقى — فيما يواجه دار الطلبة . كان مرتديا ملابسه إلا طربوشه ، متأنقا كعادته ، يحسب الناظر إلى منكبيه العريضين أنه من هواة الرياضة البدنية ، وكان فتى جميلا ذا عينين خضراوين ، وشعر ضارب لصفرة ذهبية ، ودلالة واضحة على النبل ، لبث ينظر إلى شرفة الدار الصغيرة القديمة بعينين تتحير فيهما نظرة انتظار ولهفة حتى دبت فيهما حياة ويقظة بدخول فتاة إلى الشرفة ، فنهض ملوحا بيديه ، فابتسمت إليه وأومأت إلى الطريق ، فلبس طربوشه وغادر الحجرة ثم الدار ، وانطلق إلى شارع رشاد باشا ، ومضى يتمشى متمهلا فى الشارع الكبير قامت على جانبيه الأشجار الباسقة تقبع وراءها القصور والفيلات ، وجعل يرسل الطرف فيما وراءه بين لحظة وأخرى ، حتى رأى — على ضوء

الغروب الهادىء ــ صاحبة الشرفة قادمة تخطر . فدار على عقبيه خافق الفؤاد من السرور ، واتجه نحوها مورد الوجه ، حتى التقت أيديهما ، فاشتبكت اليمنى فى اليسرى ، واليسرى فى اليمنى وغمغم الفتى :

ــ أهلا ..

فغمغمت ووجهها يشرق بابتسامة لطيفة :

ــ مساء الخير ..

واستخلصت يديها برفق ،وتأبطت ذراعه ، واستأنفا السير إلى شار ع الجيزة يمشيان مشية المتمهل الذى ليس له وراء المشى من غاية. هى فتاة فى الثامنة عشرة ، تضىء محياها بشرة عاجية ، وعينان سوداوان يجرى السحر فى حورهما والأهداب ، أما شعرها الفاحم وما يحدثه تجاوب سواده مع بياض البشرة فيخطف الأبصار . وقد حوى معطفها الرمادى جسما لدنا ناضجا ينتشر سحرا ووهجا . سارا متمهلين يبهج منظرهما الشباب والحياة . وجعل على طه يرقب أنحاء الطريق بطرف حذر كأنما يطلب غرة ، والفتاة تلحظه بطرف خفى منتظرة على شوق وسرور ، حتى اطمأن الفتى إلى غفلة العيون . فضم أصابعه تحت ذقنها ، وأدار وجهها إليه وألصق شفتيه بشفتيها حتى رطبتا برضابها ، ثم رفع وجهه متنهدا من الأعماق وتتابع خطوهما صامتين ، ورأته يلقى عليها نظرات فاحصة ، فذكرت ــ على سحر الموقف وفتنته ــ معطفها الذى كاد يبلى ، ففتر سرورها ، وقالت بالرغم عنها :

ــ أيسوؤك أن ترى دائما هذا المعطف العتيق ؟

فلاح الإنكار فى وجه الشاب وقال مؤنبا :

ــ كيف تلقين بالا إلى هذه الصغائر ؟. إن فى المعطف كنزا جعله الحظ السعيد من نصيبى .!

ولم توافقه على أن المعطف من « الصغائر » بل كانت تقول

لنفسها مرات متأسفة : إن العيش السعيد شباب وثياب ! ولحظت بذلته الصوفية الأنيقة فرغبت في لومه . وقالت :

ــ يا لك من مراء !. أتعد اللباس من الصغائر وأنت تتأنق مزهوا ..

فتورد وجهه حياء ، وبدا كالطفل المرتبك ، ثم قال كالمعتذر :

ــ البدلة جديدة .. وليس من الممكن ابتياع بدلة قديمة . ولكن الملابس أعراض تافهة . أليس كذلك يا حبيبتى ؟

بيد أنها خافت مناقشته ، لأنه كان يتوثب للمناقشة باهتمام ، ويقف منها موقف المعلم ، ولم تكن ترتاح إلى ذلك . والواقع أنه لم يكن يخلو من تناقض . كان كثيرا ما يستهين بالملابس والمآكل ونظام الطبقات ، ولكنه كان يلبس فيتأنق ، ويأكل لذيذ الطعام حتى يشبع ، وينفق عن سعة . أما إحسان شحاتة فكان لديها ما تقوله ، وما تعلم أنه ينتظر رأيها فيه ، فقالت بصوتها الرخيم الذى يعابث الغرائز :

ــ كدت أتم الكتاب الذى أعرتنيه .

فبدا الاهتمام على وجهه ، لأنه كان يرغب أن يحب عقلها كما يحب شخصها ، وسألها :

ــ ورأيك ؟

فقالت بصراحة :

ــ فهمت أقله ، ولم أفز من هذا القليل بطائل .

فشعر بخيبة وسألها :

ــ ولمه ؟

فابتسمت إليه لتخفف من وقع كلامها واستدركت :

ــ محور الكتاب ــ الذى تسميه قصة ــ أفكار وآراء ، وأنا أرتاد فى الكتب الحياة والعاطفة !

ــ ولكن الحياة فكر وعاطفة !

فلمت أطراف شجاعتها وقالت :

ـــ لا تطوقني بمنطقك ، فربما لا أستطيع دفعه ، ولكنه لن يغير من ذوقي ، الموسيقى مقياس الفن الحقيقي في نظري ، فما تجاوز مادة الموسيقى في الكتاب لا ينبغي أن يعد من الفن في شيء .

فهاله رأيها ، وابتسم ابتسامة باهتة ، وقال بأسف :

ـــ إنك تحرمين على نفسك أشهى ثمار الفن الحقيقي ..

فقالت ضاحكة :

ـــ مجدولين ، آلام فرتر ، آلام رفائيل ، تلك آيات الفن الذى أحبه .

قالت ذلك بلهجة من يقول « لكم دينكم ولى دين » . فأمسك الشاب عن الكلام ، وتساءل هل ييأس حقا من تغيير رأيها ؟.. إنه يريد صادقا أن يتحابا بقلبيهما وعقليهما ، وأن تكون شركة حياتهما تامة منسقة ، وأن يجد فيها الحبيبة والزميلة والند المحترم . إنه يحبها حبا يملك عليه قلبه ونفسه ، ولكنه يرجو أن يجعل منها في المستقبل زوجا غير الزوج التى تعرفها البيوت الشرقية . وانتهى بهما المسير إلى شارع الجيزة ، فانعطفا إلى يسارها ، وتنهد الشاب بارتياح ، فالشارع كالمقفر ، وجوّه كالمظلم ، ورفع راحتها إلى فمه ، ولثمها بشغف ، ثم مال نحوها فأخذ قبلة مطمئنة لذيذة الطعم ، من شفتين ممتلئتين طريتين . ولمحها تسبل جفنيها لوقع القبلة ، فانتفض جسمه القوى ، وشاعت فى روحه شرارة سرور مكهربة ، وقال وهو يزدرد ريقه :

ـــ ما ألطفك .. ما أجملك !

ومضت فترة سكون لذيذة ساحرة ، ثم تنهد وقال فى شبه حسرة :

ـــ بينى وبين الامتحان النهائى أشهر معدودات ، أما أنت .!

فقالت :

ـــ امتحان البكالوريا فى يونيه . ماذا تختار لى ؟

فقال الشاب بحماس :

ــ كليتى ..

وهى وإن كانت الضرورة تحتم عليها أن تتم دراستها . إلا أنها ودت لو قال لها مثلا : « حسبك دراسة وهلمى إلى عشنا ! » فشعرت بشىء من الاستياء وسألته :

ــ لماذا أختار كليتك ؟

ــ لنكون عقلا واحدا وفنا واحدا ومهنة واحدة ..

ــ مهنة واحدة ؟

فقال بحماسه الذى لا ينضب :

ــ أجل يا حبيبتى وظيفة المرأة أخطر شأنا من عمل الجارية . محال أن أخون مبادئى ، أو أن أرضى بحرمان المجتمع عضوا جميلا نافعا مثلك !

وكانت مقتنعة برأيه على وجه آخر ، لأن الضرورة تملى عليها أن تختار مهنة يوما ما . بيد أنه ضايقها ــ وإن لم تدر لماذا ــ حماسه لرأيه ، وودت لو كانت هى التى حملته على قبوله على تمنع وتردد منه .

ومضيا فى الطريق المقفر . يستلهمان آمالهما الحديث ، ويفصلان حديثهما بالقبل .

كانت إحسان شحاته عظيمة الشعور بأمرين : جمالها وفقرها . كان جمالها فائقا . وقد استأسر سكان دار الطلبة ، وجعل سكان الحجرات يرسلون شواظ أنفسهم فتلتقى جميعا فى شرفة الدار الصغيرة البالية ، وترتمى عند قدم الفتاة الحسناء الفخور . ولكن لم توجد بالدار مرآة حقيقة بأن تعكس ذاك الجمال الصبيح ، فالفقر حقيقة ماثلة كذلك ، وقوى شعورها به إخوتها السبعة الصغار ، وأن لا مورد لهم إلا دكان سجائر مساحتها متر مربع وجل زبائنها من الطلبة ! وطالما خافت على جمالها

عوادى الفقر ، وسوء التغذية . والواقع أنه لولا وصفات أمها — كانت الأم من قيان شارع محمد على قبل أن يتزوجها المعلم شحاتة تركى — لهزل جسمها ، ولذبل ردفاها اللذان مدحهما أحد شعراء كلية الطب بمعلقة رنانة . وقد عرفت على طه ، اختاره قلبها من دار الطلبة جميعا ، وحظى بإعجابها شبابه وجماله ونبله ومستقبله ، بيد أن أمرين هامين جعلا يتنازعان قلبها من أول لحظة : حياة قلبها وحياة أسرتها ، أو بمعنى آخر على طه والأخوة السبعة الصغار ، وكانت عرفت — قبل على طه — شابا موسرا من طلاب القانون . وقد أدركت من سلوكه أنه يطمع فيها متعة لقلبه ولهوا لشبابه ، فأخذت حذرها . وكان والداها يطلعان على أسرار حياتها ، فما راعها إلا إغراء أمها وطمع أبيها فى مال الشاب ! وتنبهت إلى حقائق حياتها المرة ، وخوافيها المحزنة . والواقع أن والديها لم يضمرا للأخلاق احتراما قط ، وكانت شركتهما عشقا قبل أن تصير زواجا ، وظل أبوها يرتزق فى سوق الجمال بجماله وصفاقته حتى تزوجته أمها ووهبته ما ادخرت من مال ليتاجر به ، فبدد ما بدد على المخدرات والقمار ، وبقيت له دكان السجائر الصغيرة . ولكنه كان يقول لنفسه متعزيا : « ضاعت حياتى حقا ولكن البركة فى إحسان » . فوجدت فيه الفتاة كما وجدت فى أمها عونا للشيطان والسقوط . ولكنها لم تسارع إلى السقوط ، فقد تلقت اهانة عن غير قصد فثار كبرياؤها وأنقذها ، إذ رأت الشاب صديقها يجالس أباها يوما فى الدكان ، فأدركت أنه يساومه على عرضها . وثار غضبها ، وشعرت بالخزى والعار ، ثم قطعت الشاب بقسوة لم تدع له أملا ! خرجت من التجربة ظافرة ، ولكن بعد أن علمت أنها تعيش فى بؤرة . ثم إنها شعرت فى قرارة نفسها بأنها تخلصت فجأة من الرقابة والقيود ، وأنها صارت حرة تفعل ما تشاء بغير حساب . وأحدث شعورها بتلك الحرية المطلقة فى نفسها ثورة ، لبثت حينا بغير هدف ولا وازع أيضا . ولكن

يقظة جنونية دبت فى عواطفها فتمطت ترتاد متنفسا ، وإن عقلها الحياء والتردد ، كان الجو خانقا والرئتان سليمتين ، فدلت الظواهر على أن النهاية محتومة ما منها مناص . وجعل أبوها الفاجر يقول لها متأسفا على ضياع الشاب الموسر : « إنك مسئولة عنا جميعا ، وخصوصا إخوتك السبعة » . رباه ، هل تستطيع أن تعتصم بإرادتها حيال تلك الدوافع الفاجرة ؟ ألا يمكن أن يتواصوا بالصبر حتى تتم تعلمها بمعهد التربية وتجد مهنة شريفة ترتزق منها ؟! واستسلمت للمقادير فى غير ثقة ولا إيمان شأن ضعاف الإرادة .. حتى جاء على طه . وجدت فى على ودا صادقا ، وإخلاصا قويا ، ومقصدا نبيلا ، فدعم إرادتها المزعزعة . وأنقذها من غمرة الحيرة والخوف ، وأعاد إليها شعور الاحترام والكبرياء : فأحبته وناطت به آمالها . ورمق عم شحاته تركى الشاب الجديد باستياء وقال عنه : « إنه شاب فقير ، حتى السجائر لا يدخنها ! » وقال للفتاة مرة ساخرا : « مبارك عليك الشاب الجميل الذى بعثه الله ليجوعنا ! » ولكنها أعرضت عنه ، ووضعت أملها فى المستقبل : فهو كفيل بأن يهيىء لها مهنة محترمة وأن يحقق لها أحلام قلبها ...

أما على طه فكان شابا ذا مزايا حسنة كثيرة . كان مثالا طيبا للروح الاجتماعية الحقة ، ففى عهد دراسته الأول كان عضوا بارزا فى القسم المخصوص ، وجمعية الرحلات المدرسية ، وجماعة الخطابة والصحافة ، يجيد الحديث والخطابة وطهى الطعام والغناء ، مع ميل محمود للاطلاع والثقافة واستمساك مخلص بالفضيلة . وبانتقاله إلى الجامعة ضاق ميدان نشاطه ، ولكنه عمق وارتفع ، فصار « الأستاذ » على رئيسا لجماعة المناظرات ، وتميز على الأقران بقوته الخطابية وثقافته العامة وحضور بديهته وكان يهتم بالمثل العليا ويتحدث بحماس وايمان عن المدينة الفاضلة ، فصدقه عارفوه ، ولكن بعض المغرمين بالنقد أشاعوا عنه

أنه داهية لا يشق له غبار ، وأنه يغزو الأوساط جميعا ملثما بالفضيلة ، فيصيد الحسان باسم العلم والفضيلة . وأنه يتحدث عن الأخلاق كما تتحدث الخاطبة عن عروس لم ترها ولكنهم غالوا وكذبوا ، والحقيقة أن الشاب كان صادقا مخلصا ، وأنه إذا كان يحب الجمال فقد أحبه بنزاهة واخلاص . بيد أن حياته لم تخل من أزمات عنيفة ، فقد تزعزعت عقيدته منذ مستهل حياته الجامعية ، وتعرض لآلام التحول الفتاكة ولكنه كان شجاعا صادقا . فاستقبل الحياة الجديدة بإرادة متوثبة وعقل شغوف بالحق . ولم يكن من الهازئين الماجنين ، ولم يكتم إعجابه بمأمون رضوان لصدقه وشجاعته ، ولكنه ارتمى بين أحضان الفلسفة المادية : هيجل وستولد وماخ ، وآمن بالتفسير المادى للحياة ، وارتاح أيما ارتياح للقول بأن الوجود مادة ، وأن الحياة والروح تفاعلات مادية معقدة ، وأن الشعور صفة ملازمة عديمة الأثر كصوت العجلة الذى يلازم دورانها دون أن يكون له فيه أى أثر . وطالما قال له مأمون رضوان : إن الفلسفة المادية فلسفة سهلة ولكنها لا تحل مسألة واحدة حلا مقبولا . ولكن على طه كان شابا اجتماعيا ، لا يصبر على التأمل طويلا . ويذاكر فى أسبوع ما ربما ذاكره مأمون فى يومين ، فإلى جانب وقت القراءة هناك وقت للرياضة وآخر للمناظرة وثالث للرحلة ورابع للحب إلخ .. فحسبه من الفلسفة هذا التفسير الجامع وليستأنف سيره فى الحياة ولكن هنالك عقبة كأداء تنذر بأن تصير هاوية جارفة : الأخلاق ؟.. نهضت أخلاقه فيما مضى على دعامة من الدين ، فعلام تنهض اليوم ؟!.. ما الذى يمسك على الفضائل قيمتها بعد الله ؟! أم تراه يزدريها كما ازدرى عقيدته من قبل ، ثم يلقى بنفسه فى تيار الحياة الجارف بلا وازع ولا ضمير ؟! إن المنطق واضح ، والنهاية محتومة ، ولكنه تردد وتماسك واتقى بقوة القصور الذاتى ، وتساءل : ألايمكن أن يحيا كما حيا أبو العلاء ؟ ولكن أبا العلاء كان

ضريرا مجدورا سوداويا ، أما هو فشاب جميل مفتول العضلات ، اجتماعى المزاج ، فأنى يكون له الزهد والتقشف !! ووجد نفسه فى مثل الحيرة التى وجدت فيها إحسان شحاتة عقب تحررها من ظل والديها. وأخيرا ظفر بمنقذه كما ظفرت بمنقذها ، التقى بأوجست كونت رجل المجتمع ، وبشره الفيلسوف بإله جديد هو المجتمع ، ودين جديد هو العلم . آمن بالمجتمع البشرى والعلم الإنسانى ، واعتقد أن للملحد ــ كما للمؤمن ــ مبادىء ومثلا إذا شاء وشاءت له إرادته . وأن الخير أعمق أصولا فى الطبيعة البشرية من الدين ، فهو الذى خلق الدين قديما وليس الدين الذى أوجده كما كان يتوهم وجعل يقول عن نفسه :

« كنت فاضلا بدين وبغير عقل ، وأنا اليوم فاضل بعقل وبلا خرافة

وثاب إلى مثله العليا آمنا مطمئنا . ممتلئا حماسا وقوة ، وشغف بالإصلاح الاجتماعى ، وحلم بالجنة الأرضية ، فدرس المذاهب الاجتماعية ، حتى طاب له أن يدعو نفسه اشتراكيا .. وانتهى المطاف بروحه ــ التى بدأت رحلتها من مكة ــ إلى موسكو !. وطمع يوما أن يجذب أصدقاءه المقربين إلى الاشتراكية ولكنه لم يفلح . قال له أحمد بدير معتذرا : « إنى صحافى وفدى . والوفد حزب رأسمالى » وقال له مأمون رضوان بإيمانه المعروف « للإسلام شتراكيته المعقولة ، فيه الزكاة التى تضمن لو طبقت بدقة العدالة الاجتماعية دون جور على الغرائز التى يستمد الإنسان منها العون فى كفاحه ، فإذا أردت للدنيا نظاما يهيىء لها الأخوة الحقة والسعادة والعدالة فدونك والإسلام » . أما محجوب عبد الدائم فهز منكبيه استهانة وقال باقتضاب : « طظ » . ومهما يكن من أمر فقد عرف لحياته هدفا أنقذه من الحيرة والفوضى والفساد . وحق له أن يقول على نفسه مسرورا :

« هاكم بطاقتى الشخصية وهى تغنى عن كل تعريف : فقير واشتراكى ، ملحد وشريف ، عاشق عذرى ! » .

— ٥ —

انتظر محجوب عبد الدائم فى حجرته كذلك ، ولكن دون أن يغير ملابسه لأنه لم يكن كصاحبيه يملك بدلة خاصة ليوم الخميس وكان يرقب الطريق من نافذته ، فرأى مأمون رضوان وهو يغادر الدار فى مشيته العسكرية ، ولاحظ إيماءة الهوى بشرفة الدار الصغيرة القديمة ، ثم رأى العاشقين الشابين يوافى أحدهما الآخر إلى شارع رشاد باشا . وشيع كل واحد منهم جميعا بـ « طظ » مفعمة سخرية وحقدا . فسخريته تضمر دائما حقدا . وكان ينتظر ميعاده ، إلا أنه يؤثر الظلمة ويحب الستر ، فخلت الدار تقريبا إلا منه . كان محجوب عبد الدائم — كمأمون رضوان — طولا ونحافة ، إلا أنه شاحب مفلفل الشعر ، يميز وجهه جحوظ عينيه العسليتين وصعود شعيرات حاجبيه إلى أعلى ، هذا إلى نظرة قلقة متقلبة يوحى بريقها بالتحدى والسخرية . ولم يكن به كصاحبيه — جمال ، ولكن لم يكن بقسماته كذلك قبح منفر . ولا يخطىء الناظر إليه ما يدل عليه منظره من التحدى ، فما ينفك فى خوف من أن يقذفه بنكتة أو دعابة أو ملاحظة لاذعة . وكان يرى حياته مليئة بالمشكلات ، ويضع على رأسها جميعا مشكلته الجنسية ، ويصفها بأنها مشكلة عسيرة الحل كالقضية المصرية سواء بسواء ! وقد رأى احسان شحاتة ، وطالما أثارت بركان شهوته ، رآها — كما يرى أى امرأة أخرى — صدرا وعجزا وساقين ، وكانت إحدى مفاتنها هذه كافية لإطلاق شرارة كهربائية فى صدره ، ولكن الفتاة — على حد قوله — أحسنت الاختيار ، وآثرت الفتى الأشقر ذا العينين الخضراوين . ولبثت حياته مقفرة موحشة ، فقلبه فى ظلام وعقله فى ثورة دائمة . كان

صاحب فلسفة استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه ، وفلسفته الحرية كما يفهمها هو . وطظ أصدق شعار لها . هى التحرر من كل شىء ، من القيم والمثل والعقائد والمبادىء ، من التراث الاجتماعى عامة ! وهو القائل لنفسه ساخرا : « إن أسرتى لن تورثنى شيئا أسعد به فلا يجوز أن أرث عنها ما أشقى به ! » وكان يقول أيضا : إن أصدق معادلة فى الدنيا هى : الدين + العلم + الفلسفة + الأخلاق = طظ . وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه . فهو يعجب بقول ديكارت : « أنا أفكر فأنا موجود » . ويتفق معه على أن النفس أساس الوجود ، ثم يقول بعد ذلك إن نفسه أهم ما فى الوجود ! وسعادتها هى كل ما يعنيه . ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيون من أن المجتمع خالق القيم الأخلاقية والدينية جميعا ، ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة في سبيل نفسه وسعادتها !. وإذا كان العلم هو الذى هيأ له التحرر من الأوهام ، فليس يعنى هذا أن يؤمن به أو أن يهبه جياته ، ولكن حسبه أن يستغله وأن يفيد منه . فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين ، وإنما غايته فى دنياه : اللذة والقوة ، بأيسر السبل والوسائل ، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة . لقد استعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه ، ولكن تهيؤه لها نما معه منذ أمد بعيد . فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة ، كان والداه طيبين جاهلين . ولظروفهما الخاصة ، أتم تكوينه فى طرق بلدة القناطر . وكان لداته صبية شطارا ينطلقون على فطرتهم بلا وازع ولا تهذيب فسب وقذف واعتَدى واعتُدى عليه وتردى إلى الهاوية . ولما انتقل إلى جو جديد ـــ المدرسة ـــ أخذ يدرك أنه كان يحيا حياة قذرة ، وعانت نفسه مرارة العار والخوف والقلق والتمرد . ثم وجد نفسه فى بيئة جديدة ، طالبا من طلاب العلم بالجامعة ، ورأى حوله شبانا مهذبين يطمحون إلى الآمال البعيدة والمثل العالية . ولكنه عثر

كذلك على نزعات غريبة وآراء لم تدر له بخلد . عثر على موضة الإلحاد والتفسيرات التى يبشر بها علماء النفس والاجتماع والأخلاق والظاهرات الاجتماعية الأخرى ، وسر بها سرورا شيطانيا ، وجمع من نخالتها فلسفة خاصة اطمأن بها قلبه الذى نهكه الشعور بالضعة ، لقد كان وغدا ساقطا مضمحلا فصار فى غمضة عين فيلسوفا ! المجتمع ساحر قديم ، جعل من أشياء فضائل ، وجعل من أشياء رذائل ، وقد وقف على سره وبرع فى سحره وسيجعل من الفضائل رذائل ومن الرذائل فضائل ؟ وفرك يديه سرورا ، وذكر ماضيه أطيب الذكر ، ورمق مستقبله بعين الاستبشار ، وألقى عن عاتقه شعور الضعة . بيد أنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن فلسفته سرية ، يجوز أن يدعو مأمون رضوان إلى الإسلام جهارا ، ويجوز أن يعلن على طه اعتناقه لحرية الفكر والاشتراكية ، أما فلسفته فينبغى أن تظل سرية ـــ لا احتراما للرأى العام فإن من مبادئها احتقار كل شىء ـــ ولكن لأنها لا تؤتى أكلها إلا إذا كفر الناس بها وآمن بها وحده ! ألا ترى أنه إذا آمن الناس جميعا بالرذيلة لم يتميز بينهم بما يتيح له التفوق عليهم ؟ لذلك احتفظ بها لنفسه ، ولم يعلن منها ما هو فى حكم الموضة كالإلحاد وحرية الفكر . إلا إذا ضاق صدره أو غلبه شعور الوحشة فإنه ينفس عن قلبه بالمزاح والسخرية ، فبدأ للقوم ماجنا لا شيطانا مجرما . ومضى فى سبيله فقيرا بلا خلق يرصد الفرص ويتوثب للانقضاض عليها بجراءة لا تعرف الحدود .

* * *

لبث فى حجرته ينتظر الظلام ، فلقلبه أيضا مغامرات ولكن حبه كفلسفته لا يحيا فى النور ، وما فتاته فى الواقع إلا جامعة أعقاب سجائر . ولشد ما أغضبه حظه من الحب ، ولكن ما الحيلة ونقوده لا تكاد تفى بضرورات الحياة ؟ وكثيرا ما يهزأ بنفسه فيقول : « لست خيرا

منها فهى جامعة أعقاب سجائر ، وأنا جامع أعقاب فلسفة ، ثم إنى فى نظر المجتمع شر منها ! » وقد رمت بها المصادفات بين يديه ، فلم يدع الفرصة تفلت ، وقال متعزيا : من تواضع لله رفعه . رآهـــا ذات مساء ـــ وكان يتمشى فى طريق العزبة المقفر ـــ وراء شجرة تين مع أحد بوابى شارع رشاد باشا . فتربص بها حتى رآها تسير بمفردها بعد أن عاد النوبى إلى الشارع الآخر ، واقترب منها بجراءته ولمس منكبها وهو يقول مبتسما :

ـــ رأيت كل شىء .

فتوقفت الفتاة عن المسير ، ورمقته بعين داهشة ، وتبينها على ضوء الطريق فوجدها شديدة السمرة كاعب الثديين فاضطربت أنفاسه ، وحدجها بعين نمر مفترس .. وأفاقت الفتاة من دهشتها فسألته باستهانة :

ـــ ماذا رأيت ؟

فأجاب محجوب وعيناه تقولان لها « برح الخفاء » :

ـــ شجرة التين .. البواب ..

فسألته بنفس اللهجة الدالة على الاستهانة :

ـــ وماذا تريد ؟ ..

فقال بصوت مضطرب :

ـــ مثله .

ـــ أين ؟

ـــ ليكن نفس المكان .

فدارت على عقبيها ، ولكنها قالت قبل أن تهم بالمسير ، وبصوت يدل على الإنذار :

ـــ ثلاثة قروش !

فغمغم بارتياح :

ــ جميل .

ثمن زهيد لا تنوء به ميزانيته والفتاة لا تخلو من ثدى كاعب . بيد أنه يرجو أن تكون سمرتها القاتمة لونا طبيعيا لا ترابا متلبدا ، وما عليه بعد ذلك إلا أن يتحمل الرائحة الكريهة المنبعثة من جسدها ، لا بأس ، فشيء خير من لا شيء ، وهل ينسى أنه نفسه لم يكن يستحم ــ فى القناطر ــ إلا فى المواسم ؟. بل إنه ليتساءل : ألا يسوى الظلام بين النساء جميعا ؟! وسألها وهما عائدان :

ــ ألك عهد طويل بالبواب ؟

ــ كلا . هذه أول ليلة .

ــ ألم تتواعدا مرة أخرى ؟

ــ كلا .

فقال محجوب بارتياح :

ــ ولكن لن تكون الليلة آخر ليالينا .

فتمتمت وهى تثبت الخمار على رأسها :

ــ وجب .

* * *

وكان الظلام يبتلع الكون ، وما زال بموقفه من النافذة ينتظر موعد صاحبته ، ثم سمع نقرا على الباب ، فدلف منه وفتحه ، فرأى بواب الدار يلوح له بخطاب . وأخذ الخطاب ورد الباب ، وألقى على الظرف نظرة سريعة فرأى ختم القناطر ، ثم لاحظ بسهولة أن الخط غير خط أبيه فمن عسى أن يكون كاتبه ؟! إنه يرى ذلك الخط أول مرة ..

وفض الغلاف متعجبا وقرأ ما يأتى :

حضرة الشاب الفاضل محجوب افندى عبد الدايم :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فإنه يؤسفنا أن نخبركم بأن والدكم العزيز مريض وملازم الفراش ، ونسأل الله أن يجعل العواقب سالمة ، ولكن لا بد من حضورك فى أقرب وقت لتطمئن عليه بنفسك ، وقد طلبوا إلى أن أكتب هذا إليك فلا تتأخر والسلام .

شلبى العفش (صاحب بقالة القناطر الخيرية)

هذا يعنى أن أباه فى حالة عجز تمنعه من أن يمسك بالقلم فماذا أصابه ؟ وقرأ الكتاب للمرة الثانية وقد لاح الوجوم فى وجهه الشاحب وجعل يشد حاجبه الأيسر بأنامله . ومن عجب أنه لا يذكر أن أباه شكا المرض يوما ما ، كان دائما متين البنيان ثقيل الخطوات ، فلا شك أن مرضا خطيرا غدر به وأعجزه . ترى ما الذى يخبئه الغيب ؟.. وماذا يدخر له ولوالدته ؟

ولكن لا يجوز أن يضيع الوقت سدى ، أو أن يؤخر سفره دقيقة . وكتب كلمة لمأمون رضوان يشرح سبب سفره المفاجىء ، ولف جلبابه فى جريدة قديمة . ثم غادر الدار . لم يمض إلى الشارع العزبة كما كان يرجو منذ دقائق ، ولكنه أخذ فى شارع رشاد باشا أو شارع على وإحسان كما يدعوه ساخرا . ومضى يحدث نفسه قائلا : « لو انتهى أجل الرجل لوئدت آمالى جميعا ... رباه ! أيمكن أن يحدث هذا وما عاد بينى وبين الامتحان النهائى سوى أربعة أشهر ! » وجد فى الطريق المقفرة الغارقة قصوره فى جلال الصمت لا يسمع إلا وقع قدميه ، حتى بلغ الجيزة ،

واستقل الترام ، تظلل الكآبة وجهه وعينيه ، وفى جلسته المحزونة سرح به فكره إلى صاحبيه المقربين : مأمون رضوان وعلى طه ، فنفس عليهما ما يتمتعان به من طمأنينة وثقة : مأمون رضوان أبوه مدرس بالمعاهد ، ذو مرتب حسن فلا تعيش أسرته فى ظل الخوف ، وهو يعطى الشاب ما يكفيه وأكثر ولولا حمق مأمون الذى جعله يوقف حياته على العلم والعبادة لكانت له لذات الحياة ولكنه أحمق ، والحمقى دائما مجدودون . أما على طه فأبوه مترجم ببلدية الإسكندرية ذو مرتب ضخم ، والشاب يقبل على التمتع بالحياة فى حدود مثله ، فهو شاب سعيد ، وحسبه إحسان كى يكون سعيدا ، ولعل إنسانا ما لم يثر حسده كما يثيره هذا الشاب الجميل الموفق ، هو هو البائس !.. أبوه ـــ ترى ألا يزال أباه ـــ كاتب بشركة الألبان اليونانية بالقناطر ، خدمة خمسة وعشرين عاما ومرتب ثمانية جنيهات . وإذا انقطع عن العمل فمكافأة أشهر معدودات . وكان الرجل يبذل له من مرتبه ثلاثة جنيهات شهريا أثناء السنة الدراسية ، فنهضت بالضرورات من مسكن ومأكل وملبس ، ورضى بها الشاب رضاء المتمرد المغلوب على أمره وجعل يرمق ملاذ القاهرة من بعيد ، ويسترق السمع إلى أخبارها بنهم وألم . كان ينطوى على شهوة جامحة بقدر ما يضيق بطموح جشع .تواردت عليه هذه الخواطر فساءته تلك الساعة أكثر من أى وقت مضى . ثم فكر فى العلاقة التى تربطه بهما ، وفيما يسمونه بالصداقة ، غافلا عن مشاهد الحقول والمياه التى يطويها الترام فى جريه السريع . أله صديق حقا ؟ كلا ، وما الصداقة إلا إحدى الفضائل التى كفر بها ؟!. حقا إنه يميل إليهما كثيرا ، فنقاش مأمون يستهويه ، وروح على تجذبه إليه ، ويلذه أن يجتمع بهما يتحادثون ويتحاورون ولكن ما شأن ذلك كله بما هو معروف عن الصداقة ؟!. إنه مع ذلك يحسدهما ويمقتهما ؟ ولا يتردد عن إبادتهما لو وجد فى ذلك

نفعا . ومضى يقول لنفسه بلهجة التحريض : « الحرية المطلقة .. طظ المطلقة .. ليكن لى أسوة حسنة فى إبليس .. الرمز الكامل للكمال المطلق .. هو التمرد الحق ، والكبرياء الحق ، والطموح الحق ، والثورة على جميع المبادىء !. وانتهى الترام إلى محطة الإسعاف ، فتركه واستقل تراما آخر إلى ميدان المحطة ، ومن ثم إلى المحطة نفسها ، ثم انطلق إلى شباك تذاكر الدرجة الثالثة وابتاع تذكرة . ولما تحول عن الشباك وجد نفسه أمام شاب فى الثلاثين . متوسط القامة مع ميل إلى القصر والبدانة ، مثلث الوجه كبيره ، كثيف الحاجبين ، حاد البصر ، مستدير العينين ، يلقى على ما حوله نظرة متعالية كلها ثقة وزهو ، فعرفه ، ودنا منه مادا إليه يده باحترام هاتفا :

ــ الأستاذ سالم الإخشيدى !.. السلام عليكم ..

فالتفت إليه دون أن تتغير ملامح وجهه ، ونادرا ما يتغير وجهه ، فهو لا يندهش ولا ينزعج ولا يبدو عليه سرور ولا حزن ، فإذا أراد أن يعلن غضبه ــ وكثيرا ما يفعل ــ استعان بنبرات صوته الغليظ . التفت نحو محجوب وقال بهدوء ورزانة :

ــ كيف أنت يا محجوب ؟

ــ شكرا لك والحمد لله .. ولكن ما الذى جاء بالأستاذ إلى المحطة ؟

فقال الإخشيدى بصوته الرزين :

ــ مسافر إلى بلدتنا القناطر لزيارة والدى ، ولكن ما الذى جاء بك أنت وليس الوقت بموسم إجازات ؟

فقال محجوب بأسف ظاهر :

ــ إلى القناطر أيضا لعيادة والدى المريض .

ــ عبد الدايم افندى مريض ؟.. كتب الله له السلامة . بلغه

تحياتى .

ثم سارا جنبا لجنب فى اتجاه موقف القطار . وكانت أخبار الإخشيدى انقطعت عن محجوب فترة يسيرة ، فسأله :

ـــ ألا تزال يا أستاذ سكرتيرا لقاسم بك فهمى ؟

فلاحت شبه ابتسامة فى عينى الإخشيدى وقال :

ـــ أنا مرشح الآن لوظيفة مدير مكتبه . المذكرة فى المستخدمين .

فقال بسرور ظاهر لا ظل له فى نفسه :

ـــ مبارك .. مبارك يا أستاذ !

فرفع الرجل حاجبيه بزهو ، وقال باقتضاب :

ـــ درجة خامسة .

فهتف محجوب :

ـــ مبارك .. مبارك ، العقبى للرابعة .

فقال الإخشيدى متفلسفا :

ـــ بلدنا منهوب مسلوب ، مسئولياته بيد الضعفاء الأغبياء ، ومهما نرتق فلن نزال دون ما نستحق !

فآمن محجوب على قوله قائلا :

ـــ صدقت يا أستاذ .

ثم استأذن الإخشيدى واتجه نحو عربة الدرجة الأولى ، وأتبعه الشاب عينيه حتى اختفى ، ثم سار إلى الدرجة الثالثة تعلو وجهه الكآبة والأحلام . واتخذ مجلسه من العربة ورأسه لا ينى عن التفكير ، والإخشيدى لا يبرح خياله . منذ عامين كان الإخشيدى طالب ليسانس مثله ـــ محجوب ـــ الآن ، ولعله كان مثله أيضا يكفر بالمبادىء ولكن دون جلبة أو ضوضاء .. وربما كانا لا يختلفان اختلافا جوهريا فى شىء فهما فى الذكاء سواء ، وهما فى الأخلاق ـــ أو عدم الأخلاق ـــ سواء .

ولكنهما جد مختلفين في الإعصاب : فسالم الإخشيدى يزن كلامه وزنا دقيقا ، ولم يعرف عنه أنه مس مبدأ من المبادىء أو خلقا من الأخلاق بكلمة سوء ، أما محجوب فعلى حذره سخر من كل شيء ، ومما يذكره محجوب ولا ينساه أن صاحبه عرف آخر عهده بالكلية كزعيم خطير من زعماء الطلبة ، وكان من أبطال لجان المقاطعة وموزعى المنشورات ضد الدستور الجديد . ومما يذكره ولا ينساه كذلك أن الإخشيدى دعى يوما لمقابلة الوزير ، فذاعت عن المقابلة الأقاويل ، وتوقع كثيرون أن يقع اضطهاد أو بغي ، ولكن الفتى انقلب فجأة وبغير تدرج . انسحب من ميدان السياسة كله ، وتوقف نشاطه الذى لم يكن يعرف الحدود ، ولم يعد يُرى إلا فى حجرات المحاضرات . ولكن إذا واجهه أحد بسؤال عن سر انقلابه أجابه ببروده المعهود : « ميدان الجهاد الحقيقى للطلبة : العلم ! » ثم حصل على الليسانس ، وعيِّن ــ قبل أوائل الطلبة ــ سكرتيرا لقاسم بك فهمى ، وكان واسطته الوزير نفسه . بل وضع في السادسة ــ وهى وقتذاك فردوس مفقود ــ وها هو يرشح للخامسة قبل أن يمضى على تعيينه سنتان ، وبعد أن استقال بمدة كبيرة الوزير الذى عينه ، مما يدل على أنه حاز ثقة قاسم بك نفسه وأنه يسير قُدُما . يا له من مثال يحتذى ! يا له من رجل يستحق من الإعجاب قدر ما يستوجب من الحسد !.. لكم يبدو عليه جاه المنصب ، وإقبال الحياة !.. ماذا يضيره إذا احتقره مأمون رضوان أو على طه ؟!.. طظ ..

وكان القطار يطوى الأرض طيا ، والبرودة تنفذ إلى الداخل على الرغم من إحكام غلق النوافذ ، ولكنه لم يشعر بالبرودة تماما إلا حين كف عن التفكير فزرر الجاكتة واعتدل في جلسته . سرعان ما عاد إلى تذكر أبيه المريض ، فأدرك أنه يغرق فى الأحلام متغافلا عن الهاوية تحت قدميه . وعاد إلى وجومه ، مرسلا نظرة حزينة كئيبة ، حتى وقف القطار فى القناطر ، فاخذ لفافته وغادره . ثم ترك المحطة إلى الطريق العام ، وألقى على المدينة نظرة شاملة وهتف : « يا قناطر يا بلدنا .. وزعى الحظ بين أبنائك بالعدل ! » .

ـ ٧ ـ

ولم تمض سوى دقائق معدودات حتى وجد نفسه أمام البيت الصغير الذى ولد فيه ، بيت من طابق واحد ، يتقدمه فناء ترابى مسوَّر بدرابزين خشبى ، يدل مظهره على البساطة والتقشف .

وكان يواجه المحطة فى الجانب الآخر من الطريق ، ويطل سطحه على الحقول فيما وراء السكة الحديدية . وبدا البيت مظلما غير بصيص نور يلوح من خصاص نافذة أبيه . فخفق قلبه خفقانا متداركا ، وصرخ به الخوف والرجاء . واجتاز الفناء إلى المدخل وطرقه بخفة ، فسمع وقع قبقاب ، وعرف صاحبته وفتح الباب ، وبدا شبحها وراءه ، فأقبل نحوها قائلا :

ـ مساء الخير يا أماه .

فسمع صوتا يقول متنهدا : « أنت ! » ثم أخذت يده بين يديها ، وقالت بنفس الصوت المتعب :

ـ كيف أنت يا بنى ؟ حدثنى قلبى بأنك الطارق .

وكان الدهليز مظلما فلم يتبين ملامح وجهها ، فردَّ الباب وهو يتساءل بلهفة :

ـ أماه .. ماذا حدث ؟ .. كيف حال أبى ؟

فقالت المرأة بصوت محزون :

ـ ربنا يأخذ بيده .

ووضع لفافة الجلباب على خوان ، ودخل الحجرة بقدمين محاذرتين ، وسبقته عيناه إلى الراقد على الفراش ، واقترب منه ، وكان رأس الرجل مائلا نحو الجدار . غمغم بصوت خافت :

ـ مساء الخير يا أبى .. كيف حالك ؟

ولم يبد على الأب أنه سمع حسا أو أدرك شيئا ، فانحنت الأم على رأسه وقالت :

ــ محجوب يمسّي عليك ..

واعتدل رأس الرجل ببطء ، وتحرك جفناه ، ثم أبرز يسراه ، فأخذها محجوب بين يديه وقبّلها ، وبدا الرجل مريضا جدا وبدت عيناه مظلمتين كأنهما تقطران من ماء آسن ، وفمه معوجا ؛ قال محجوب :

ــ أبى .. كيف أنت ؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

وثبت الرجل عينيه عليه ، وتكلم بصوت متحشرج ، متقطع المخارج قائلا :

ــ لم يعاودنى النطق إلا ظهر اليوم !

فارتاع محجوب وسأل أمه :

ــ هل عجز وقتا عن النطق ؟

فقالت المرأة المتعَبة :

ــ أجل يا بنى . كان فى عمله عصر الثلاثاء الماضى كالعادة ، فسقط فجأة فاقد النطق ، وجاءوا به محمولا ، ودعوا بالطبيب . وأتى الطبيب فحجمه وحقنه ، ولا يزال يعوده كل صباح ، ولكن لم يعاوده النطق إلا قبل ظهر اليوم .

ــ ماذا قال الطبيب ؟

فلاحت فى عينيها نظرة حيرى ، وتحركت شفتاها دون أن يسمع لها صوت ، فقال أبوه :

ــ قال إنه شلل .. شلل .. جزئى ..

وارتاع الشاب لفظاعة الاسم ، وإن كان يجهل حقيقته كل الجهل .

وأرادت أمه أن تفرخ روعه فقالت :

ــ ولكنه أكد صباح اليوم زوال الخطر ..

فاستطرد الأب بصوته المتقطع الغامض :

ـــ إنى .. أفهم .. ما يقال .. لن أعود كما كنت أبدا ..

فعض محجوب على شفتيه وسأل والدته :

ـــ هل وقع الأمر بغتة ؟

ـــ كلا يا بنى ، كان أبوك كعهدنا به صحة وعافية ، بيد أن ثقلا اعتور ساقه اليمنى ، وصداعا شق عليه مساء الاثنين ..

وساد الصمت ، فأغمض المريض جفنيه ، ولبث بلا حراك ، كأنما راح فى سبات عميق . وعطف الشاب رأسه إلى أمه ، فأيقن أول وهلة أنها لم تذق للنوم طعما منذ مساء الثلاثاء ، عيناها محمرتان ذابلتان ، تطوقهما هالتان زرقاوان ، وبشرتها شديدة الصفرة ، وامتلأ حزنا وكمدا ولاح والداه لعينيه مخلوقين بائسين مثله تماما . وجلس على كرسى قريبا من الفراش ثم أطرق متفكرا : هذه أسرة يتعلق مصيرها بحياة رجل مهدم ، فماذا تحت الجفنين المطبقين ؟ .. أحياة أم موت ؟.. أنجاح أم تشرد ؟! لماذا لم يتأخر هذا الشلل عاما آخر ؟! وذكر شارع رشاد باشا الصامت الجليل ، والقصور القائمة على جانبيه ، والباشوات والبكوات تحملهم السيارات منه وإليه ، والنساء اللاتى يلُحنَ وراء ستائره وبين خمائله . فأين من أولئك والداه البائسان ؟!. وهذا البيت المتداعى !! وجعل يقول لنفسه : إنه لو كان وريث أحد تلك القصور وأشفى أبوه ـــ الباشا ـــ على الموت لانتظر موته بفارغ الصبر . وتنهد من قلب مكلوم وقد احتدم الغيظ فى قلبه ثم تساءل وهو لا يتحول عن إطراقه : ترى كيف تنتهى هذه المأساة ؟!

* * *

واسترق النظر إلى أمه ، وكانت تجلس مطرقة عند قدميه ، فرآها غارقة فى السواد الذى حلفت ألا تخلعه مدى الحياة منذ ماتت له أختان

بالتيفود ، ذابلة الوجه ، تبدو أكبر من سنها الذى جاوز الخمسين بقليل ، تنوء بأثقال عمر أنفقته أمام لهب الكانون ووهج الفرن ، تعجن وتخبز وتغسل وتكنس ، فتحجرت أصابع يديها وبرزت عروق ظاهر كفيها ، لم تجد فى حياتها وقتا للثرثرة ، كانت كالبترول الذى يحرك آلة كبيرة دون أن تدركه الحواس . وكانت تحب ابنها حب عبادة ، وقد تضاعف هذا الحب بعد وفاة شقيقتيه فى ميعة الصبا ، ولكنها لم تترك أثرا يذكر فى تكوينه وتربيته ، وكانت لا تجد فى حياتها مَن تكلمه فعاشت كالبكم فى صمت وجهالة . وقد أقسرت الظروف أباه على الاختفاء من حياته كذلك ، فكان يواصل العمل فى الشركة من الصباح حتى ما بعد العشاء ، ثم يهرع بعد ذلك إلى حلقات الأذكار حتى منتصف الليل ، فكان لا يكاد يرى ابنه . وكان رجلا مجدًّا دعوبا ، مخلصا لبيئته ، وصورة منها ، لا يشذ عنها فى شىء ، يفاخر كثيرا بقرابته لأحد كبار الموظفين — قريب زوجه — وكان كزوجه لا يعرف الراحة ، فلم يهنأ بحياته الزوجية ، واقتصرت رعايته لابنه على إلزامه بالقيام ببعض فروض دينه مستعينا بالعصا فى أحايين كثيرة ، لذلك جميعه ، نشأ محجوب على خوف من أبيه ، وانطلق إلى الشارع الذى أتم تربيته وتكوينه ، ولذلك كانت صلته بوالديه واهية باهتة . كان يحب أمه أكثر من أبيه ، ولكنه بات على استعداد دائما لأن يخضع صلته بهما لفلسفته المدمرة التى لا تبقى على شىء ، فلم يكن حزنه حزنا على والده بقدر ما كان إشفاقا على الرجل الذى ينفق عليه ثلاثة جنيهات كل شهر .

— ٨ —

في صباح اليوم الثانى جاء الطبيب وفحص المريض وحقنه بالكافور ، ثم صرح بارتياحه للحالة مؤكدا أن الخطر زال تماما . وغادر الرجل الحجرة يتبعه محجوب حتى ادركه فى الفناء ، والتفت الطبيب إليه وقد أدرك الباعث الذى حمله على اللحاق به :

ـــ الحقيقة ما قلت لأبيك ، الإصابة جزئية وإلا كانت القاضية . بيد أنى صارحته كذلك بأنه لن يعود إلى عمله ، وسيلازم الفراش بضعة أشهر ، ولكنه سيحرك جنبه المشلول . بل ربما عاود المشى .

ووقف انتباهه عند « لن يعود إلى عمله » فلم يدر شيئا مما قال بعد ذلك ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وعاد إلى الحجرة ذاهلا ، وكان أبوه ذا طبيعة عملية ، لا يدع أمرا معلقا إذا أمكن أن يبت فيه برأى ، فدعا ابنه إلى الاقتراب من الفراش ، وقال بلسان ثقيل :

ـــ أصغ إلىَّ يا بنى ، لن أعود إلى عملى بالشركة ، هذه هى الحقيقة فماذا ترى ؟

فازداد صدر محجوب انقباضا ، ولازم الصمت فى انتظار النطق بالحكم ، فاستدرك الرجل :

ـــ ربما منحتنى الشركة مكافأة صغيرة ، ستفقد بلا ريب قبل مضى أشهر قلائل ، بل المؤكد أنه لن يبقى منها شىء بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر ، ولكن لن أعدم نصيرا يجد لك وظيفة تنهض بنا جميعا ..

فقال محجوب بتوسل ، وقد نطقت عيناه بالألم والقنوط :

ـــ الامتحان يا أبى على الأبواب ، نحن فى يناير وهو فى مايو ، أما إذا وظِّفت الآن فسأعد كحامل البكالوريا ، وفى ذلك ضياع لمستقبلى عظيم ..

فقال الأب بحزن :

ـــ أعلم ذلك ، ولكن ما الحيلة ؟ أخاف أن نتعرض للفضيحة أو نهلك جوعا !

فقال الشاب بتوسل حار ، وبصوت ملأه حماسا وقوة :

ـــ أربعة أشهر ، أربعة أشهر فقط بينى وبين ثمرة كد خمسة عشر عاما .. أمهلنى قليلا يا أبتى ، ستكفينا المكافأة حتى أنهض على قدمىّ ، لن نجوع ، ولن نتعرض للفضيحة بإذن الله .

ـــ وماذا يكون من أمرنا إذا أخطأ تقديرك ؟.. إذا خاب سعيك لا قدَّر الله ؟ إن حياتنا بيديك ؟!.

فقال محجوب وهو يعض بنواجذه على أهداب الأمل :

ـــ أنت لا تدرى يا أبى كيف سيكون اجتهادى ! لن يحول بينى وبين النجاح حائل !

وتردد الشاب لحظة ثم قال :

ـــ وهناك قريب والدتى أحمد بك حمديس !

ولكن والده رفع يسراه محتجا ، وقطب استياء ، فخاف الشاب أن يفقد عطفه ، وأن يذهب ما بذل فى إقناعه هباء ، فقال بسرعة :

ـــ لا حاجة بنا إلى معونة أحد ، وستسير الأمور بإذن الله وفق آمالى

وأدرك أنه أخطأ بذكر قريبهم العظيم الذى تناساهم واحتقر صلته بهم منذ تبوأ مركزه الرفيع . أجل إن والده يفاخر جهارا ـــ على مسمع من الغرباء ـــ بقرابته ، ولكن طالما أنحى عليه باللائمة أمام والدته ، وطالما أضمر له الاستياء واللوم . أدرك محجوب ذلك نادما ، وعاد يقول :

ـــ لا حاجة بنا إلى معونة أحد ، ولكن ينبغى أن نستوصى بالصبر وأن نطمئن إلى رحمة الله ، أربعة أشهر فحسب وبعدها الفرج !..

وكان أبوه يعلم أن المكافأة تكفيهم ـــ مع التقتير ـــ خمسة أشهر أو

ستة ، فتفكر مليا ثم سأله :

ـــ تستطيع أن تعيش بجنيه واحد فى الشهر ؟

جنيه واحد ! أو ما يساوى إيجار حجرة بدار الطلبة ؟.. رباه ! بالأمس ضاقت به الدنيا ونفقته ثلاثة جنيهات ، فماذا هو صانع غدا بجنيه واحد ؟! ولم يمهله الرجل طويلا فاستدرك قائلا :

ـــ لا حيلة لى والخيار بين يديك !

هل يملك خيارا حقا ؟! كلا ، إن أباه مُكره ، وما عليه إلا الإذعان والتسليم قال :

ـــ لتكن مشيئتك .

فقال الشيخ :

ـــ لتكن مشيئة الله ، والله مسئول أن يوفقك لما فيه الخير ، وأن يصل بك جناحنا المهيض .

واقترح الرجل على ابنه أن يرحل مساء حتى لا يضيع وقتا هو فى أشد الحاجة إليه . وعند المساء ودَّع الشاب والديه ، فقبَّل يد والده ، واستسلم لأمه تقبله وتباركه . وحين همَّ بمغادرة الحجرة سمع والده يقول له :

ـــ الله معك اجتهد وتوكل على الله ، ولا تنس أنك أملنا الوحيد ..

ومضى إلى المحطة ، ومهما يكن من أمر فقد استنقذ من الحيرة التى نهكته عند مجيئه . وعلم الآن أن أمله لا يزال معلَّقا بخيط لم يقطع بعد . أما ما يُنذر به المستقبل من متاعب فسيعرف كيف يعالجها مهما كلَّفه الأمر . وودَّع البلد وداعا فاترا . واتخذ مكانه بالقطار ، وسرعان ما تناسى البيت والأسرة فلم يعد يذكر إلا نفسه ، تساءل وهو ينتف حاجبه الأيسر : لماذا قُدِّر له أن يولد فى ذلك البيت ؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان والفقر والدمامة ؟ أليس من الظلم أن يرسف فى هذه الأغلال قبل أن يرى النور ؟ ولو كان ابن حمديس بك مثلا لكان له جسم غير هذا الجسم

ووجه غير هذا الوجه وحظ غير هذا الحظ ، ولذاق الطمأنينة والسلام ، ولاقتنى سيارة . وتفكر محزونا فى الفقر الذى يتربص به ، فرآه يبتسم إليه هازئا كأنما يقول له : « ما استطعت دفعى بثلاثة جنيهات ، فهل تدفعنى غدا بجنيه واحد ! » . أين يسكن ؟.. كيف يأكل ؟.. وهز رأسه فى كمد ، ولكنه لم يشعر بخور أو تخاذل . كان عظيم الثقة بنفسه ، جريئا إلى أقصى حد ، بيد أنه تميز غيظا وحنقا .

— ٩ —

وشارف شارع رشاد باشا والشمس تذوب فى بحيرة الشفق الدامية ، والسمرة تلون حواشى الآفاق . ولاحت منه التفاتة وهو ينعطف إلى الشارع فرأى على طه قادما من ناحية الجامعة ، فوقف ينتظره ، وتصافحا ثم قال على باهتمام :

— حدثنى الأستاذ مأمون عن مرض والدك ، فأسفت لذلك غاية الأسف . وإنه ليسرنى أن أستدل بسرعة عودتك على اطمئنانك !

وكره أن يطلع مخلوقا على أحزانه ، فقال باقتضاب مبتسما :

— شكرا لك ..

— أليس هو بخير ؟

— بلى .. شكرا .

وسارا جنبا لجنب على مهل كأنهما يتنزهان ، وتساءل محجوب ترى آت صاحبه من موعد غرام أم ذاهب إليه ؟!. هذا الشاب الذى يجد فى محضره من دواعى السرور قدر ما يجد من دواعى الألم ، واسترق إليه النظر فرآه يسير حالما يضيء الابتسام وجهه ويقبس جبينه من نور البشر والبشاشة ، ويهتز طربا من نشوة الحب . أليس توفيق العاشق كظفر المحارب لذة وخيلاء ؟!.. وشعر برغبة لا تقاوم فى استدراجه إلى هذا

الحديث الجميل ، فقال مشيرا إلى مغارس الشجر مبتسما ابتسامة لها معناها :

ــ آه لو ينطق هذا الشجر !

ففطن على طه إلى مرمى إشارته ، وكان وجدانه من اليقظة بحيث ألحت عليه الإبانة والحاجة إلى التعبير ، فقال بتأثر :

ــ أستاذ محجوب ، هو ما تظن ، ولكن لا تنظر إلى الأمر بعين السخرية ، كلا ، ما هو بالهزل . إن هزة قلب خطير له من المغزى فى هذا الوجود ما لحركة الأفلاك فى السموات ؛ فلا تذكر أبدا خزان البخار وصمام الأمن .

وشعر محجوب نحو محدثه باحتقار شديد ، ضاعفه ما نمَّت عليه نبراته من التأثر ، وضاعفه أيضا ما يكنُّه له من الحسد ، وقال فى نفسه ساخرا : حتى وظيفة التناسل يريد الأحمق أن يجعل منها محرابا مقدسا ، ثم قال بهدوء وبرود :

ــ يا أيها العاشقون ، لا أعبد ما تعبدون !

فابتسم على قائلا :

ــ ولا نحن عابدون ما تعبد .

وخاف محجوب أن تعيد سخريته الشاب إلى رشاده ، فندم على ما فرط منه وأراد أن يداريه ، فغيَّر لهجته وتساءل باهتمام ظاهرى :

ــ غريب أمر هذا الحب !.. بيد أن فتاتك متفوقة حقا !

فقال على بحماس :

ــ ليس الجمال فضيلتها الوحيدة : روحها لطيف ، وفؤادها ذكى ، ويعجزنى وايم الحق أن أعبِّر لك عن امتزاج روحينا . هذه إحسان !..

واضطربت نفس الآخر لدى سماع الاسم ، فامتلأ حنقا فجأة . ترى أهذه هى الغيرة التى يقولون عنها ؟ .. يا للعار ! كيف يقع فى ذل الغيرة من

يطمح إلى تحطيم الأغلال جميعا ؟! وعاد يقول بلهجة جديدة يخفى بها سخرية جديدة :

ــ أظن كمال هذا الامتزاج يوجب أن تكون فتاتك محررة من الدِّين ، مؤمنة بالمجتمع والمثل العليا والاشتراكية !

فقال على برزانة :

ــ حسبنا أن نحيا حياة وجدانية روحية واحدة ، وسوف يتحد عقلانا بالاختلاط ، فنكون أسرة سعيدة يوما ما ..

فقال محجوب باستغراب :

ــ أبلغتما هذا الحد ؟

ــ نعم .

ــ هل تكاشفتما ؟

ــ نعم . سأنتظر حتى تنتهى من دراستها العليا ..

ــ مبارك يا أستاذ .

وعز عليه أن يهنىء وهو أحق إنسان بالعزاء ، وامتلأ شجنا وانقباضا ، فاز علىّ بأجمل مليحة فى القاهرة ، وغدا الجسد اللَّدِن الطرى من نصيبه واندفع إلى السؤال بغير روية :

ــ كيف عرفتها ؟.. فى الطريق ؟..

فقال على بدهشة :

ــ كلا .. من النافذة !

ــ ولكن غيرك نظر أيضا ؟

أفلتت منه الجملة بغير روية أيضا ، فندم عليها أشد الندم ، وخاف أن يفهمها صاحبه على حقيقتها فاستدرك يضلله :

ــ جيراننا الطلبة ينظرون كذلك ..

فصمت على مبتسما ، وسكت محجوب أن يورده لسانه عثرة

جديدة . وشارفا دار الطلبة : بدت كالثكنة العسكرية ، ببنائها الضخم ونوافذها العديدة الصغيرة ، ورأيا فى مقابلها ــ عند ناصية شارع العزبة ــ دار عم شحاتة تركى ، كان الرجل واقفا أمام دكانه ، كان فى الخمسين ، أبيض البشرة ، حسن الوجه فقال محجوب لنفسه ساخرا : « نعم الصهر » . ودخلا الدار الكبيرة ، أسعد الناس وأشقاهم

ـ ١٠ ـ

واجتمع الأصدقاء الثلاثة فى حجرة مأمون رضوان ، وكانت النافذة مغلقة والمدفأة وسط الحجرة يعلوها غشاء من الرماد . وكان مأمون ينتقد خطبة الجمعة التى استمع إليها ظهرا ، وجعل يقول إن خطب الجمعة فى حاجة ماسة إلى التجديد ، وأنها بحالتها الراهنة دعوة صريحة للجهل والخرافة .

ولم تكن خطبة الجمعة مما يأبه له صاحباه ، بيد أن على طه قال :

ــ الحاجة ماسة حقا إلى وعَّاظ من نوع جديد ، من كليتنا لا من الأزهر يبينون للشعب أنه مسلوب الحقوق ، ويدلُّونه على سبيل الخلاص ..

وكان من عادة محجوب عبد الدائم أن يشترك فى أحاديث صاحبيه ، لا عن إيمان برأى فلم يكن له رأى يؤمن به ، ولكن حبا فى الجدل والسخرية . ولكنه شعر ذلك المساء ــ أكثر من ذى قبل ــ أنه من الشعب البائس الذى يعنيه على ، فأراد أن ينفس عن صدره المحزون بالكلام ، ولم يكن الشعب شيئا يهمه ، ولكنه لم يستطع أن يطرق همومه الخاصة إلا عن سبيله ، فقال :

ــ جميل .. إن علّتنا الفقر .

فقال على طه بحماس :

ــ هو الحق ، الفقر الذى يختنق فى جوِّه الفاسد ، العلم والصحة والفضيلة ، إن من يرضى بحال الفلاح حيوان أو شيطان !

فقال محجوب فى نفسه : أو عاقل مثلى على شرط أن يكون غنيا . ثم تساءل بصوت مسموع :

ــ عرفنا الداء ، وهذا شىء ميسور ، ولكن ما العلاج ؟

فقال مأمون رضوان وهو يثبت طاقيته :

ــ الدين ، الإسلام بلسم لجميع آلامنا ..

ومدَّ على طه ساقيه حتى كادتا تمسان المدفأة ، وقال دون مبالاة لما قال صاحب الحجرة :

ــ الحكومة والبرلمان ..

فقال محجوب :

ــ الحكومة .. أى الأغنياء أو الأسر . والحكومة أسرة واحدة . الوزراء يعينون الوكلاء من الأقارب ، الوكلاء يختارون المديرين من الأقارب ، المديرون ينتخبون الرؤساء من الأقارب ، الرؤساء يختارون الموظفين من الأقارب ، حتى الخدم يختارون من خدم البيوت الكبيرة . فالحكومة أسرة واحدة ، أو طبقة واحدة متعددة الأسر ، وهى حقيقة بأن تضحى بمصلحة الشعب إذا تعارضت مع مصلحتها .

ــ والبرلمان ؟

فقال محجوب مبتسما بخبث :

ــ النائب الذى ينفق مئات الجنيهات قبل أن يُنتخب لا يمكن أن يمثِّل الشعب الفقير ، والبرلمان فى ذلك شأنه شأن المؤسسات الأخرى ، انظر إلى قصر العينى مثلا . فالاسم مستشفى الشعب الفقير ، وبالفعل

حقل تجارب لإجراء اختبارات الموت على الفقراء ..

فقال على طه بهدوء :

ــ السخط شعور مقدس ، أما اليأس فمرض ،ومهما يكن من أمر فالبرلمان بحيرة تلتقى فيها جداول متباينة المصادر ، لا محيد عن أن تمتزج أمواهها ، وينشأ عنها نبع جديد ..

فابتسم محجوب ابتسامة مرة وتمتم :.

ــ تعجبنى هذه الأسماء : أحمس والهكسوس ، منفتاح واليهود ، عرابى والجراكسة !

فقال مأمون رضوان ضاحكا :

ــ أعجب شيء أن طه شيوعى بَنَّاء بينما أنت مدمِّر .. أنت أحق الناس بلقب فوضوى .

فقهقه محجوب حتى سعل وقال :

ــ نحن نشق على أنفسنا أكثر مما ينبغى ، كأن هذه الحجرة مسئولة عن رفاهية الدنيا ..

فقال على طه :

ــ سوف تصغى جدرانها إلى آمال الأجيال المتعاقبة ما دامت حجرة للطلبة ..

فقال مأمون رضوان باهتمام متسائلا :

ــ هذه الحجرة معمل تفريخ ، فما الخطوة التالية ؟

فقال محجوب بسرور شرير :

ــ السجن إن كنا من الصادقين !

ثم ذكر الهموم التى جاء بها من القناطر ففقد حماسه للحديث ، ونهض مستأذنا فى الانصراف بتعب السفر ، ومضى إلى حجرته ، وجلس إلى مكتبه الصغير محزونا متفكرا : إذا انتهى يناير انتهت معه

« رفاهية » حياته الراهنة ! . أجل بدت له هذه الحياة فيما مضى جحيما ، ولكنها إلى ما ينتظره من حياة الغد نعيم مفقود !. ولا شك أن الأشهر الثلاثة القادمة تحمل فى طياتها ألوانا من الشقاء لم يحلم بها قط ، فماذا هو صانع ؟ ومضى يشد حاجبه الأيسر مقطبا يلوح فى وجهه الشاحب العزم والتحدى ..

— ١١ —

ونشط فى الأيام الباقية من يناير للبحث عن حجرة رخيصة ولم يظفر بحاجته بسهولة لأن الحى من الأحياء المأهولة ، ولأنه مكتظ بالطلبة ، وهؤلاء يتقاتلون على الحجرات المنعزلة فوق الأسطح ، ثم عثر فى النهاية على حجرة سطحية بعمارة جديدة بشارع جركس — على مقربة من ميدان الجيزة — ولكن جدتها كانت طامة عليه لأن صاحب العمارة أبى أن يكرى الحجرة بأقل من أربعين قرشا ، فاضطر محجوب إلى القبول مغلوبا على أمره . وأخبر أصحابه بأنه سينتقل إلى حجرة بعمارة جديدة ، وقال لهم — وهو يغمز بعينه — إن أسبابا خاصة دعت إلى ذلك . قال ذلك وهو يعلم أنه سيعجزه غدا وصال جامعة الأعقاب ، ولكنه آثر كذبا من هذا النوع على إذلال كبريائه . ووجد نفسه فى حاجة إلى نفقات النقل وابتياع مصباح غازى ، فنظر فى أثاثه البسيط فلم يجد شيئا يمكن الاستغناء عنه ، سوى صوان الثياب الصغير — أشبه بصندوق منه بصوان — باعه سرا بمساعدة البواب بثلاثين قرشا . وفى أول يوم من فبراير حزم متاعه وودع صحابه وانتقل إلى الحجرة الجديدة . وأدى الإيجار مقدما فلم يبق معه من نفقته الجديدة إلا ستون قرشا هى جماع ما يملك طوال الشهر . قرشان لليوم الواحد ، للغذاء والعاز ، وهناك الغسل ضرورة لا محيص عنها — وليترك

الكنس جانبا ـــ ثم الحلاقة ، أما فنجان القهوة فمن الكماليات المحرمة . وليس فيما بقى من أثاثه الحقير ما يمكن الاستغناء عنه أو ما يطمع أن يأتيه بثمن يذكر ، فالفراش وهو أهم ما لديه لا يكاد يساوى نصف جنيه ، ونفعه مع ذلك لا يقدر : فعليه يرقد وتحت حشيته يحفظ ثيابه . وهز رأسه ذا الشعر المفلفل وغمغم : « ستكر الأشهر الثلاثة كما يكر غيرها من الأيام ، ولن أموت جوعا على أى حال » . وبات ليلته الأولى بالمسكن الجديد .

وفى صباح اليوم الثانى غادر الحجرة بعد أن أغلقها ، وأراد البواب أن ينظفها له ولكنه رده مشكورا ، وكان فى الحقيقة يهرب لأنه لا يستطيع أن يتنازل له عن مليم واحد . وبلغ ميدان الجيزة ، وجال ببصره حتى استقر على دكان فول مدمس فتوجه إليه واجما . ووجد جماعات العمال يقتعدون الإفريز أمام الدكان يلتهمون طعامهم ويتحادثون ويتضاحكون فقال لنفسه : « أصبحت واحدا من هؤلاء العمال الذين يرثى لهم على طه .. » وطلب نصف رغيف وانتحى جانبا يأكله بشهية ، فانتهى ولما يشبع . وكان بطبعه عظيم الشهية يتناول فى إفطاره صفحة فول ورغيف غير البصل والمخلل ، ولكنه لا يستطيع أن يأكل أكثر من وجبتين صغيرتين فى اليوم . وهز منكبه ومضى فى سبيل الجامعة وهو يقول : « لشد ما أنا فى حاجة إلى صفاء الذهن ، فإما النجاح وإما الانتحار ! » ومضى وقت الدراسة كالعادة ، وقابل أصحابه جميعا ، وأنفقوا فى حديقة الأورمان وقتا غير يسير يتناقشون فى المحاضرات . وعندما أزف وقت الغداء انفصل عنهم فذهبوا إلى المقصف ، وعاد هو إلى ميدان الجيزة ، بالأمس فقط تناول غداءه بالمقصف مع على ، ومأمون ، وأحمد بدير ، وكان مكونا من صفحة سبانخ باللحم الضانى وأرز وبرتقالة ، أما اليوم ...! ، وأقبل على دكان الفول وقد استقبله صاحبها بابتسامة وهو يقول : « أهلا وسهلا » . فآذته تحيته ونالت من كبريائه . وكان إلى جانب دكان الفول دكان كباب فحمل الهواء دخان الشواء إلى

أنفه . فسال لعابه وتوجعت معدته ، ثم أخذ الرغيف ــ ومضى فارًا من الرائحة الشهية . وعاد إلى حجرته وفتح بابها ، فشم رائحة هواء فاسد لأنه كان قد ترك النافذة مغلقة ، ورأى الغبار يعلو المكتب والكتب ، والبطانية مكومة على الفراش ، فأدرك أن عليه منذ الساعة أن يكون طالبا وخادما وربما « غسالة » أيضا ، وشرع فى القيام بوظائفه الجديدة ممتعضا ثائرا ، الحياة الجديدة شاقة متعبة ، سيواصل دراسته بلا ريب ، وسيواصلها بعزم وعناد ، ولكن لن يسكت له جوع أو يطمئن له جانب ، وسيسهر الليالى طاويا ، يجلس إلى مكتبه الساعات الطوال مثلج الأطراف مقوس الظهر ، وربما فضحه مظهره وعرضه للهزء والسخرية ، وربما نال منه الجوع فأسقمه .

ولكن ليس له إلا أن يكافح بصلابة وعناد ، وأن يتحدى الناس والحظ والدنيا جميعا وأن يغضب وأن يحقد وأن يجن جنونا . استمر فى عمله حتى انتصف الليل ، ثم ترك مكتبه إلى فراشه ، ورقد عليه منهوك القوى ، وهو يغمغم :

ــ انتهت أولى ليالى محنتى !..

ــ ١٢ ــ

وفى صباح اليوم الثانى استيقظ متعبا موجع الرأس ؛ ومن عجب أنه لم يكن جائعا ، ولكنه ذكر آلام جوع الليلة الماضية ، فإن رغيف الفول لم يصمد بعد العشى . وتركه لجوع قاس أليم ، وقد خطر له أن يضرب عن طعام الإفطار على أن يتناول فى غدائه رغيفا ونصف ، فيضمن راحة الليل ويذاكر رخى البال ، أما ساعات النصف الأول من النهار فالدروس كفيلة بأن تشغله عن معدته فى أثنائها . فكرة طيبة جديرة حقا برأس فقير معدم

والعادة كفيلة بأن تجعل الألم غير أليم ، بيد أنه ما كاد يكرع كرعة روية ويستروح نسائم الصباح فى الطريق حتى تمطى وحْش معدته ، فانهارت عزيمته ، وهرول إلى دكان الفول لا يلوى على شىء . وراح ــ وهو يتناول طعامه ــ يذكر ما يقال عن سير متصوفى الهنود ، وعجب كيف يقاومون الجوع تلك المقاومة الخارقة ، وكيف يصبرون على الألم ذلك الصبر المر ، ويجدون فى هذا وذاك لذة عالية !.. رباه .. لشد ما احتارت هذه الكلمة البديعة « اللذة » بين أمزجة البشر . أما هو فلذّاته بيِّنة ، وحرمانه بيِّن كذلك ، حتى جامعة الأعقاب أمست عزيزة المنال !. وذهب إلى الكلية ، وحضر الدرس الأول ، ثم مضى إلى الحديقة ينتظر الدرس الثانى الذى يبدأ بعد ساعتين وجلس على أريكة وسط جمع من الطلبة يستمتعون بأشعة الشمس اللطيفة التى يجود بها فبراير جود مقتر شحيح . وكانوا يتحادثون بحمية الشباب وينتقلون من موضوع إلى موضوع كيفما شاءوا : تلك الآنسة البدينة التى تضطرب نبراتها ويتهدج صوتها إذا نهضت لقراءة نص من النصوص ، ومستر أرفنج مدرس اللاتينى ذو الشعر الذهبى .. ألم يكن من الإنصاف لو خلق أنثى ، وخُلقت آنسة درية ذَكَرا ؟! السينما وتهديدها للثقافة الحقة والفن الرفيع ، والويسكى والحشيش وأيهما أمتع ، هل يعود دستور سنة ١٩٢٣؟ ، من صاحب الفضل الأكبر فى إنشاء الجامعة ؟ الملك أم المغفور له سعد زغلول ؟ جماعة مصر الفتاة هل هم مخلصون أم دسيسة ؟ من أحق بالفضل فى نهضة المسرح يوسف وهبى أم فاطمة رشدى ؟ أيهما خير للوطن أن يتم الأمير فاروق دراسته فى إيطاليا كما يريد والده ، أم فى إنجلترا كما يريد الإنجليز ؟. امتلأ الجو آراء وملاحظات ، وضج بالضحكات والصياح ، واشترك محجوب فى الكلام بقدر ، وأصغى لما يقال بسخريته كالعادة ، ثم نهض يتمشى فى أرجاء الحديقة الواسعة ، حتى أزف وقت الدرس

فانطلق إلى الكلية ، وبعد انتهاء الدرس خرج متأبطا ذراع أحمد بدير ، وقد قال له الشاب الصحافى :

ـــ مبارك عليك السكن الجديد .

فقال محجوب مبتسما :

ـــ بارك الله فيك .

فسأله الشاب وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة :

ـــ من أسرة أم من بنات الهوى ؟

فأدرك محجوب فى الحال عم يتساءل صاحبه ، وارتاح لذلك ، وأجابه بابتسامة غامضة قائلا :

ـــ هذا سر لا يذاع !

ـــ هل تقيم معك فى الحجرة أم توافيك إليها الليلة بعد الليلة ؟

فقال محجوب بزهو :

ـــ الإقامة مجلبة للشبهات كما تعلم !

فهز الصحافى رأسه وهو يمصمص بفمه وقال :

ـــ يا حظك !..

وتتابعت أيام فبراير ومتاعب الحياة تصكه صكا ، ولاحقه شبح الجوع ليلا نهارا ، فلم تطمئن معدته إلا سويعات معدودات فى اليوم الطويل . وكان إلى عمله الدراسى يكنس حجرته وينظف مكتبه ويرتب فراشه ويغسل مناديله وجواربه وقمصانه . ولم يدر كيف يقتنى الحوائج التى يعدها غيره تافهة كابتياع قطعة من الصابون أو غاز المصباح أو حاجته من الورق ، فاضطر أياما أن يقتصر على وجبة واحدة . وطحنه الجوع طحنا ، واشتد هزاله ، وشحوب وجهه ، حتى خاف على نفسه ، نفسه التى يحبها أكثر من الدنيا جميعا أو التى يحبها وحدها دون الدنيا جميعا ، لبث جائعا وحيدا فى الحجرة التى يحسب بعض صحبه أنها مهد غرام مستعر . لماذا

لا يسأل إخوانه أن يطعموه ؟ لو سأل على طه ما تأخر أو تردد ، ولو سأل مأمون رضوان لنزل له عن طعامه ولو كان كسرة خبز . فما الذى يمنعه ؟ الكرامة ؟ .. الكبرياء ؟!.. تبا له ! ألم يكفر بكل شىء ؟! ألم يستهزىء بالقيم ؟ فما له يأبه للكرامة والكبرياء ؟! تبا له . لا تزال فلسفته كلاما وهراء ، متى يُصير رجلا حقا ؟ متى يفرط فى كرامته وعرضه كأنه ينفض ترابا عن حذائه ؟!

وبلغ الكرب ذروته حين طالبته الكلية باقتناء كتاب فى اللغة اللاتينية ثمنه خمسة وعشرون قرشا ، فأسقط فى يده ، ولم يجد من ثمنه مليما واحدا . وقد بات الامتحان قريبا ! ماذا يصنع ؟ أما اللجوء إلى أحد من أصحابه فحلّ بغيض مقيت ، خصوصا وهو يعلم أنه لن يقضى دينه إذا استدان ، فماذا يصنع ؟! ومضى يوم ويوم ، واضطربت حياته أيما اضطراب ، وأوشك أن يدركه القنوط لولا أن ذكر قريب والدته الكبير أحمد بك حمديس !.. أيجوز أن يقنط وله مثل هذا القريب الكبير ؟!. أجل إن والده يجد عليه وجدا عظيما ، ويقول إنه رجل جحود ، نسى أهله ، وتنكر لهم . هذا هو الواقع حقا ، ولكن والده مخطىء فى غضبه وليس البك مخطئا فى سلوكه . إذا كان قريبه يتكبر فجميع أمثاله يتكبرون ، ومن حقهم التكبر ولولا آداب الريف الحمقاء لما غضب والده . بيد أن تكبر البك لن يمنعه من أن ينظر إلى مسألته بعين العطف ، ويمد له يد المعونة ، فليقصد إليه آمنا ، وسوف يكفيه شر اللجوء إلى البغضاء !

ـ ١٣

وغادر حجرته وقد صدقت نيته على زيارة قريبه وتجربة حظه ، ولم يقتصد فى تهيئة نفسه ، فكوى طربوشه ، ولمع حذاءه بقرش كامل أو بثمن وجبة كاملة ، ولكنه بدا رغم ذلك كالعليل شحوب وجه وهزال جسم ، وبحث فى دفتر التليفون عن عنوان قريبه : شارع الفسطاط بالزمالك ، وحث إليه الخطى ..

وحلّق به الخيال ــ فى مسيره ــ فى عالم الذكريات المنطوية ، فأضاءت فترة بعيدة من الزمن إذ هو فى الثامنة ، وإذ قريبه لا يزال أحمد أفندى حمديس المهندس بالقناطر ، وكانت أسرة المهندس مكونة من زوجه الحسناء وتحية ابنتهما ــ فى الرابعة ــ وطفل فى الثانية من عمره . كانت أسرة سعيدة تزينها ربة مفرطة فى الحسن . وفى ذلك الوقت لم يكن آل حمديس يترفعون عن مخالطة آل عبد الدائم ، ولم يأل عبد الدائم أفندى جهدا فى إكرام الأسرة العزيزة . ولكم جاب الأسواق يبتاع الدجاج والحمام يهيىء لهم مائدة شهية . ولقد فاز هو بعطف حرم حمديس بك فكانت تثنى على ذكائه وتعجب بشطارته ، وتترك له تحية يلاعبها فى فناء الدار وفى الطريق . ترى كيف صارت تحية الآن ؟.. وهل تذكره ؟. لقد انطوى ذاك العهد منذ خمسة عشر عاما ، فنسى واندثر وانتهى ، وذهب بذكراه الزمن والإهمال . ولو كانوا شيئا ذا بال لرسبت منهم آثار فى باطن الذاكرة ، ولكن آل حمديس كبروا وعظموا ولبثوا هم على ضآلتهم وتفاهتهم ، فامّحت القناطر من سجل الحياة ، وغاصت ذكرياتها فى غياهب الماضى ، ونبذ عبد الدائم أفندى موظفا بالشركة اليونانية . ترى

كيف صارت تحية ؟ .. ألا يمكن أن تتذكره ؟. ذلك الغلام الذى كان يحملها بين يديه ويجرى بها ما بين البيت والمحطة !.. أما حمديس بك فلا يمكن أن ينسى وإن تناسى ، سيذكره بمجرد أن يقع عليه بصره ، ولن يقبض دونه يده .

وبلغ الزمالك ، واهتدى ـــ بعد سؤال ـــ إلى شارع الفسطاط . كان كشارع رشاد باشا ضخامة وسكونا ، وتحتشد على جانبيه الأشجار الباسقة ، وتشتبك أغصانها من الجهتين ، فتجعل فوق أديمه ظلة من الأزهار الحمر . فرمق القصور بنظرة غريبة من عينيه الجاحظتن ، نظرة يقول لسان حالها متسائلا : « هل يمكن أن ينفذ الشقاء من هذه الجدران الغليظة ؟ أحق ما يقول مدعو الحكمة أم أنهم يخدرون القلوب الملتاعة ؟! » واقترب بقدمين ثابتتين من الفيلا رقم ١٤ ، وسأل البواب بلهجة رفيعة ونبرات رزينة عن البك ، وأخبره أنه قريبه وأنه جاء لمقابلته ، فدعاه النوبى إلى السلاملك ، ودخل حجرة كبيرة فاخرة الأثاث ، لم يسبق له أن دخل بيتا كهذا البيت ، أو وُجد فى حجرة كهذه الحجرة ، فألقى على ما حوله نظرة متفحصة مقرونة بالدهشة والإعجاب والحسرة ؟ وتطلع بناظريه من نافذة قريبة فرأى ناحية من حديقة حافلة بآى الجمال المعطر . ترى كيف يكون استقبال البك له ؟ هل تدعوه حرمه لترى كيف صار الغلام شابا يافعا ؟! هل يتذاكرون عهد القناطر ويسألون بشوق عن عبد الدائم أفندى الصديق القديم ؟ .. هل يتأثرون لمرضه ويدركون الباعث الذى حمله على طرق بابهم فيمدون له يد المعونة عن طيب خاطر ؟.. يا لها من حجرة نفيسة !.. ألا يمكن أن يملك يوما قصرا كهذا يقصد إليه ذوو الحاجات ؟..

وسمع وقع أقدام ، فاتجه بصره نحو الباب ثم رأى البك ـــ وقد عرفه من النظرة الأولى على تغير صورته وتقدم عمره ، قادما ، فنهض قائما وتقدم

منه فى أدب مادا يده ، فتصافحا والبك يمعن فيه النظر ، ثم قال مبتسما :

ــ هو أنت إذا !.. بدا الاسم غريبا بادىء الأمر ثم أسعفتنى الذاكرة ، الآن صرت رجلا ، كيف حال والديك ؟.

بدا الاسم غريبا بادىء الأمر !.. هو أنت إذا !.. وتناسى محجوب ذلك كله وقال بإجلال :

ــ والدتى بخير ، ولكن والدى مريض ، بل فى حالة خطرة !

وعند ذلك جلسا ، وكان البك يرتدى معطفه يدل مظهره على أنه متأهب لمغادرة البيت ، وقال الرجل وهو يسند ظهره إلى مقعده :

ــ لا بأس عليه ، ماذا به ؟

فقال محجوب بعناية وبصوت واضح :

ــ أصيب والدى بشلل ألزمه الفراش ، فانقطع عن عمله ، وساءت الحال .

وناط أمله بالعبارة الأخيرة « ساءت الحال » فاسترق إلى البك النظر على أثر النطق بها ، ولكنه لم يجد لها أثرا يذكر ، وقال البك دون أن تتغير ملامح وجهه الباردة :

ــ أمر محزن ، أرجو أن تبلغه تحياتى ، وأنت يا محجوب هل انتهيت من الدراسة ؟

وأحنقه تغير مجرى الحديث ، وأثاره برود محدثه ، ولكنه لم يجد بدا من أن يجيبه قائلا :

ــ امتحان الليسانس فى مايو القادم .

ــ عظيم .. مبارك مقدما ..

ثم نهض وهو يقول :

ــ آسف جدا أن أتركك الآن لأنى على موعد هام .

فنهض الشاب قانطا حانقا يلعن فى سره المقابلة التى لم تستغرق

دقيقتين بعد فراق خمسة عشر عاما ! ألم يدرك الباعث الذى رمى به إلى بيته ؟ ألم تدله « ساءت الحال » على ما جاء من أجله ؟! وتبعه إلى الخارج فى حيرة شديدة ، هل يمسك بذراعه ويهتف به : « إنى فقير معدم وفى شدة الحاجة إلى معونتك فمد إلىّ يدك ! » وتوثب للعمل مجازفا بكل شيء ، ولكنه رأى على بعد قريب فتاة شابة وفتى يافعا يرقيان السلم فى هدوء ، فانهار توثبه وجمد بصره على القادمين . عرف تحية من النظرة الأولى على رغم التفاوت الكبير بين الصورة الماثلة للحسن والصورة الثاوية فى الذاكرة ، وعرف من أوجه الشبه بينها وبين الفتى أنه شقيقها . نسى عزمته ، وانقلب إلى حالة من الجمود .. والكبرياء . ونظر البك إلى ابنيه مبتسما ، ثم أومأ إلى محجوب قائلا :

ــ الأستاذ محجوب قريبى .. تحية ابنتى وشقيقها فاضل .

وتصافحوا . وقال محجوب مبتسما :

ــ إنى أذكرهما جيدا .

فقال البك وهو يتحرك نحو السيارة التى تنتظره :

ــ إذًا امكث معهما بعض الوقت .

هل يمكث معهما ؟. وتبادلوا النظرات فى تطلع وابتسام .. أما فاضل فشاب جميل نبيل المنظر فكرهه من النظرة الأولى لأناقته وجماله ونبله ، وأما تحية ففتاة حسناء فائقة الحسن ، ربما كانت إحسان شحاتة أفتن منها حسنا ، ولكن تحية مثال كامل للتعبير عن الأناقة والكبرياء ، وأنموذج حى للأرستقراطية ، فسرعان ما بهرت حواسه ، وسرعان ما وجد فيها الرمز الحى للحياة العالية التى يتآكل قلبه حسرة عليها ، وقد سعرت عواطفه وهيجت طموحه ، بيد أنها لم تثر شهوته كما فعلت إحسان ، ولا أيقظت بنفسه عاطفة سامية فلا عهد له بالعواطف السامية ، ولكن حركت به إعجابا مقرونا بالحنق ، ورغبة ممتزجة بالتحدى ، فشعر فى أعماقه بنزوع إلى

السيطرة عليها والبطش بها ! وقر عزمه فى الحال على أن يمكث معهما .!
وجلس ثلاثتهم فى الثوى الفخم ، وأيقن أنه لن تخفى عليهما رثاثة هيئته ،
ولكنه تلقى هذه الحقيقة بالاستهانة ، والواقع أنه كان يتمتع بقدرة عجيبة
على قهر الحياء والارتباك . وعلى الادّراع باستهانة لا تعرف الحدود !.
وقال فاضل مبتسما :

ــ هل تذكرنا حقا يا أستاذ ؟

فقال محجوب بهدوء :

ــ عشنا معا فى بلدة واحدة منذ خمسة عشر عاما ، كان البك مهندسا بالقناطر وكنا نلعب معا فى « حديقة » بيتنا .

فقال له الشاب بدهشة :

ــ لا أذكر شيئا عن هذا العهد .

وقالت تحية بصوت مهذب كمنظرها سواء :

ــ ولا أنا تقريبا ..

فآلمه ذلك ، وقال مداريا عواطفه بالابتسام :

ــ كنتما صغيرين ، أما أنا فكنت فى الثامنة ..

فهز فاضل رأسه مبتسما وسأله :

ــ وهل انتهيت من الدراسة ؟

ترى هذا السؤال من تقاليد الأسر الأرستقراطية ؟! وأجاب :

ــ سأنتهى فى مايو .

ــ أية كلية ؟

ــ الآداب ..

فقال فاضل بلهجته الرفيعة :

ــ نحن سعداء إذ وجدنا قريبا مثلك .

فقال على الفور :

ـــ وأنا أسعد لأنى وجدت قريبين .

وكانت تحية تتفحصه بعينين أنثويين ، فقالت لمجرد الرغبة فى الحديث كما يقضى الأدب :

ـــ لم نزر القناطر منذ تركناها .

وارتبك محجوب على غير عادته ، هل يدعوهما لزيارة القناطر ومشاهدة البيت ذى « الحديقة » التى كانوا يلعبون فيها ؟! بيد أن فاضل أنقذه من ورطته بأن قال موجها خطابه لشقيقته بلهجة ساخرة :

ـــ وهل زرت القاهرة التى تعيشين فيها ؟ أنت لا تعرفين إلا الصالونات والسينما ؟

فابتسمت تحية وقد تورد وجهها وقالت :

ـــ يا لك من مغال ساخر ! ألا تعلم أنى أعرف القاهرة جميعا حتى دار الآثار والأهرام زرتها كالسائحين !..؟!

فخطر لمحجوب خاطر بديع فقال على الفور وقد خلص من ارتباكه :

ـــ دار الآثار والأهرام باتت مناظر مملولة ، هل زرت الحفريات الجديدة ؟!

فتساءلت تحية ملتفتة إلى المتكلم :

ـــ الحفريات الجديدة ؟!

فأشار إلى صدره كأنه هو الذى اكتشفها وقال :

ـــ حفريات الجامعة : بعد سير دقائق من الهرم الأكبر ، دنيا غريبة محاطة بالأسلاك الشائكة ، وجميع مفتشيها من أصدقائى وزملائى فمتى نذهب معا لمشاهدتها ؟

فقالت بسرور :

ـــ لا أدرى ، ولكننى سأذهب يوما ما .. أليس كذلك يا فاضل ؟

فقال فاضل بلا وعى منه وقد أخذ يعتوره الفتور :

ـــ طبعا .. طبعا ..

وشعر محجوب عبد الدائم وهو يعبر حديقة الفيلا بعد انتهاء الزيارة أنه من الممكن أن ينشأ بينه وبينهما نو ع مما يسميه الناس بالصداقة . وتفكر فيما يمكن أن يفيده من هذه الصداقة إذا حدثت ، أم يخرج منها كما خرج من زيارة البك صفر اليدين ..

ـ ١٤ ـ

ووجد نفسه فى شار ع الفسطاط مرة أخرى ولفحته ريح باردة عاتية لم يدر متى هبت ، تهز الأغصان فيضج الطريق بحفيفها ، وتصفر بين الجدران فيصم الآذان زفيفها . فسرت إلى جسمه المتعب رعدة تمشت فى مفاصله ، فأمشير أقسى من أن يحتمله ضعيف جائع . بيد أن أفكاره شغلته عما حوله فاقتحم طريقه نصف شاعر بقساوة الجو . ذكر فاضل ، وقارن بينه وبين نفسه ، هنالك الصحة والجمال والغنى وهنا المرض والدمامة والفقر ، ومع ذلك فهما قريبان ! أما تحية ففتاة أرستقراطية ، صورة حية للدنيا التى يطمح إليها . ترى هل يذهب بها يوما إلى الأهرام ؟! إن فتاة مثلها لحقيقة بأن تكون مفتاحا سحريا يفتح الأبواب المغلقة ويصنع المعجزات . تفكر فى ذلك طويلا ، ولكن يا أسفا . أيجوز أن يغرق فى تلك الأحلام وينسى همومه الراهنة ؟ من أين له النقود ليبتاع كتاب اللاتينى ؟. وكيف له بمقاومة الجو ع الذى بات يهدد جسده وعقله !.. يا عجبا !.. هل من دليل على حقارة الإنسان أكبر من ضرورة الطعام لحياته ؟! أيكون هذا الطعام الذى يقتلع من الطين ويسمد بالقاذورات زبدة الحياة وقوامها ؟ وعماد التفكير ؟ والمبدع الحق للمثل العليا ؟ أليس هذا دليلا على أن جوهر الإنسان قذارة وحقارة ؟!. وحث خطاه . وكانت الرياح

لا تزال تزمجر كاسرة . والسماء تتلبد بالسحاب المظلم ، ومياه النيل الزمردية تصطخب وتعربد ، فألقى على ما حوله نظرة غاضبة ، وبصق على الأرض باحتقار كأنما يناصب الدنيا العداء ؟.. ألا يحسن به أن يقترض ؟.. ممن ؟.. وكيف يقضى دينه ؟ لن يكون الشهر القادم بخير من سابقه ، بل لعله أسوأ ، فما العمل ؟ لو كان يعرف فن النشل ؟.. النشل فن سحرى ، والنشال يملك ما فى جيوب الناس جميعا ، وقد عرف سادة هذا البلد مغزى هذه الحكمة . ولكن ما العمل ؟ هل يعيد على حمديس بك الكرة ؟ أيقابله فى الوزارة ويسأله صراحة المعونة ؟ واعترضت سبيل أفكاره صورة تحية . تحية بنبلها وأرستقراطيتها . أيرضى أن تعلم أنه بائس شحاذ !.. هذه الفتاة تحرك مشاعره . ليس مجنونا فيهذى كماهذى على طه ، فهى شهوة جديدة كتلك التى علقت إحسان لا أفلاطون ولا هيام ، ومن عجب أنه كان عظيم الثقة بنفسه لحد غير معقول ، ربما كان مبعث هذا ما طبع عليه من جسارة وجراءة ، وفضلا عن ذلك كان يشارك العامة اعتقادهم فى التفوق الجنسى على الأغنياء ، فاعتقد صادقا أن تحية ليست بمنأى عن طموحه . كانت أحلامه لا توقفها السماوات ، وزادها الجوع جنونا ، ذلك الجوع الذى جعل من دراسته كفاحا مريرا ومن لياليه عذابا أليما . وكتاب اللاتينى ؟ تبا له . كيف يحصل على النقود ؟!

ـ ١٥ ـ

واستيقظ فى صباح اليوم التالى أهدأ نفسا ، فهمدت الأخيلة التى بعثتها فى عقله زيارة آل حمديس . ولذلك أمكنه أن يثوب إلى رأى ، وأن يقرر أن يقصد إلى حمديس بك فى الوزارة مادا يده بالسؤال . مضحيا بصداقة تحية وفاضل . ولم ير بدآ من العدول عن الذهاب إلى الكلية ، وامتنع عن تناول الإفطار ليوفر ما يركب به الترام فى الذهاب والإياب ، ومضى إلى حال سبيله فبلغ وزارة الأشغال فى تمام العاشرة وعرف السبيل إلى سكرتير قريبه ، فوجده رجلا فى الأربعين ، فحياه بأدب وقال له :

ـ أريد مقابلة سعادة البك .

ـ من حضرتك ؟

ـ قريب البك .. محجوب عبد الدائم .

فاستنظره الرجل لحظة وغاب عن عينيه ، ولبث محجوب يفكر فيما عسى أن يقوله البك ، ويرتب الكلام ترتيبا مؤثرا . وعاد الرجل بعد قليل ، وجلس إلى مكتبه وهو يقول .

ـ البك يرأس المجلس الاستشارى فيحسن أن تعود يوما آخر .

وبغته ذاك الجواب ، وكبر عليه ، فشعر بضربة تهوى على أم رأسه ، وقال برجاء :

ـ ولكنى أريده لأمر هام جدا .

ـ لا شك فى هذا ، إن شاء الله ، ولكن يوما آخر .

ـ أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين .

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شىء آخر :

ــ تعال مساء إذا شئت .

وغادر المكان مغيظا محنقا ، هل يبتلع الترام ما تبقى من نقوده ؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشارى إلى الجحيم . وأدرك أول وهلة أنه ينبغى أن ينتظر فى المدينة حتى العصر ــ إذا أراد أن يقابل البك ــ توفيرا لنفقات الانتقال ، ثم لم يعد يقاوم الجوع الذى ينهش معدته ، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثا عن دكان فول ! وتناول الطعام الذى داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق فى طريق قصر النيل : ليقضى وقت انتظاره الطويل فى حدائقه . وكان الجو باردا ، والسماء ملبدة بالغيوم !. وكان يسير مطرقا مرددا بحقد وغضب : « أهاننى الرجل المجرم . أهاننى المجرم ! » ومع ذلك فهو مرغم على الجرى وراءه مرة أخرى !.. هو عدو ما من صداقته بد ، وهو بعض الألم الذى تمتحنه به الدنيا . وأمر أصابعه على جبينه المحترق وقال : « لن أبكى .. سأحافظ على جبروتى ، ومهما بلغ منى الجوع فلن أصرخ مع الجبناء هاتفا يارب ! » وانتهت به قدماه إلى الحديقة . وراح يمضى الوقت ما بين الجلوس والمشى ضجرا مملولا . وبردت أطرافه ، وأحس تعبا فى معدته ، وتساءل خوفا وفزعا : « ألا يمكن أن تترك هذه الأيام السود آثارا لا تزول أبد العمر ؟! » وتجهم وجهه الشاحب ، ولاحت فى عينيه نظرة قلق محزنة . ومر على انتظاره نصف ساعة ، وكان يتمشى فى الطريق المحاذى للنيل ، لا يدرى كيف يؤاتيه الصبر حتى يأزف الموعد ، وعلى مقربة من باب الحديقة الأندلسية الخلفى رأى فتاتين تدنوان منهمكتين فى الحديث والابتسام ، فألقى عليهما نظرة عابرة ، فعرف إحداهما كانت تحية حمديس دون سواها ! كانت فى شغل عنه بصاحبتها ! أما هو فقد أحدث ظهورها المفاجىء فى نفسه أثرا أى أثر ، انقطع حبل أفكاره : نسى أباها ومجلسه

الاستشارى ، تناسى آلامه وجوعه : وتركز همه فى شىء واحد أن يلقاها ، ولم يحفل بمظهره ، ولا بوجود الفتاة الغربية : ولم تتحول عيناه عنها فى معطفها السنجابى الملتف حولها فى أناقة أرستقراطية : ولعلها شعرت بعينيه فنظرت نحوه ، وكانت أصبحت على بعد أذرع منه ، فاعترض سبيلها ــ وحنى رأسه تحية . ولاحت الدهشة فى وجهها : ثم تورد ، وألقت عليه نظرة سريعة ، ثم مدت إليه يدها ، وقدمت إليه صديقتها : وقدمته إليها : ثم وقفوا ثلاثتهم فى شبه ارتباك ، لقد اندفع إلى تنفيذ غرضه : ثم لم يجد ما يقوله ، ثم عمد إلى الأحاديث التقليدية فسألها :

ــ كيف حال الأسرة الكريمة ؟

فقالت برقتها الطبيعية :

ــ بخير شكرا لك .

وأنقذه عقله من ارتباكه فذكره بحفريات الجامعة ، فسر لعثوره على موضوع للحديث وقال :

ــ هذه فرصة سعيدة تهيأت لى لأذكرك .. أنجز حر ما وعد ؟

فقالت مقطبة دهشة :

ــ لا أفهم شيئا .

فقال بلهجة تنم عن العتاب :

ــ الحفريات .. حفريات الجامعة .

ــ آه .. كلا لم أنس .

ــ متى ؟

ــ متى !

ــ نعم . لنكن عمليين : ما رأيك فى عصر الجمعة القادم ؟

فترددت قليلا ثم قالت وقد راق لها الاقتراح :

ـــ حسن .
ـــ وفاضل بك ؟
ـــ سأخبره ...
ـــ لنتفق على موعد .
ـــ لا نريد أن نتعبك ، فسم موعدك .
ـــ الساعة الرابعة مساء ، أمام محطة الأتوبيس بميدان الجيزة .

وسلموا وافترقوا . واستأنف مسيره . نجاح باهر فاق كل ما تمنى ، فصار الحلم موعدا . أجل لاحظ أن صاحبتها تفحصت منظره بدقة ، ولكن ماذا يهم المنظر ، أليس أحقر رجل بامرأتين ؟ فما بالك إذا كان الرجل محجوب عبد الدائم ! إذا محتمل جدا أن تمسى العلاقات وثيقة ، وليس هذا بالأمر الهين ، فتحية من ذرائع الحظ التي يرفع بها المجدودين ، وهى بعد شيء نفيس أنيق ، ومن يعلم ..؟! بيد أنه أدرك أنه لم يعد من الممكن استجداء حمديس بك ، إذ ليس من المنطق فى شيء أن يمد يده اليوم إلى الأب سائلا . وأن يلقى كريمته غدا لقاء المودة والاحترام . ولو فعل لأبى الرجل على كريمته أن تذهب إلى موعد فتى بائس مثله ، ولأبت ذلك عليها نفسها الغالية ، فإما الاستجداء وإما اللقاء : ولكن لم يعد هناك اختيار ، أو أنه اندفع إلى الاختيار وهو لا يدرى ، لقد سد هذا الباب فى وجهه ..! ووجد نفسه بعد كل ما بذل من جهد يتساءل متحيرا : ما العمل ؟.. كيف أحصل على النقود ؟. وكان يحث الخطى مرتبكا مهموما ، ويعمل فكره دون توقف ، فذكر الأستاذ سالم الإخشيدى ، ولمعت عيناه الجاحظتان فجأة !.. أجل ، هذا جار قديم ، وهو غير مأمون رضوان أو على طه ، ولن يجد غضاضة فى أن يمد له يده ، فلماذا لا يقصد إليه ؟!.. يا لها من فكرة ، واليوم لم يكد ينتصف بعد ، وبينه وبين الوزارة مسير نصف ساعة على الأكثر ، فليذهب بغير تردد . وقد ذهب .

— ١٦ —

وسأل عن مكتب الأستاذ سالم الإخشيدى سكرتير قاسم بك فهمى ، فقيل له بل مدير مكتبه ، ودلوه عليه ووقف على الباب ساع طويل القامة عريض المنكبين ، غزير الشارب ، فطلب أن يؤذن له عليه ، فغاب الرجل لحظة وعاد يقول بصوت غليظ « تفضل » . ووجد الحجرة مكتظة بالجالسين نساء ورجالا ، وغاب الإخشيدى ومكتبه وراء نصف دائرة من الموظفين يعرضون أوراقهم . ونظر الشاب فيما حوله وتساءل : متى ينفض هذا الحشد من الخلق ؟.. متى تتهيأ له فرصة للكلام ؟ وعلا صوت الإخشيدى فى الحجرة ، ورنت نبراته الدالة على الأمر والسلطان ، تلاحظ وتنتقد وتعنف ، وأصوات الموظفين تئن بالشرح والتفسير والاعذار ، وجعل الموظفون يحملون أوراقهم ويغادرون المكان واحدا أثر واحد حتى فرغ المدير منهم فانتبه إلى وجود الشاب ، ومد يده ودعاه إلى الجلوس ثم التفت إلى الزوار ، وأشعل سيجارة وأخذ نفسا عميقا ونفخ الدخان فى لذة وارتياح ، وقد لاح فى وجهه السرور والخيلاء ، واختلس محجوب إليه نظرات خاطفة : إنه شبعان وسعيد . ولا شك أنه أفطر زبدة وقشدة وعسلا ، تبدو عليه آى الصحة ، والاطمئنان إلى كرسيه الكبير . وأحس نحوه مقتا وتساءل فى سره ساخرا . لماذا لا يعلق فى حجرته الكبيرة صورة صاحبة العصمة ست أم سالم بجلبابها الأسود الملوث بالتبن ؟!. وكان الزوار أصحاب حاجات كالعادة ، فقدم بعضهم طلبات إعفاء من المصروفات المدرسية ، واستشفعته سيدة فى ترقية ابنتها إلى الدرجة الخامسة ، ورجاه آخر أن ينقل له قريبه إلى القاهرة وقد قضى فى الأرياف عشرين عاما من سنى خدمته ، وسأل شاب أن يؤذن له فى مقابلة البك

ليهدى إليه مؤلفه عن حياة الطفل حتى الخامسة ، وسمع الجميع يدعونه بإجلال واحترام : « سعادة البك » وهو يجيبهم بتؤدة وكبرياء وغطرسة . وتصبر محجوب فى قلق وعذاب حتى يفرغ البك المدير له . وحدثت المعجزة فخلت الحجرة . وتحول الإخشيدى إليه وقال :

ــ هكذا أقضى نهارى ، ثم أستأنف ليلا فى قصر البك !

وتساءل محجوب فى سره حانقا : هل تريدنى أن أدعو الله أن يريحك من عملك ؟ ثم قال بملق مبتسما :

ــ على قدر أهل العزم تأتى العزائم !

فهز الإخشيدى رأسه الكبير ، وكان لا ينى عن الاشادة بعظمته ، والهزء بفضل الغير . وقد عرف بحدة اللسان ومهاجمة أعدائه وأصدقائه على السواء . وقد قيل عنه بحق أنه شيد حياته على العمل المتواصل ، والدعاية لنفسه ، والتشهير بمنافسيه . على أن أنانيته كانت تصور له أكثرية المتصلين به كمنافسين ، ولذلك قل من نجا من شره . ولم يكن يأبه رأى الناس فيه ، وكأنه يؤثر فى باطنه أن يقال عنه ما أفظعه عن أن يقال ما أطيبه . وكان إذا بلغه قول سوء عنه يقول باحتقار « كل عاشق حق مكروه » . هز رأسه الكبير وقال للشاب :

ــ عمل متصل . لكن هل كفانى شر الألسنة ؟.. هيهات .. ولن يفتأ قوم قائلين رقى الإخشيدى إلى الخامسة وما مضى فى السادسة عامين !

فتظاهر محجوب بالانكار وقال :

ــ وهل وضع نظام الأقدمية لقتل الكفاءات ؟!

ــ الظاهر أنى فى وزارة ، والحقيقة أنى فى مزبلة ..والآن يا عزيزى ما حاجتك ؟

فازدرد محجوب ريقه ، واعتدل فى جلسته ، ثم قال بلهجة تنم عن

الرجاء :

ـــ سالم بك ، إنك جار قديم وزميل قديم ، وملاذنا وقت الشدة. يا سعادة البك والدى طريح الفراش ، ونحن فى بأساء ، وأنا فى أزمة مؤيسة ، وقد نفدت نقودى : فدعنى أسألك بعض المعونة ..

وتفحصه الإخشيدى بعينيه المستديرتين ، فأدرك أنه جائع ! ولكنه لم يتعود على أن يعطى أبدا ، ولا عهد له بفن الإحسان ، ولا كان من « الضعفاء » الذين تلين مظاهر البؤس من قلوبهم : فاعتبر الشاب وحاجته عائقا سخيفا اعتاق تيار أفكاره ، فتوثب لمحوه ، ولكن ماذا يجمل به أن يفعل ؟ يعتذر له ؟ ولكنه يكره الاعتذار خاصة لمن لا حول له . ثم تذكر أمرا فسأل الشاب :

ـــ هل تجيد الفرنسية والانجليزية ؟

وشعر محجوب بخيبة رجاء ، لأنه كان يتوقع شيئا آخر غير هذا السؤال ؟ ولم يدر ما حكمة توجيهه إليه ! ولكنه أجاب قائلا :

ـــ نعم أجيدهما ..

ـــ حسنا ... أتعرف مجلة النجمة ؟.. صاحبها صديقى وزميلى وربما رحب بك إكراما لى ..

ـــ هل أكلف بترجمة بعض الموضوعات ؟

ـــ نعم .. مقالات .. فكاهات . خذ بطاقتى هذه واذهب إليه ! وسأحدثه عنك بالتليفون . ولا تؤاخذنى فأنا ذاهب لمقابلة البك وعرض أوراقى عليه .. أليس هذا أكرم بك وأنفع !

ونهض الإخشيدى قائما ، وأخذ ملفا فى يسراه ، ومد يده للشاب : فمد له الشاب البائس يده وهو يسأله :

ـــ أيدر هذا العمل ربحا معقولا ؟

فضحك الإخشيدى ـــ ولشد ما بدا لعينيه بغيضا ـــ وقال :

ــ لعلك سمعت عن ثراء الصحفيين ! على أنك ستجد ما أنت فى مسيس الحاجة إليه .. وتقدمه الإخشيدى نحو الباب ، فجزع جزعا شديدا وأوشك أن يهتف به سائلا بضعة قروش ، ولكن الباب فتح قبل ذلك ، وبدا الساعى بجسمه الضخم الطويل ، فغادر الحجرة حاملا البطاقة . وغادر الوزارة واجما متحيرا ما زالت أزمته قائمة . ومجلة النجمة على فرض نجاح مسعاه إليها علاج آجل فما العمل ؟.. وكيف يحصل على النقود ؟.. وكانت الساعة تدور فى الثالثة . والجو بارد كما كان فى الصباح فخبط فى الطريق على غير هدى . مثقل الرأس قانطا ، وضاقت الدنيا فى وجهه ، حتى كور قبضته مهددا ، وقال حانقا غاضبا بصوت أشبه بالنحيب : « سيدفع العالم ثمن هذه الآلام ؟! » . وقد أدرك أنه لم يبق إلا على طه أو مأمون رضوان !.. لكم كره أن يمد لهما يدا ، ولكنه لم يعد يملك حيلة ، ولابد مما ليس منه بد . ومضى إلى الترام متسائلا : أيهما يفضل ؟! كلاهما شاب نبيل ، ولكنه لا يحب على ، بينما لا يكره مأمون ، وفضلا عن ذلك فمأمون رجل دين وورع ، فهو حقيق بأن يصون سره ، ويحفظه بالغيب ، جدير بأن يغضى عنه إذا تأخر عن قضاء دينه .

ومضى إلى دار الطلبة ، وقصد إلى حجرة مأمون رضوان ، واستقبله الشاب بسرور وسأله :

ــ لماذا تغيبت اليوم عن الكلية ؟

فقال محجوب :

ــ مكره أخاك ، لشد ما أعانى من الاضطراب ؟

وتفرس مأمون فى وجهه بعينيه النجلاوين السوداوين فهاله ما يرى من الهزال والقنوط ، وسأله باهتمام واشفاق :

ــ ما بك ياأستاذ محجوب !.

فقال دون تردد :

ــ ظروف قاسية ، فقدت آخر مليم من نقودى ، لا أملك من ثمن كتاب اللاتينى مليما واحدا ..

ونهض مأمون قائما دون كلمة ، واقترب من المشجب ، ودس يده فى جيب جاكتته ، وأخرج ثلاث ورقات من ذات العشرة ، وأتى بها إلى الشاب ، فأخذها محجوب وهو لا يصدق ، وفتح فمه ليشكر صاحبه ، ولكن صاحبه سارع بوضع أصبعه على شفتيه متمتما « هس » .

وغادر دار الطلبة لا يلوى على شيء . حتى دار إحسان لم يلق عليها نظرة عابرة . وكان راضيا وساخطا معا ، راضيا لحصوله على النقود ، ساخطا لأنه بات مدينا لمأمون رضوان .

ـ ١٧ ـ

وجاء يوم الجمعة الموعود ، فذهب إلى محطة الأتوبيس قبيل الميعاد بزمن يسير ومضى يسأل نفسه : ترى هل يفيان بوعدهما ؟.. وفى الموعد المضروب جاءت سيارة فخمة وقفت أمام المحطة ، وأطل من نافذتها الوجه الجميل . فخفق فؤاده وهرع نحوها ، وفتح له الباب واتخذ مكانه ، ثم أدرك وقتئذ فقط أن تحية جاءت بمفردها . وعجب لذلك ، ولكن لم يطل عجبه ، وغمره سرور شامل ، وإن سأل بانكار متكلف :

ــ أين فاضل بك ؟

فأمرت الفتاة السائق بالمسير ، ثم التفتت إلى محجوب وقالت بلهجة انتقادية :

ــ ركبنا معا ، ثم رأى فى الطريق « بعض الناس » فتخلف عن الرحلة وحملنى اعتذاره إليك .

فأطرق محجوب ليخفى سروره ، وسألها بأدب :

ـــ وكيف الوالدان الكريمان ؟

ـــ الحمد لله .. وهما يشكران لك هذه الرحلة الجميلة .

ـــ عفوا .. عفوا ..

فقالت بصوت ينم عن الرجاء :

ـــ سنرى أشياء لذيذة .. أليس كذلك !

فقال بيقين وإن كان فى الحقيقة يذهب إلى هنالك أول مرة :

ـــ بكل تأكيد ..

وساد الصمت . وراحت الفتاة ترسل ببصرها من النافذة ، وراح هو يسترق إليها النظر . هذه أول مرة يخلو فيها إلى أنثى تستحق أن توصف بالأنوثة حقا . وأين ؟.. فى سيارة فخمة تحزن الحاسدين ـــ فضل هذا التعبير عن تسر الناظرين ـــ فأسكرت أنفه رائحة ذكية ، لا رائحة العرق الملبد بالتراب ، فدخله شعور المختنق إذا حمل إلى حجرة مليئة بالأكسجين ، ولم تكن به ذرة استعداد لخلق الصور السامية الطاهرة . فتركزت رغبته فى تخيل صورة واحدة : أن يلقى بنفسه عليها !.. وشعر بدبيب الرغبة يسرى فى دمه . فألقى ببصره إلى الخارج . وتساءل لماذا تخلف فاضل ؟.. هل رأى فتاة حسناء فجرى وراءها ؟. أم أن تحية نفسها عملت على التخلص منه ؟ وداعبه غروره الجنسى فقال :إنهما (هو وهى) من دم واحد ، وكما يقولون « فالدم يحن » ، ليس شىء بمستحيل . أما لو صدق حدسه فسترى أشياء لذيذة كما تحب !.. والسائق ؟!.. لا يهم ..فهو لا يستطيع أن يتصور الثراء والعفاف فى كائن بشرى معا ، ولا شك أن هؤلاء السائقين مدربون على التغاضى ..! أجل .. أجل .. أو فما الداعى إذا لمجيئها منفردة ؟! ، إن أجمل حكمة هى التى تقول : « إذا خلا رجل بامرأة كان الشيطان ثالثهما » فأين هذا الشيطان ليجثو بين يديه ، ويلثم قدميه ؟ طالما كان للشيطان تابعا ومريدا أفلا يجزيه الشيطان

عطفا بإخلاص ؟!.   واسترد بصره من الخارج ، وشعر برغبة إلى جرها إلى الحديث ، فسألها :

ــ والآنسة فى الجامعة ؟

فهزت رأسها نفيا وقالت مبتسمة :

ــ كلية بنات الأشراف .

فقال بسرور :

ــ جميل .. جميل جدا ..

وسألته تحية :

ــ ماذا تنوى أن تعمل بعد الليسانس ؟

وبغته السؤال . إن أقرانه يتحدثون عن المستقبل بحزن ويأس والسابقون منهم يقبعون وراء المكاتب فى الوزارات يروحون بالشهادة على وجوه أحرقتها حرارة الدرجة الثامنة .. ولكنه بجسارته المعهودة تخلص من ارتباكه . وقال بثقة ويقين معا ، وإن كان يعلم أنه من الكاذبين :

ــ على أن أختار بين طريقين ، فإما الانخراط فى السلك السياسى ، وإما التحضير للدكتوراه فالتدريس فى الجامعة ..

فقالت مبتسمة :

ــ جميل ..

لماذا استعملت تعبيره الخاص ؟.. أتسخر منه الشيطانة أم تجهل هذه الأمور ؟.. وأراد أن يسبرها فسألها :

ــ أيهما تفضلين !

ــ أنا ؟.. هذا شأن يعنيك ..

فقال بمكر ودهاء :

ــ ويعنيك أيضا ما دام يعنى قريبك .

فتورد وجهها وقالت :

ـــ السلك السياسى أجمل ..

وتمثل له حمديس بك ذاهبا إلى الخارجية للتوسط فى تعيينه ثم قال :

ـــ هذا رأيى .. ماأجمل أن تمضى الحياة كلها مابين بروكسل وباريس وفيينا .

فاستضحكت قائلة :

ـــ أو ما بين دمشق وأنقرة وأديس أبابا ؟

فجاراها فى ضحكها ، ولكنه قال بدهاء :

ـــ هذه عواصم لا يذهب إليها من كان حمديس بك قريبه !

وابتسما معا . وقال لنفسه راضيا أن اللبيب بالإشارة يفهم ، وحسبه ذلك الآن . أما عن المستقبل فقلبه يحدثه بأن هذه الفتاة لن تذهب من حياته كأنها شيء لم يكن . ومن يعلم ؟ إن الجسارة لا تنقصه ، بل لعل عيبه أنه جسور أكثر مما ينبغى . واستسلم لتيار أفكاره ، حتى انتبه، إلى السيارة وهى ترقى الطريق الملتوى الصاعد إلى هضبة الأهرام . ونزلا عند سفح الهرم الأكبر وهو يقول :

ـــ الحفائر وراء أبو الهول بفراسخ معدودات .

وسارا سيرا غير يسير ، وجعلت أقدامهما تنغرس فى الرمال وتقلع بقوة . وكان الوقت أصيلا ، والجو باردا ، ولكن السماء صفت ، وأشرقت الشمس دون حجاب . بدت ملابسه فى وضح النهار غير ذات أناقة أو جمال ، فقلق ، وقال لنفسه ساخرا : « لعلها تسأل نفسها لماذا لا يرتدى حضرة السفير معطفا ؟ » . وبعد مسير ثلث ساعة لاحت منطقة الحفائر تحيط بها الأسلاك الشائكة ، فتمتم محجوب :

ـــ وصلنا .

واقترب الشاب من الخفير وأرسله بورقة إلى مفتش المنطقة ، وعاد الرجل وأذن لهما بالدخول ، فدخلا ، ثم قابلهما المفتش وهو شاب دون

الثلاثين ، وكان من أصحاب محجوب ، فرحب بهما وقال لهما معتذرا :
ـــ ستريان الأماكن المسموح بزيارتها ، وهى التى تم الكشف عنها ، ولكنى لن أرافقكما إليها لأنى مشغول جدا ، ولا أظنكما فى حاجة إلى دليل (وهنا هز محجوب رأسه موافقا) حسنا . هاكما معبد الشمس وهو تابع للمعبد القديم المعروف بمعبد أبى الهول ، وإلى جانبه الجزء الخلفى لمقبرة الأمير سنفر ...

وقال محجوب لنفسه : « قضى الله لحكمة يعلمها أن نظل اليوم منفردين . وإذا كانت حكمة الله كلها على هذا المنوال فأنا من المؤمنين ! » ، وأخذ كنزه النفيس إلى معبد الشمس . وهبط أدراجا صنعت حديثا ، فوجدا نفسيهما فى بهو أرضه من الصوان ، وعلى جانبيه صفان من الأعمدة ، ولا سقف له ولم يكن به شىء يروع أو يثير العجب ، فألقت الفتاة على ما حولها نظرة تنطق بعدم الاكتراث ، ولم يكن محجوب أقل خيبة منها ، ولكنه تعمد أن يكبر من شأن رحلته فقال :

ـــ انظرى إلى هذه الأعمدة وكيف قاومت الدهور !

فابتسمت كالهازئة وقالت :

ـــ وماذا كان عليها لو أنها اندثرت ؟

فأشار إلى النقوش على الأعمدة وقال :

ـــ لو كنا نقرأ الهيروغليفية لعرفنا أمورا تستثير الاعجاب والدهشة .

ـــ حقا !

ـــ بكل تأكيد ، ألم تلمى بتاريخ الفراعنة ؟!

فهزت رأسها نفيا . وبذلك انتهت زيارة الأثر الأول . وفيما هما يدنوان من المقبرة وراء المعبد سألته تحية :

ـــ ألاتوجد آثار أخرى غير هذه المقبرة ؟

وأحس ما وراء التساؤل من ملل ، فارتبك وقال :

ـــ توجد آثار كثيرة ولكن لم يصرح بزيارتها ..

وهبطا أدراجا فوجدا نفسيهما فى حجرة صغيرة مستطيلة ، تتحلى جدرانها بالنقوش والصور ، ولا يكاد يعلو سقفها كثيرا على طول الهامة ، وألقيا على المكان نظرة عامة ، ثم تعلق الشاب بالصور ، فقال بصوت خافت :

ـــ فلنشاهد الصور ، انظرى إلى ألوانها الزاهية ..

وبدءا بالحائط القريب من المدخل ، وقد حلى بصور تمثل صاحب المقبرة وعلى يساره زوجه ، بينهما أطفال ، ويحيط بهم جميعا خدم وحشم ، وعلى الحائط الذى يليه شاهدا منظر حقل مترامى الأطراف ، تحرثه محاريث تجرها الثيران . ووقف هنا وهناك فلاحون عرايا . وتحولت تحية من المنظر بلا ريث ، وانتقلت إلى الحائط الثالث . وأدرك محجوب أنها مرت خجلة من صور العرايا ، وتفحص الصور بعينيه الجاحظتين فجرت على شفتيه ابتسامة خبيثة ، واضطرب مجرى دمه ، وقوى شعوره بأنهما منفردان . ولم يتحول عن منظر الحقل ، ولا حول عينيه عن صور العرايا ، حتى ملأت عليه نفسه تلك الحقيقة الرائعة وهى أنهما منفردان أمام العرايا . وخيل إليه من إدمان النظر ، أن الصور تتجسم لعينيه ، وأن الحياة تدب فيها ، والدماء تتدفق فى عروقها ، فتكتسى بشرتها بذاك اللون الخمرى ذى الوهج ، وتلتمع فى محاجرها نظرات خاطفة . ثم تشرئب أعناقها نحو .. الفتاة الهاربة ، موردة الخدين من الخجل . وخفق فؤاده بعنف والتهبت جوارحه من قوة العاطفة ، وعبثا حاول أن يملك زمام نفسه . وذكر مجيئها بمفردها ، وحديثهما فى السيارة ، ورقة حاشيتها ، وانفرادهما معا ، ثم وجودهما فى هذه المقبرة تغشاهما وحشة الأجيال ، فخال الثمرة دانية القطوف ، وعنف هياجه حتى صار وحشا فاقد العقل والارادة . وازدرد ريقه بصوت غريب وعيناه ثابتتان على العرايا وإن باتا

لا يريان شيئا :
ــ هلا نظرت إلى هذا الحقل الحافل ..
فقالت باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل :
ــ ليس به ما يستحق الرؤية ..
فعطف رأسه وقال بصوت كالهمس :
ــ لشد ما أنت ملولة يا آنسة .
ودنا منها خطوة فحاذاها ، وجعل ينظر معها إلى صورة خادم تعجن ، وانحنى قليلا كأنما ليعاين جزءا من الصورة ، فلامس كتفها ويمناها ، ثم اعتدل ونظر فى عينيها وقال بصوت متهدج :
ــ ألم يعجبك شيء ؟
فضحكت ضحكة رقيقة وقالت بصراحة :
ــ الحق أننا لم نجد ما يستحق عناء الرحلة ..
فقال محجوب بصوته المتهدج وعيناه تثقبان عينيها :
ــ ولكن المكان جميل وهادىء ..
وانتبهت إلى تهدج صوته ، وشعرت بحدة نظرته النارية ، فاختلج بصرها ، ونظرت إلى الأرض ، ثم قطبت فى حيرة وقالت :
ــ آن لنا أن نذهب ..
فهز رأسه ، وهم أن يقول شيئا ، ولكن أعياه القول ، فأمسك بيدها ، ولكنها سحبت يدها بسرعة ، وألقت عليه نظرة إنكار ، فلم يبالها ، واسترد يدها بقوة ، وقال وصفحة وجهه تموج بعاصفة : « دعينا نمكث قليلا . » .. وتملكه شيطان الشهوة ، فجذبها نحوه بعنف ، وأحاطها بذراعيه ، وأهوى إليها بفم يحترق إلى التهامها . ولكنها صدته بيمناها ، وباعدت رأسها عنه ، ولاح فى وجهها الجميل الغضب ، وصاحت به صوت رن رنينا مزعجا فى المقبرة الصامتة :

ـــ أجننت !.. دعنى .. اترك يدى ..

فاستصرخها قائلا يكاد يجن من العذاب :

ـــ لا تغضبى ... أرجوك ... تعالى ... تعالى إلى صدرى ..

ولكنها تخلصت من ذراعيه بقوة جنونية لا تدرى كيف اتتها ، وصاحت بعزم وقسوة :

ـــ مكانك .. إياك أن تلمسنى .. إياك أن تعترض سبيلى ..

واتجهت نحو الباب ، فتنحى لها ، وتبعها مطرقا ، صامتا ، مثقلا بشعور الخزى والخجل . وسارا صامتين يقطعان الطريق الذى جاءا منه صديقين سعيدين ، وقد اكتسى وجهها الجميل بلون الغضب القانى ، وارتفع رأسها كبرياء وصلفا ، ولم يدر كيف يصلح من خطئه ، وكلما طال الصمت يئس وغلب على أمره ، حتى تساءل نادما أما كان ينبغى أن يمد حبل الصبر ؟ وقال لنفسه متأسفا : الظاهر أن فتاة مثل تحية لا تؤخذ كما تؤخذ جامعة الأعقاب .. لعله لم يوفها حقها من اللباقة والغزل ، ولو أنه اصطنع معها التريث والأناة لربما فاز بها . تبا للشهوة الجامحة . لقد ضيعت عليه فرصة سانحة . وبلغا السيارة ، وقالت تحية بلهجة آمرة دون أن تنظر إليه :

ـــ مكانك .

وصعدت إلى السيارة ، وأغلقت الباب ، وأمرت السائق بالمسير . وأتبعها عينيه حتى هبطت تحت مستوى البصر وغابت عن ناظريه تاركة إياه وحيدا عند سفح الهرم . ولبث هنيهة مكانه ـــ كما أمرته ـــ واجما ـــ ثم هز منكبيه ، وأخذت روح الاستهانة تعاوده حتى أوشك أن يضحك من نفسه ، ونظر إلى الهرم طويلا ، ثم غمغم ساخرا : « إن أربعين قرنا تنظر إلى مأساتى من فوق هذا الهرم ! » . ثم غلبته موجة غضب مفاجئة ـــ فاحمر وجهه الشاحب ، واضطربت أرنبة أنفه ، فود لو يستطيع أن يقذف

القاهرة بأحجار الأهرام الهائلة ، وتحركت قدماه وما يزال يأكله الغضب . علام الحزن ؟ .. ما هى إلا أنثى !.. ولن تزيد على فتاته ـــ جامعة الأعقاب ـــ شيئا !.. أجل . بيد أنه أضاع فرصة ، وخسر تحية وأباها إلى الأبد ! وتذكر لحظة ، ثم غمغم وهو يهز كتفيه استهانة : طظ .

ـ ١٨ ـ

وجاءت فترة استقرار نسبيا ..

تناسى محجوب إخفاقه وتوثب للعمل فقابل رئيس تحرير « النجمة » وكلفه الرجل بترجمة بعض المختارات نظير خمسين قرشا فى الشهر ، فصار دخله مائة وخمسين قرشا ، واستطاع أن يتقى به ويلات الموت جوعا وأن يجعل الحيا محتملة على أية حال . وانبرى للعمل يواصله ليلا ونهارا ، ما بين دراسته الجامعية وعمله الصحفى البسيط . وخلت حياته من الفراغ فندر تفكيره فى نفسه ، واجتراره الهموم ، ومضت أيام كاملة لا يكوّر فيها قبضته غضبا أو يهتف ساخطا ساخرا قائلا : طظ . أجل كانت توجد أويقات غيظ ما منها بد ، إذا تهيأ لتناول طعامه الحقير مثلا ، أو رأى على طه بجسمه الرياضى وابتسامته السعيدة ، أو ذكر طرقه الأبواب التماسا لبضعة قروش ، ولكن فيما عدا ذلك سارت الحياة سيرا هونا محتملا .

وولّى مارس بجوه اللطيف ورياحه الطيبة وسمائه الآخذة فى خلع أردية الشتاء لاستقبال حرارة الربيع وشذاه ، وتبعه على الأثر إبريل بشمسه المزهوة ـــ شأن كل حديث نعمة ، ورياحه المغبرة وجوّه الأصفر الكدر . وجاءه فى أول مايو كتاب والده الشهرى المعهود قال له فيه : إنه أرسل إليه آخر جنيه يستطيع الاستغناء عنه ، ودعا له بالتوفيق والنجاح ، ثم قال له : إنه سينتظر من الآن فصاعدا معونته التى بات فى أشد الحاجة إليها ، وبشّره

بأنه سيستطيع إن شاء الله أن يتحرك قريبا ، وربما أمكنه المشى متوكئا . لم يكن فى الرسالة شيء لم يسبق الاتفاق عليه ، بيد أنه لم يستطع مدافعة الغيظ الذى هاجمه ، وعاودته ذكريات الليالى السود ، ليالى الجوع والهذيان وعاد يقول عن والديه لو كانا لكنت ، ولو كانا لكنت ..

ثم كان الامتحان فى أول مايو ، وظهرت النتيجة قبل الثلث الأخير منه ، ونجح الصحاب الأربعة الذين تزاملوا أربعة أعوام كاملة . ولم يكن الامتحان ــ بالنسبة لمحجوب ــ مجرد امتحان مدرسى . كانت فى الواقع الفرصة الوحيدة والأخيرة كى يجنى ثمار كفاح خمسة عشر عاما ، فسر سرورا مضاعفا ، وتنهد ارتياحا من الأعماق . ولكن سرور الطالب المتخرج بالنجاح سرور قصير المدى ، بل هو سرور لا يجاوز ليلة ظهور النتيجة ، فإذا أدركه الصباح غشيه بهموم من نوع جديد ، هموم شاب يطرح عنه رداء التلمذة ليلقى منفردا ــ خصوصا إذا كان حاله كحال محجوب ــ ذلك الجبار المقنع المشتمل على جميع فرص السعادة وجميع عثرات الشقاء الذى يسمونه المستقبل . ومضى الصحاب يجتمعون كل مساء تقريبا بنادى الجامعة ، وكانت تترامى إليهم أخبار الزملاء ذوى الحسب والنسب ، ممن تفتح لهم أبواب الحكومة بقدرة قادر ، وتناولوا مستقبلهم بالكلام والنقد ، متفائلين أو متشائمين ، واعتاد أحمد بدير أن يقول باطمئنان : « لن يتغير مجرى حياتى ، فلن أبحث عن مهنة جديدة ، بالأمس كنت طالبا وصحافيا ، فالآن أتفرغ لعملى فى الصحافة » . ولم يكن مأمون رضوان يدرى إن كان يبعث إلى فرنسا أم يبقى فى مصر ، ولكن هدفه بقى واحدا فى الحالتين ، وهو الإسلام ، وقد تساءل مرة قائلا : « ألا يمكن أن نبدأ كفاحنا الحقيقى فى جمعية الشبان المسلمين ؟ فنطهر الإسلام من غبار الوثنيات ، ونرد إليه روحه الفتية ، وننشر منها دعوة لا تلبث أن تشمل الشرق العربى جميعا ثم بلاد

المسلمين ! » . أما علي طه فلم يكن ذا هدف واضح ، ولكن اختلطت عليه الوسائل . كان مهيأ للاشتغال بالسياسة ، ولكن السياسة كما يعرفها هو لا كما يعرفها الناس . ولو وجد حزبا ذا مبادىء اجتماعية لاشترك فيه بلا تردد ، ولكن أين هذا الحزب ؟.. فهل ينتظر حتى تنشأ الأحزاب الاجتماعية ثم يشترك فيها ، أم يأخذ هو فى الدعوة إليها منذ الآن ؟ لا شك أن الانتظار أسهل ، وأحكم ، إذ ما جدوى الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى فى بلد لا يشغله شاغل عن الدستور والمعاهدة ، ولعله من الخير أن ينتظر قليلا ليستكمل عدته من العلم والمعرفة ، وغير ذلك ، فلم ينط أمله فى الوظيفة ، ولا كان يرفضها لو أتيحت له .

محجوب عبد الدائم وحده أدركه الجزع : الإسلام ، السياسة ، الإصلاح الاجتماعى ، كل أولئك مسائل لا يكترث لها ، أما شغله الشاغل فهو اتقاء الموت جوعا ، أو هو وظيفة توفر له الرغيف ! ، وإذا أخفق فى الحصول على وظيفة فالجوع لن يتهدده وحده هذه المرة ، ولكن يتهدد والديه معه ، وهو لا يشفق عليهما بقدر ما يشفق من مضايقتهما له ، فما العمل ؟ .. كان فى الحقيقة بلا معين ، والحكومة لا يدخلها أحد بلا معين . وتفكر طويلا ، ولكنه لم يفعل شيئا إلا أن كتب لوالده كتابا قال فيه : إنه بصدد البحث عن وظيفة ، وإنه يرجو أن يتمكن قريبا من تأدية واجبه نحو أسرته ، وشرح له الصعاب التى تعترضه ، وفى ذلك الوقت رشح أستاذ الفلسفة الفرنسى مأمون رضوان لبعثة السوربون ، ووصى بتعيين على طه فى المكتبة ليتهيأ له جو حسن لتحضير رسالته . سمع محجوب بهذه الأنباء ، وقارن بين حظه وحظ زميليه .. غداً ينتقل مأمون ربيب أحقر قرية فى الغربية إلى باريس .. وغدًا يطمئن على إلى كرسيه فى المكتبة فيحضر الماجستير ويعقد على إحسان !.. مرحى .. مرحى .. وماذا هو فاعل ؟.. هل تعود أيام فبراير السود ؟ . وذهب لمقابلة على طه

فى المكتبة ، وقد مر على تعيينه أسبوع ، وكان يتوقع أن يجده فرحا مسرورا ، وقابله الشاب بابتسامته المعهودة ، فلم يقرأ فى وجهه ذلك السرور الذى توقعه ، بل خال أنه يرى مكانه فتورا لم يتعوده صاحبه ، وعجب لذلك أيما عجب ، وغمضت عليه أسبابه ، حتى حسب أن الشاب يدارى فرحه بهذا المظهر الفاتر . وتجاذبا الحديث طويلا ، وأعرب له عن نيته فى عدم الاستمرار فى الوظيفة ، قال :

ـــ هذه فترة انتظار وتفكير ريثما أجد سبيلا للاشتغال بالحياة العامة .. وربما اخترت الصحافة فى الوقت المناسب ..

وذكر محجوب عمله فى النجمة وما يدر عليه من رزق واسع ! فجرت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وعاد على طه يقول :

ـــ إننى أتهيأ لكتابة موضوع عن توزيع الثروة فى مصر ..

وضاق محجوب صدرا بآمال صاحبه ، وسأله صراحة عما إذا كان فى الإمكان أن يجد وظيفة فى المكتبة ؟ ومضى به الشاب إلى موظف المستخدمين يستفتيانه ، وكان الرجل صريحا جدا ، فأمسك بيد محجوب وقال له بحدة :

ـــ اسمع يا بنى : تناس مؤهلاتك ، ولا تضع ثمن طلب الاستخدام ، المسألة لا تعدو كلمة واحدة ولا كلمة غيرها : هل لديك شفيع ؟ أأنت قريب أحد مما بيدهم الأمر ؟ أتستطيع أن تطلب يد كريمة أحد من رجال الدولة ؟ . إن أجبت بنعم فمبارك مقدما ، وإن أجبت بكلا فلتول وجهك وجهة أخرى ..

وغادر المكتبة مظلم العينين من اليأس ومرارة الإخفاق ولم يكن شىء مما سمع بالجديد عليه ، ولكنه أحنقه كأنما سمعه أول مرة ، ومضى يخبط فى حديقة الأورمان ، واجما مكتئبا . آه لو كان أبقى على علاقته الحسنة بآل حمديس ، آه لو لم يقطع تلك العلاقة بوحشية يوم الهرم ؟. ترى لماذا لا يستقيم له أمر ؟

لماذا لا ينال حظه من السعادة والطمأنينة ؟.. لماذا يرصده الجوع كأنما لا يجد فريسة سواه ؟.. الدنيا جميعا فرحة لا تأبه له . هذا الربيع يجرى فى خضرة الغصون وحمرة الأزهار ، ويطير مع العصافير والأطيار ، ويرقص على الشفاه المتوردة الغارقة فى النجوى عن يمين وشمال . الدنيا كلها فرحة مطمئنة ، والوجوه مشرقة . هذه حديقة الأورمان مجمع أفراح الإنسان والحيوان والنبات ، والأرض نفسها والسماء تشملها غبطة صامتة فوق كل كلام . أيموت جوعا فى هذه الدنيا ؟. وبدا له سؤاله غريبا نافرا ، وضحك هزءا وسخرية وتحديا ، وقال متحديا : « أأموت جوعا ؟.. فلا نزل القطر .. فلا نزل القطر . » .. كيف يموت جوعا ثائرا على جميع القيود ؟.. كيف يموت جوعا كافرا بالضمير والعفة والدين والوطنية والفضيلة جميعا ؟.. وهل جاع فى هذه الدنيا أحد ممن يتصفون بالرذيلة ؟.. بل هل كانت الشكوى إلا من أنهم يستأثرون بكل طيب فى هذه الحياة ؟ ماذا عليه لو نشر فى الإعلانات المبوبة بالأهرام يقول : « شاب فى الرابعة والعشرين ، ليسانسيه ، طوع أمر كل رذيلة ، عن طيب خاطر يبذل كرامته وعفته وضميره نظير إشباع طموحه » . ألا يقتتل عليه العظماء .؟ ولكن من له بنشر هذا الإعلان ؟.. من عسى أن يأخذ بيده ؟.. لا فائدة من السعى لدى الزملاء ، ولا الأساتذة ، ولا حمديس بك .. إلا واحدا كان يجب أن يفكر فيه دون سواه .. سالم الإخشيدى .. ليس بذى مروءة ولا نجدة ، ولكن هل لديه سواه ؟!..

— ١٩ —

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدى فى بيته ، لأن حجرته بالوزارة لا يتهيأ لها الجو الهادىء ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ فى شقة بشارع السيد المفضال ، واختار يوم الجمعة صباحا ليضمن وجوده . واستقبله الأستاذ فى حجرة استقبال صغيرة أنيقة ، وكان يقيم فى القاهرة بمفرده ومعه طاهية .. وأدرك الأستاذ الباعث على الزيارة بداهة ، ولكنه ترك القادم يفصح عن رغبته ، دون مبالاة ، وقال محجوب :

— معذرة عن مجيئي إلى البيت ، فإننى أعلم أن عملك بالوزارة لا يسمح لك بسماع الأحاديث الخاصة .

فقال الإخشيدى ببرود :

— الواقع أننى لا أترك العمل إلا فترة قصيرة يوم الجمعة !

وفطن محجوب إلى ما فى إجابته من مغزى ، ولكنه تغاضى عنه بجسارته المعهودة ، وقال :

— حصلت على الليسانس .

فابتسم الإخشيدى ابتسامة تشجيع فاترة ، وتمتم قائلا :

— مبارك ...

فشكره الشاب بحماس وقال :

— يا سالم بك ، أنت جار قديم ، وزميل قديم ، وأستاذنا فى العلم والوطنية على السواء ، ولن أنسى ما حييت أن توصيتك لدى رئيس تحرير النجمة أنقذت حياتى ومستقبلى من الضياع . لهذا أقصد إليك كبير الرجاء ، يا سعادة البك الشهادة بغير شفاعة أرخص من ورق اللحم ، فهل آمل أن تلحقنى بوظيفة ما ؟

أصغى الإخشيدى بلا تأثر ،لأنه تعود سماع هذه الخطب الحارة . وكان يحتقر الشاب ويستهين به لفقره وعوزه ، فلم يتحمس لمساعدته . وكان يوجد بالوزارة وظيفتان خاليتان ،ولكنه وعد شخصا إحداهما ، وتقبل نظير الأخرى هدية فاخرة ، وقد يصير محجوب ذا فائدة يوما ما ، ولكن العاجلة خير من الآجلة . وجعل محجوب يرمقه بعينين تنطقان بالخوف والرجاء ، ويشعر أنه بات تحت رحمة إنسان لا يراعى إلا مصلحته الذاتية . ولما وجد منه صمتا قال بصوت مؤثر :

ـــ إنى أملتك وكفى

فأشعل الإخشيدى سيجارة ، وهز رأسه كالآسف وإن لم تدل عيناه على شيء ، وقال بهدوء :

ـــ لا توجد وظائف خالية عندنا الآن .

فلاح اليأس فى وجه الشاب وتساءل :

ـــ أما من فائدة ترجى ؟

ـــ لا داعى لليأس المطلق ، ليس عندنا وظائف ، ولكن توجد فى الدولة وظائف كثيرة ، ويمكن أن أدلك على سبيل الخير .

ولم يجد فى قوله ما يبعث على الأمل ، ولكنه لم ير بدا من أن يقول :

ـــ شكرا لك يا بك ، شكرا لك .

فنظر إليه الإخشيدى نظرة غامضة قوية وقال :

ـــ أرجو أن تكون رجلا عمليا ، وأن تحسن فهم الدنيا ، وأن تعلم أن كل فائدة بثمن .. لست أسألك شيئا لنفسى ، فما أنا إلا دليل .

ـــ عفوا ، عفوا .. أستغفر الله ..

فابتسم الإخشيدى وقال :

ـــ إذا أخذت بقولى فهنالك أناس قادرون يستطيعون أن ينفعوا أمثالك !

وسكت الإخشيدى لحظات ثم استدرك :
ـــ هناك مثلا عبد العزيز بك رضوان .. ألم تسمع عنه ؟!
ـــ بلى .. أظنه من رجال الأعمال المعروفين .
ـــ هو ذلك .. وله كلمة نافذة فى العهد الحاضر .. ودائرة اختصاصه وزارة الداخلية .
فسأله الشاب متحيرا :
ـــ ومن لى بمعونته ؟
ـــ الطريق ميسور ، ولكن ينبغى أن تعلم أنه يأخذ ممن يعينه نصف مرتبه لمدة عامين بضمان !
وهال الثمن الشاب المعدم ، ونظر إلى صاحبه بخوف ، ثم سأله بعد تردد :
ـــ أليس يوجد من هو أيسر شرطا ؟
فقال الإخشيدى فورا ، كأنه نادل يقرأ ثبتا :
ـــ المطربة المعروفة الآنسة دولت ..
فلاحت الدهشة فى وجه الشاب الشاحب ، فلم يباله الآخر واستدرك :
ـــ منطقة نفوذها السكك الحديدية ووزارة الحربية وبعض الدوائر الكبرى ..
وأخذ الإخشيدى نفسا عميقا من سيجارته ، واستطرد قائلا :
ـــ والأسعار كما يأتى : الدرجة الثامنة ثلاثون جنيها ، والسابعة أربعون ، والسادسة مائة جنيه . والدفع فورا .
وتنهد محجوب يائسا ، ثم تفكر قليلا وقال :
ـــ أظن شرط عبد العزيز بك راضى أرفق ، فإنى لا أملك مما تطلبه المطربة مليما ، ولكنى أستطيع أن أتنازل عن نصف مرتبى إذا صار لى مرتب ، فكيف أتصل به ؟

ـــ ليس الآن .. ليس قبل شهر ونصف ، بعد عودته من أداء فريضة الحج ..

تبا له ! ولكن الجوع لن يبقى عليه حتى يعود الحاج . وقال بصوت خافت وهو يخشى أن يضيق به صاحبه ذرعا :

ـــ الانتظار معناه الجوع .. فما عسى أن أصنع ؟

فقال الإخشيدى ضاحكا لأول مرة :

ـــ لست بالفتى الأمرد ، ولا أملك بالفاتنة اللعوب ، فما عسى أن أصنع أنا ؟!

وساد الصمت ، وبات فى حكم المقرر أن ينهى الإخشيدى المقابلة ، لولا أن خطر له خاطر . وتفكر سريعا ثم قال لنفسه إن استفادة محجوب محتملة ، أما استفادته هو ـــ إذا حقق هذا الخاطر ـــ فمؤكدة !. ثم قال :

ـــ هنالك السيدة إكرام نيروز .

ـــ منشئة جمعية « الضريرات » ؟

ـــ نعم .

ـــ ولكنها مثرية جدا ، ويضرب بثرائها المثل ..

ـــ نعم .. نعم .. السيدة لا تطلب مالا ، ولكنها مغرمة بالشهرة والثناء . ويمكن أن أقدمها إليك فى إحدى المناسبات ، وعليك بعد ذلك بقلمك ومجلة النجمة ، فإذا وفقت إلى رضاها ضمنت مستقبلك ، إنها صاحبة نفوذ واسع يمتد إلى وزارات كثيرة ، وأحزاب كثيرة .

وكان يرمى إلى استغلال الشاب فى الدعاية لها ، بعد أن يقدمه كأحد تابعيه الذين يأتمرون بأمره ، فقال :

ـــ ستقيم السيدة فيروز حفلة خيرية يوم الأحد القادم بدار « الضريرات » فاحضر الحفلة وسأقدمك للسيدة ؟ واكتب عن الحفلة وصاحبتها ، ولننتظر ، ولننتظر .

ـــ أيبلغنى هذا ما أريد ؟

ـــ ربما توقف هذا على قلمك !.. وعليك أن تبتاع تذكرة بخمسين قرشا ؛ لأنك لست صحافيا محترفا ، وربما عرفت فيما بعد أن هذا المبلغ الزهيد أجل فائدة من ستين جنيها تؤديها للآنسة دولت .. فهلم دون تردد .

وعلى جسارته لم تؤاته شجاعته على أن يستلف منه ثمن التذكرة ، فنهض قائما وصافحه شاكرا وغادر الحجرة .

ـــ ٢٠ ـــ

خمسون قرشا!. مبلغ زهيد حقا ، ولكن كيف يحصل عليه ؟ حقا إنه يدخر مكتبه وكتبه لينتفع بثمنها فى الشهر الذى يسبق صرف أول مرتب إليه ـــ ترى هل ينتظر يوما حقا هذا المرتب؟ـــ فمن يعطيه ثمن التذكرة ؟ .. مأمون رضوان ارتحل إلى طنطا ليودع اسرته قبل السفر إلى أوربا ، فلم يبق إلا على طه . ولا بد مما ليس منه بد .

وذهب إلى مكتبة الجامعة صباح السبت ، واستقبله على بالابتسامة المعهودة ، ولكن محجوب أدرك من أول نظرة أن صاحبه حزين !. ليس هذا على طه الذى يعرفه ، انطفأ نور عينيه البهيج ، وهمدت روحه المتوثبة الحية ، وكل هذا حقيق بأن يوليه سرورا لو وجده فى ظروف غير هذه . أما اليوم فهو يشفق من أن يلقى هذا الحزن عثرة فى سبيل الغرض الذى تجشم من أجله هذه الزيارة ! وتعامى عما قرأه فى وجه صاحبه وسأله :

ـــ أين بلغ بك موضوع بحثك ؟

فنفخ على طه ضجرا وقال بيأس ملموس :

ـــ لا أدرى ، إنى الآن مهيض الجناح .

فقطب محجوب متظاهرا بالإشفاق ، وقال وهو يلعن فى سره نحسه الملازم :

ـــ كفى الله الشر ، ماذا تقول ؟

وكان على عصبى المزاج ، لا يكاد يطوى سرا فقال :
ـــ كما ترى .. الأمر يتعلق بإحسان !
وكأن ماء باردا رش على وجهه ، فثار اهتمامه ، وغمغم متسائلا :
ـــ خطيبتك !
فتنهد على وقال بانكسار وحسرة :
ـــ خطيبتى !
فازدادت دهشة محجوب وقال بلهجة من يود معرفة كل شيء :
ـــ لا أفهم شيئا..

وتردد على ثانية ، أيبوح بسره ؟.. وكان بطبعه غير كتوم ، وكان محجوب من أصحابه الذين أفضى إليهم بقصة حبه ، وكان إلى هذا وذاك في أشد الحاجة إلى الترويح عن نفسه ، فقال بصوت أبان عن تأثره العميق ويأسه :

ـــ ولا أنا ، لشد ما أنا ذاهل حائر ، ولشد ما أسائل نفسى ، ما الذى حدث ؟! ما البواعث الخفية الأسيفة التى تنفث سمومها في الظلام ؟.. كانت الحياة تسير سيرا جميلا . كنا متحابين ونزداد على الأيام حبا . وكنا متفاهمين ونزداد على الأيام تفاهما . عرفنا ماضينا وأحببناه . وخبرنا حاضرنا ورضينا به ، وأملنا مستقبلنا وانتظرناه ، وتتابع اللقاء ، وتمت الألفة ، ورسخت المودة ..

وسكت على لحظة ، وعينا صاحبه لا تفارقان وجهه المتجهم ، ثم اندفع يقول مسحورا بحرارة الحديث :

ـــ ما الذى بث الفساد فى حياتنا ؟. إنه شيء لا يصدق ، ولكنه الحقيقة دون زيادة ، كيف حدث هذا ؟!. بدأت تتغير ! وكان التغير طفيفا بادىء الأمر ، ولكنه لم يخف عن قلبى اليقظ الساهر . رأيت فى عينيها نظرة قلقة حائرة ، تناوبها الشرود وفترت ابتسامتها ، ومضت تتجافى

عن حديث الحب ، وتتقى ذكر آمالنا وعهودنا . فأخذت نفسى بالصبر عهدا عرفت فيه مرارة الحيرة وعذاب الشك ، ولكن دون جدوى فلم يتغير الحال ، وكاشفتها بوساوسى ، وقلت لها ما أجدر حبنا بأن يكون هباء إذا طوت دونى سرها ! ولكنها اتهمتنى بالمبالغة واعتذرت عن تغيرها بتوعك مزاجها فتضاعف عذابى وألمى .. كيف أصدق أن حبا كحبنا يموت فجأة وبغير نذير ؟ وجددت بها ، فصارت اللقيا جحيما ، ثم انقطعت عنى ، أتصدق ؟ لقد جننت ، فرصدتها فى كل مكان ، وراسلتها ، وثابرت على مطاردتها بعناد ، فجاءت لمقابلتى ، جاءت تتعثر بالحزن والخجل ، فصحت بها أن تحولها سيورثنى الجنون .

وأمسك الشاب ، وكان محجوب يتابعه بحواس مرهفة ، ويوليه اهتماما كاد ينسيه غرضه من الزيارة ، وتظاهر بالتأثر الشديد ليشجع صاحبه على الاسترسال ، فقال على :

ـــ قلت لها إن تحولها سيورثنى الجنون ، فقالت لى إن لقاءنا أورثها الجنون بالفعل ‹‹ وقالت لى إن آمالنا مقضى عليها بالفناء ، فينبغى أن نعالج حزننا بالحكمة وأن نرضى بالنهاية المحتومة . هل أرضى بالشقاء دون دفاع ؟! أأفرط فى سعادتى دون سؤال ؟!. قالت لى إنها رغبة والديها ، وإنها يئست من إقناعهما ، وإنها لم تدع وسيلة ، وضرعت إلىّ فى النهاية أن نفترق وألا أضاعف لها العذاب .

ونظر الشاب إلى محجوب طويلا ، حتى أفاق قليلا من سكرة الحديث ، فتورد وجهه وقال :

ـــ لماذا أطيل عليك ؟.. لقد انتهى كل شىء : تحطمت آمالى . إن دراسة الحكمة لا تغنى عنى شيئا .

وعجب محجوب أيما عجب : لماذا يرفض عم شحاتة تركى بائع السجائر الأستاذ على طه ؟ أيراه غير أهل لنسبه !.. أم يطمع الرجل أن تتم

كريمته دراستها لتنفق على أسرته ؟! ثم خطر له خاطر فسأل صاحبه :
ـــ ألا يجوز أن مثريا كبيرا طمع فى الفتاة فأراد أبوها أن يزوجها له ؟!

فرفع علي حاجبيه حيرة ولم ينبس بكلمة . وكان محجوب قد ذكر غرضه الأول من هذه الزيارة ، فأراد أن يمهد له ، وكان اعتراف على قد أحدث فى نفسه لذة كبيرة ، فسالت نفسه نشاطا وحبورا ، ولكنه قال لصاحبه بلسان الواعظ :

ـــ لا يجمل بك على أية حال أن تستسلم للحزن ، والحق أقول إنه مهما يكن السبب الحقيقى لهذه القطيعة فلا شك فى تبعة فتاتك ، فهبها كشيء لم يكن ، وأودع العلة والمعلول سلة المهملات ..

فقال على بحزن :

ـــ لم يلتئم الجرح بعد !

ـــ هذا جزاء من يهيم بنظريتك فى الحب ، ألا ترى أن الكلاب تعالج الحب بطريقة أدعى إلى السعادة والراحة ؟.. نحن المسئولون عن شقائنا دائما ..

فلازم على الصمت ، واستطرد الواعظ :

ـــ النسيان .. النسيان .. أترضى أن تكون من المجانين الذين يفسد الحب حياتهم ؟

وساد الصمت . وفى تلك اللحظة امّحى سبب قوى مما كان يبغض على طه إليه ، فلم يعد يمقته كما كان . خفت وطأة البغضاء ، ومضى يقول لنفسه : ما يضيره لو فقد إحسان ؟. فلا يزال ذا وظيفة وشباب وجمال ! إحسان التى طالما أصلته نارا ، فمن الراحة ألا يفوز بها منافسه وإن فاز بها ثالث غيرهما !. ثم نهض قائما ، متوثبا للهجوم على غرضه ، فمال نحو صاحبه وهو يصافحه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

ـــ أستاذ على .. أخوك فى حاجة إلى خمسين قرشا حتى آخر

الشهر ؟

ودس على يده فى جيبه ومدها إليه بما يريد ، فتناولها محجوب قائلا :

ـــ شكرا لك .. شكرا لك أيها الصدبق الكريم .

وغادر المكتبة راضيا ، وتساءل وهو ينتف حاجبه الأيسر : متى يمتلىء جيبى بنقود الحكومة ؟!

ـ ٢١ ـ

وأخذ أهبته . استحم ، وكوى البدلة والقميص والطربوش ، ولمَّع الحْذاء ، وحلق ذقنه ورجَّل شعره ، فبدا شخصا جديدا ، وإن لم يزايله الهزال ولا الشحوب .

ذهب إلى دار جمعية الضريرات مبكرا . ووجدها دارا كبيرة ، أنيقة ، تحيط بها حديقة غنَّاء وارفة الظلال ، فسار إلى بهو عظيم مستطيل ، يتصدَّره مسرح كبير ، وقد تراصت به صفوف المقاعد الخضر ، وعلى الجانبين أبواب الشرفات المطلة على الحديقة . ولم يكن سبقه إلى المكان إلا نفر قليل فاتخذ مجلسه هادئا ، ومضى يتفحص المكان بعينيه الساخرتين ، ويتساءل : ترى هل يمكن حقا أن تنتهى به رحلته فى هذه الدار إلى الحكومة ؟!. وكان تيار القادمين لا ينقطع ، وكان فى استقبالهم جماعة من الأوانس الحور . وبعد ثلث ساعة من جلوسه تكاثر عددهم ، وتزاحموا نساء ورجالا . فى أبهى الثياب وفاخر الحلل ، فشاع الحسن فى كل موضع ، وتطاير فى الجو شذا العطور ، وزاغ بصر محجوب ، وترددت عيناه الجاحظتان بين الوجوه الصبيحة ، والنحور المتألقة ، والظهور العالية ، والصدور الناهدة . وجرى دمه بحيوية فائضة ، وسرى القلق فى أعصابه . وعجب لهذه الدنيا الباهرة ، أين كانت خافية ؟..

هذه الثياب الفاخرة ، وتلك الحلى النفيسة . إن واحدة منها تكفى للإنفاق على طلبة الجامعة جميعا . وهؤلاء النسوة ، ما أكثرهن وما أجملهن ولكن من المؤسف حقا أن كل امرأة يحوم حولها رجل أو أكثر . وأكثرهن يتكلمن الفرنسية بطلاقة ، وهن المسلمات الظوالم !. كأن الفرنسية لغة الدار الرسمية ، ترى كيف يتفاهمن مع الضريرات ؟! واجتاحته موجة من السخرية مفعمة حقدا ، لا لغيرة على لغة البلاد ، ولكن تلمسا لأسباب الكراهية . وتساءل أين صاحب السعادة ابن الست أم سالم ؟ وأرسل بصره ناحية المدخل فصادف مجىء سيدة باهرة المنظر ، عرفها من النظرة الأولى ، فذكر القناطر لعهد خلى ، وذكر مهندس القناطر الشاب وزوجه الحسناء ، أجل كانت حرم حمديس بك دون غيرها ، وقد جاء وراءها البك نفسه ، وتبعته تحية وفاضل ! وعلق بصره بالأسرة وهى تمضى إلى مقاعدها من الصف الأول ، وتورد وجهه الشاحب ، وعادت إلى ذاكرته رحلة الأهرام ، فخال أنه يسمع صفقة باب السيارة وهو يغلق دونه !.. وقرض أسنانه وشعر برغبة جهنمية إلى البطش بهذه الفتاة الأنيقة المتعجرفة !.. آه لو تأبطت ذراعه حسناء من هؤلاء الحسان فسار بها أمام أسرة « قريبه » !. تلك الأسرة الكريمة التى تجشمت المجىء إلى هذا البهو فى سبيل الإحسان والرحمة !. ينبغى أن يسود بلا قيد ولا شرط ، فلا ضمير ولا خلق ، ولكن متى يجلس معهم فى الصفوق الأمامية ! فى لباس السهرة الفاخر فى بدلة الصحافة هذه !!؟. وقبل أن يفيق من أفكاره رأى عن بُعد الأستاذ سالم الإخشيدى يشق طريقه إلى الأمام فى مشيته المتمهلة ، ورزانته المعهودة ، كأن البهو لا يحوى سواه .. وكان يحيى برأسه كثيرا من الطبقة العالية نساء ورجالا ، فظل يتابعه بناظريه حتى جلس ، وقد ملأه إعجابا وحسدا . هذه هى الحياة الحقة ، الحياة الممتعة ، الحياة التى ترضى الغرائز جميعا . الإخشيدى مثله الأعلى

ونعم المثل الأعلى هو . وشعر عند ذاك بيد توضع على كتفه ، فالتفت إلى يمينه فرأى الأستاذ أحمد بدير يجلس فى المقعد الملاصق ، فتصافحا بحرارة ، وسأل محجوب قائلا :

ــ ما الذى جاء بك يا أستاذ ؟

فنظر إليه الشاب نظرة كأنما يقول له ما الذى جاء بك أنت ؟.

وأجابه كالداهش :

ــ عملى !.. ألست مندوب الجريدة ؟

فقال محجوب :

ــ وأنا مندوب مجلة النجمة !

وضحكا معا . وهمَّ أحمد بدير أن يسأل صاحبه عما إذا كان ينوى الاشتغال بالصحافة ، لولا أن رفعت الستار ، وبدت على المسرح سيدة جليلة ، ذات جبين وضّاح ، ووجه مستدير مهيب ، لم يذهب كل جماله على اقترابها من الستين ، وقوبلت بتصفيق حاد متواصل ، فتلقته برزانة من يألفه ، وحنت رأسها تحية للمعجبين ، وبسطت بين يديها ورقة . ونظر محجوب إليها طويلا ، ثم سمع أحمد بدير يقول بصوت منخفض :

ــ السيدة إكرام نيروز منشئة الدار ..

أجل . عرف ذلك بداهة ، ترى أى دور ستلعبه فى حياته ؟.

واستدرك أحمد بدير قائلا :

ــ إنها عجوز ولكنها مغرمة بالشباب !

وأدرك أن أحمد بدير لن يمسك ــ كعادته ــ وسر لذلك أيما سرور ، لأنه من المحنق أن يقتحم الإنسان دنيا جديدة بغير دليل . أما السيدة إكرام نيروز فراحت تلقى كلمة الافتتاح بصوت هادىء متزن جميل . رحبت بالحاضرين ، وأثنت على عواطف الخير التى تعمر صدورهم ، ثم تكلمت عن جمعية الضريرات وهدفها السامى . ألقت كلمتها بالعربية ،

فلم تكد تنجو كلمة من خطأ نحوى و لحن. وتبادل الصاحبان الابتسام ، وقال احمد :

ــ لا تحزن فالدار خالية ممن قد يفطن إلى الخطأ ..

فقال محجوب كالمعتذر :

ــ مغفور لها الخطأ ، أليست تخطب بلغة أجنبية ؟

ثم شاهد الحاضرون فصلا من مسرحية لموليير . وغنَّت مدام تارد أغنية فرنسية عالمية ، وتركت فى النفوس أبلغ الأثر ، ثم دعى الجميع إلى بهو آخر مستدير ، أعدَّ للرقص ، فتصدَّرته فرقة موسيقية إيطالية ، ورصَّت إلى جوانبه الموائد ، وعزفت الموسيقى ، ورقص الراقصون : ودارت الكئوس مترعات . ووقف الصديقان عند مدخل إحدى الشرفات يشاهدان الرقص ويتحدثان . كان محجوب يرى الرقص لأول مرة ، فأثار دهشته وإعجابه ، رأى الصدور تكاد تلمس الصدور ، والأذرع تحيط بالخصور ، فعجب كيف يتمالك هؤلاء أنفسهم ! وتمنى لو كان من الراقصين . وتفحص الوجوه بعينيه الجاحظتين القلقتين ، وهمس لنفسه : « المال . المال هو السيادة وهو القوة ، هو كل شيء فى الدنيا ! » وعثرت عيناه بثدى ناهد تكاد حلمته تثقب الفستان الأبيض الشفاف ، فحمى دمه ، ورفع بصره ليرى وجه صاحبته ، فرأى عجوزا دميمة على فرط تهتكها ، فلكز صاحبه ولفته إلى السيدة هامسا :

ــ كيف يكون هذا الثدى لهذه العجوز ؟

فألقى أحمد بدير على المرأة نظرة شاملة : وابتسم كالساخر ، ثم قال :

ــ وكيف تكون هذه الحفلة الخيرية فى حانة ؟!

فقطب محجوب غاضبا ، أو متظاهرا بالغضب وقال :

ــ لتذهب الضريرات إلى الجحيم .. الحانة خير وأبقى

وجال ببصره مرة أخرى فرأى تحية حمديس ! رآها تراقص شابا جميلا مفتول العضلات ، له طول مأمون رضوان ، ومتانة بنيان على طه : فشعر أنه ــ الشاب ــ يستطيع أن يقبره بضربة واحدة . وتجهم وجهه ، وسأل أحمد بدير عنه ، فقال الشاب :

ــ وكيل نيابة وأحد أبطال التنس المعدودين ..

وتنهد محجوب . ولو أمكنه ــ فى تلك اللحظة ــ أن يصير عظيما ولو بجريمة ترمى به إلى حبال المشنقة لما تردد !. ما الذى منع من أن يكون أحد هؤلاء الشبان ؟! الدنيا جميعا ! القوى الكونية التى خلقت التاريخ ، وصنعت الطبقات ، وقسمت الحظ ، وجعلت عبد الدائم أفندى أباه ، والقناطر مسقط رأسه . وهنا سمع أحمد بدير يهمس إليه متعجلا : « انظر إلى الشرفة » وأدار رأسه إلى داخل الشرفة : فرأى سيدة تكاد تخفى وجهها بمروحة من ريش النعام ، وعلى يدها ينحنى رجل متقدم فى السن ، فلما استوى واقفا ، عرفه من الصورة التى تنشرها له الجرائد من آن لآخر ، قال أحمد بدير :

ــ هذه حرم أنيس بك إبراهيم ، والباشا من المعجبين بها ، ويقال إنها تسعى لمنح زوجها الباشوية !

وكفّت الموسيقى ، وهرع كثيرون إلى الشرفات والحديقة ، فتحول الشابان إلى الشرفة ، دخلا معا ، قال أحمد بدير :

ــ فى أول عهدى بحياة المجتمعات كان يكلفنى موقفنا هذا عناء ما بعده عناء : كنت أخال الناس جميعا وكأن لا عمل لهم إلا تفحصى من الرأس إلى القدم . وأنت ؟

فذكر محجوب ملابسه ، ووجهه الذابل الشاحب ، فتصاعد الدم إلى خديه ، ولكن سرعان ما استعدى جسارته واستهانته فقال بصوت هادىء :

ــ فى موقفنا هذا يداخلنى شعور بأنى رجل يجول بين ماشية !.

ولم يكد يتم كلامه حتى وجد نفسه أمام حمديس بك ، وجها لوجه . وخفق قلبه بعنف . ونظر إليه نظرة حاول ما استطاع أن ينقيها من آى الخوف والاضطراب ، وتساءل ترى كيف يواجهنى ؟.. ما عسى أن يقول ؟ ما عسى أن يفعل ؟.. أما حمديس بك فقد عرفه ، ولاحت فى وجهه ابتسامة ، ومد له يده قائلا :

ـــ كيف حالك يا محجوب ؟

وتصافحا ، وافترقا بسلام !.. وتولته الدهشة .. إذن أخفت تحية الأمر !.. ولم يدر له هذا بخلد .. وتنبه إلى أحمد بدير يسأله للمرة الثانية :

ـــ أتعرف حمديس بك ؟

فأجابه بزهو :

ـــ طبعا .. طبعا . ابن عم والدتى !

ـــ وكيف لم تحدثنا عن هذه القرابة العظيمة ؟.

فأجابه محجوب بنفس اللهجة ، وكان لا يزال متأثرا بسرور النجاة :

ـــ طظ !..

وهبطا الأدراج إلى الحديقة ، ومضت عيناه تبحثان عن سالم الإخشيدى ، ومتى يقدمه إلى السيدة ؟ .. وهل من فائدة ترجى ؟.. ومر بجماعات النساء والرجال ، وشاهد نخبة من الرجال المعروفين ، منهم المتحفظون ، ومنهم من أطلقوا لأنفسهم العنان . ولفت نظره شخص غريب المنظر ، ضخم الجسم فى غير تناسق ، مكرش ، كأنه مادة حيوانية لم تسوَّ بعد ، يمشى منفرج الساقين كأنه ذو داء . بيد أنه بدا أثيرا محبوبا مكرما ، يحادث العظام بغير كلفة ، ويمازحهم ويعلو صوته بينهم بغير مبالاة ، ويقهقه عاليا ،. وعجب محجوب لشأنه ، وسأل صاحبه عنه قائلا :

ـــ ومن هذا أيها العارف بأمر الناس ؟

فضحك أحمد بدير وقال :

ــ كيف لا تعرفه ؟.. عزوز ضارم . كان يوما موظفا محترما ، ثم اضطر إلى الاستقالة لأسباب خلقية ، فاشتغل بالأعمال الحرة ، وعرفه أناس من ذوى النفوذ ، فأعيد إلى الخدمة وسار قدما .. ولكنه لم يهجر أعماله الحرة !

ــ وكيف يجمع بين الاثنين ؟

ــ عمله الحر شقته الأنيقة ، فيها مائدة للقمار ، وفيها الحسان الكواعب الحور !..

وتفكر محجوب مليا ، وانقبض صدره ، وتكدر صفوه ، كيف يتاح له التفوق فى مثل هذا المجتمع ؟! إنهم يعلون بمبادئه بغير حاجة إلى تفلسف ، ولن يمتاز دونهم باستهتار أو جرأة . فما الفائدة ؟! أليس من الأفضل أن ينقلب مصلحا كمأمون رضوان أو كعلى طه ؟! وقطع أفكاره ظهور شاب كالقمر ، ممشوق القوام ، بديع الحسن ، ناعم البشرة ، فاتن العينين ، أخاذ الملامح ، لامع الشعر ، يخطر كالغزال نافثا سحر الأنوثة والذكورة معا . فما تمالك أن تمتم قائلا :

ــ لله ما أجمله !.. أتعرفه ؟

فقال أحمد بدير مبتسما :

ــ أحمد مدحت . أشهر من نار على علم ، يدعونه بحق كوكب الشرق !

ــ موظف ؟!

ــ ببنك مصر . متخرج فى الحقوق منذ عام . مرتب ثلاثون جنيها .

ــ ثلاثون جنيها ! ومن كان شفيعه ؟

فضحك بدير قائلا :

ــ هو شفيع نفسه يا أحمق !

ورن جرس يدعو المبعثرين فى جوانب الحديقة إلى بهو التمثيل . فعادوا جميعا وأخذوا مجالسهم بهدوء ونظام . ورفعت

الستار بعد قليل عن مجموعة من بنات الطبقة الراقية فى أردية فرعونية رائعة ، ورقصن جميعا رقصة فاتنة التصوير ، دقيقة التعبير ، أخذت بمجامع القلوب ، حتى همس أحمد بدير بأغنية سيد درويش « دا بأف مين اللى يألس على بنت مصر بأنه وش » وصفق الجمهور للراقصات بحماس وإعجاب .

وأعلن بعد ذلك عن مسابقة الجمال ، فسرت فى الحاضرين هزة شوق واهتمام ، وشملهم سرور عجيب . وظهرت على المسرح هيئة المحكمين . كانت المسابقة أمتع ما فى السهرة ، بل كانت المشهد الوحيد الذى أجمع الحاضرون على الاهتمام به . وقد تفحص أحمد بدير المحكمين بإمعان . ثم جرت على شفتيه ابتسامة خفيفة ساخرة ، وأبرز من جيبه بطاقة كتب عليها كلمة أو كلمتين وطواها حتى صارت كالعويد ، ودسها فى جيب محجوب وهو يقول :

ـــ دع هذه البطاقة حيث هى حتى تعلن النتيجة ، ثم ابسطها تجد اسم ملكة الجمال !.

فسأله محجوب بدهشة :

ـــ وكيف عرفته ؟

ـــ صه .. انتباه !

وتركز انتباه الجميع فى مكان واحد ، ودعا الداعى أولى المتسابقات ، فطلعت فى سماء المسرح كالكوكب النيِّر فى بهاء وأناقة . وكانت ترفل فى ثوب من الحرير الأبيض ، وتبسم ابتسامة توحى بالهدوء واللطف ، بيد أنها أخفقت فى إخفاء ارتباكها ، وقال أحمد بدير بأسف :

ـــ فى أوربا تبدو المتسابقات عرايا ! أما نحن فنقنع بالحكم على الظواهر ..

فتساءل محجوب ساخرا كعادته :

ــ ولماذا لا يختارون المحكمين من المطلعين ؟!

وحملقت الأعين ، وأمسك كثيرون بالنظارات المكبرة ، وأثبت البعض ملاحظاتهم فى مذكرات . واستمر العرض والفحص بلا سأم ولا ملال . وتتابعت الوجوه كالأقمار . ثم اختفت هيأة المحكمين للمداولة فتصاعد اللغط ، وعلا النقاش ، وتراهن كثيرون . وعادت اللجنة بعد قليل وأعلنت اسم الفائزة : آنسة هدى حيدر ، فصفق الجميع ، وصفق والدها فى مقدمة الجميع . وأبرز محجوب البطاقة من جيبه ، وبسطها ، فوجد فيها اسم الفائزة « هدى حيدر » بخط واضح ، فلاحت الدهشة فى وجهه وسأل رفيقه :

ــ ما معنى هذا ؟

فابتسم أحمد بدير فخورا بفراسته وحسن اطلاعه على البواطن ، ورغب أن يترك صاحبه لحيرته ، ولكن الآخر ألح عليه ، فلم ير بدا من إسكاته ، فقال بصوت لا أثر للفخر فيه :

ــ عرفته بطريق المصادفة ! رأيت الفائزة منذ يومين مع الأعضاء الصحافيين من لجنة التحكيم عند سفح الهرم ، أيدهشك هذا ؟!

وكره محجوب عبد الدائم أن يدهش حقا ، فتمالك نفسه ، وقال بضجر :

ــ كلا لا يدهشنى شىء . اختيار الموظفين تزييف ، رسو العطاءات تزييف ، الانتخابات نفسها تزييف ، فلماذا لا يكون انتخاب ملكة الجمال تزييفا ؟

* * *

وأوشك الجمع أن ينفض ، فذكر محجوب غرضه : ورأى الأستاذ سالم الإخشيى يتجه نحو أحد الأبواب ، فودع صاحبه ومضى نحوه . وكان

الأستاذ قد نسيه تماما ، فتصافحا ، وسارا معا إلى الباب المقصود ، ودخلا حجرة كبيرة فاخرة الأثاث جلست السيدة نيروز فى صدارتها مع نفر قليل من أصحابها . وأهاب محجوب بجسارته أن يخونه الارتباك . واقترب مع صاحبه من السيدة الجليلة ، وانحنى الإخشيدى على يدها مسلما ، وقدمه إليها بصوته الرزين الهادىء : « الأستاذ محجوب عبد الدائم ، مندوب النجمة ! ، من خريجى الجامعة المعجبين بما أحدثت عصمتك من نهضة رائعة » . وانحنى لها محجوب فمدت له يدها قائلة :

— إنى فخور بالجيل الجديد .. (وأتمت بالفرنسية) فقد طفح الإناء بالماء القذر ، ولا بد من تطهيره وملئه من جديد ..

فقال محجوب بالفرنسية :

— هذا حق يا سيدتى ..

وكان الإخشيدى يقوم لها بدعاية فى بعض الصحف إما بنفسه أو بواسطة بعض أصدقائه : فرجا أن تضيف ما عسى أن يؤديه محجوب إلى أفضاله السابقة . وألقت السيدة على الشاب أسئلة تتعلق بثقافته وتخصصه وآماله ، فأجاب محجوب بلباقة ، وجرى الحديث مجرى جديدا ، فاستأذن الإخشيدى وصاحبه ، وغادر المكان وهو يقول له مودعا :

— الشيء الكثير يتوقف على قلمك ..

حقا ؟ .. أتحقيق أمله رهن بمقاله عن حفلة اليوم ؟.. وعاد إلى الجيزة متفكرا تستأثر به الأحلام . وأرق تلك الليلة كما كان يؤرقه الجوع فى ليالى فبراير ، تاه فى وادى الأحلام والآمال ، ثم ذكر طويلا السهرة التى عاش فيها نصف الليل كله : جمال الرفاهية ، ومشاهد النعيم ، ومجالى الحسن ، وروعة العشق ، وجنون الإباحية ، تلك الحياة الباهرة التى تذوب روحه شوقا إليها ..

— ٢٢ —

وعند ضحى اليوم الثانى كان يقطع حجرته الصغيرة ذهابا وجيئة مفكرا فى المقال الخطير . ماذا يقول ؟ كيف يبدأ ؟ وبم يختم ؟ ثم ركز ذهنه فى حصر النقط الهامة : ثم هداه منطقه إلى طريقة لبقة فى كشف النقط الخطيرة ، فبسط صفحة ، وشطرها نصفين بخط رأسى ، وجعل لكل شطر عنوانا :

الحقيقة	ما ينبغى أن يكتب
١ — إكرام نيروز كريمة رجل من صنائع الاحتلال .	١ — أسرة إكرام نيروز وعراقتها فى الوطنية .
٢ — غرامها بالشبان .	٢ — زوج وفية وأم بارة .
٣ — تفوقها فى الفرنسية وعجزها فى العربية .	٣ — اغترافها من الثقافتين العربية والفرنسية .
٤ — دار الضريرات حانة .	٤ — مشروعاتها الخيرية .
٥ — مدعووها على مثالها .	٥ — مدعووها على مثالها .
٦ — المدعوون يهتمون بكل شىء إلا الضريرات .	٦ — عاطفة الخير .

هكذا استخرج نقط الموضوع الخطير ، ثم جلس إلى مكتبه يتهيأ للكتابة ، ولكنه لم يكد يمسك بالقلم حتى سمع طرقا على باب حجرته — لأول مرة منذ انتقاله من دار الطلبة — فنهض منزعجا ساخطا وفتح الباب . رأى جسما ضخما يملأ عليه الفراغ ، فتذكره وخفق قلبه خفقة مروعة ، كان ساعى سالم

الإخشيدى دون غيره . ورفع عينيه إلى الرجل فى تساؤل ولهفة ، فقال الرجل مبتسما ولكن بصوت غليظ :

ــ سعادة البك يريدك على أن تقابله الآن

ــ سالم بك ؟

ــ نعم !

ــ أين ؟

ــ فى مكتبه بالوزارة !

ثم قص عليه الرجل كيف قصد إلى دار الطلبة كما أمره سيده ، وكيف وصف له البواب مسكنه الجديد . ولكن محجوب لم يسمع شيئا ، كان يرتدى ثيابه بسرعة وهو يقول لنفسه : ماذا هنالك ؟!.. أيمكن ..؟! ولكن بهذه السرعة !.. إنه لسحر مبين !.. هذه المرأة إمبراطورة .. بل شيطانة .. بل إلٰهة .. آه .. لشد ما أخاف أن تكون الدعوة لسبب آخر فيضيع هذا السرور الجنونى سدى !.. ولكن لأى سبب يدعوه إن لم يكن لهذا ؟..

وذهبا إلى الوزارة فبلغاها فى منصف الثانية عشرة ، وقصد إلى حجرة الإخشيدى ، فاستقبله هذا بلطف لم يعهد مثله من قبل . وأمر الساعى ألا يأذن لأحد حتى يأمره . وجلس محجوب على كثب منه ، فالتفت إليه الرجل بوجهه المثلث الهادىء، ولكن كان الهدوء هذه المرة قناعا يخفى انفعالات عارمة ، وقال مبتسما :

ــ دعوتك لأمر خاص بمستقبلك !

هى الكلمة المرجوة !.. لن يضيع السرور سدى .. وغلبه الانفعال فقال بصوت متهدج :

ــ لم أفرغ من المقال بعد !

ــ دع المقال الآن ، وانس إكرام نيروز . سنحت فرصة أجل فائدة ،

كالثمرة الدانية تروم من يقطفها ..

فتساءلت عيناه المحملقتان ، وقال وهو يزدرد ريقه :

ــ بعونك أقطفها !

فتريث الإخشيدى متفرسا فى وجهه بدهاء لم يلاحظ الآخر ــ لم يلاحظ شيئا ــ ثم قال :

ــ وجدت وظيفة .

وساد صمت وقد تورد الوجه الشاحب ، فاستدرك الإخشيدى :

ــ درجة سادسة !

ــ سادسة !!

ــ سكرتير .

فتساءل لاهثا وهو لا يصدق أذنيه :

ــ سكرتير من ؟

فاشعل الإخشيدى سيجارة ، غير راحم لهفة صاحبه ، وقال متغافلا عن سؤاله :

ــ الفرصة الجميلة كنز لمن يهتبلها ، حسرة للمتردد . أتذكر كيف كان فيضان المسيسبى من سنوات بركة على قطن بلادنا البائر ؟

فاحترق الشاب لهفة وقال بعزم أكيد :

ــ محال أن أتردد يا سعادة البك .

فسر الإخشيدى لتلهفه ، وأطمأنت نفسه القلقة بعض الشيء ، ثم قال :

ــ سبق أن أفهمتك أنك يمكن أن تأخذ إذا رضيت أن تعطى !

أن تعطى ؟! ماذا يملك لكى يعطى ؟.. وغص بخيبة لم يتوقعها ، فانطفأ بريق عينيه ، وقال بصوت كسير متسائلا :

ــ ولكن .. ولكن كيف أعطى ؟.

ـــ ليس المال بالعملة الوحيدة المطلوبة فى سوق الفرص « وتنهد محجوب بصوت مسموع » ومن سجايا الإنسان ما لا يقوم بمال . المسألة لا تعدو هذا : أأنت جسور ذكى حقيق بالطيبات ، أم أنت ممن تلقى بهم الأوهام على شاطىء الحياة فتطؤهم النعال كالتراب ؟.

فلاحت الحيرة فى العينين الجاحظتين ، حتى خلع الشاب طربوشه ومسح على شعره المفلفل ، ثم لبسه بسرعة ، وقال :

ـــ أرجو أن أكون عند حسن ظنك ..

ـــ لهذا دعوتك ، وما خابت فراستى قط .

ونظر إلى محجوب بعينيه المستديرتين وسأله :

ـــ أتقبل أن تتزوج ؟

فتولته الدهشة . لم يخطر له الزواج على بال ، فلم ينبس بكلمة . وكان الإخشيدى لا يزال مصوبا إليه عينيه . فقال بلهجة ساخرة :

ـــ جاء دورى لا ستحثاثك .

ـــ ألا يمكن أن أعطى مهلة للتفكير ؟

فهز الإخشيدى منكبيه استهانة وقال :

ـــ ظننتك أشد رغبة . لماذا أنتظر ؟ يوجد ألف عروس وعروس ولابد من اختيار واحد اليوم ..

ـــ اليوم ؟.

ـــ بل الساعة ..

فتنهد محجوب ، وواتته جسارته المعهودة فقال بتسليم :

ـــ إذا قبلت ..

فابتسم الإخشيدى ابتسامة ماكرة وقال :

ـــ بداية حسنة ولكنها ليست كل شىء .

ماذا يريد الشيطان ؟.. ليس الأمر كما حسب أول وهلة . ليس الزواج كل شىء ، فماذا تحوى « كل شىء » هذه ؟.. وسمعه يقول بصوته

البغيض :

ـــ ولكنى متفائل بجسارتك وبسرعة بتك فى الأمور ، الوظيفة فى مكتبنا هذا ، وكنت شاغلها لأسابيع خلت وظيفة سكرتير قاسم بك فهمى .

يا للعجب . أيصدق هذا ؟. أيمكن حقا أن يجود الدهر بكل هذه السعادة ؟. ولماذا يختاره الإخشيدى وما يعهده ذا مروءة أو أريحية ؟ إنه يطالبه ـــ نظير هذه الوظيفة ـــ بالزواج ، فأى زواج هذا ؟. أجل أى زواج هذا .. وأخفى حيرته وقال بسرور :

ـــ يا لها من سعادة كالحلم . جزاك الله عنى خيرًا .

فابتسم الإخشيدى وقال وقد ازداد اطمئنانا وجسا ة :

ـــ دعنى أتكلم عن الزوجة .

فأحدث لفظ « الزوجة » في نفس الشاب هزة ، وتطلع إلى الإخشيدى بعينين متسائلتين كأنهما تسألانه : « من هى ؟.. ما صورتها ؟... ما معنى زواجى بها ؟ » فقال الإخشيدى :

ـــ فتاة كريمة من « دائرة » قاسم بك فهمى .

دائرة . وتساءل الشاب بارتياع :

ـــ قريبته ؟

ـــ قاربت الحقيقة ... هى من معارفه !

فتغابى محجوب وتساءل مزدردا ريقه :

ـــ معرفة جوار ، صداقة والدين .

فقال الإخشيدى ببساطة واستهانة :

ـــ قاربت الحقيقة ، سعادته صديقها هى بالذات !

وبدت الحقيقة سافرة . وأدرك ما يراد به . وعرف ثمن الوظيفة الفاخرة . إن الإخشيدى لا يرسل الساعى فى طلبه حبا فى سواد عينيه ، ولكن ليستغل بؤسه . وإنه ليمقت الإخشيدى ولكن ليس هذا بيت

القصيد . لقد تضرج وجهه بالاحمرار ، وأحس الحرارة تسرى فى رأسه ، فجعل يستصرخ ما جبل عليه من جسارة وفجور . أجل ما الذى يخجله ؟.. ما الذى يؤلمه ؟.. أيؤمن بالزواج ؟. أيؤمن بالعفة ؟. أيشعر بإهانة فى تصريح صاحبه ؟. إن الحياة تنبرى لامتحان فلسفته ، لتثبت بالتجربة المحسوسة إن كانت سفسطة وجدلا أو عقيدة وعملا ، فيا أيها الاضطراب زل ، ويا أيها الغضب اسكت ، وليتحدث عن الزوجة الساقطة كما لو كان يتحدث عن درجة حرارة الجو فى البرازيل . فدعا استهانته وسخريته ، وسأل صاحبه :

ــ عذراء ؟!

فقال الإخشيدى مبتسما :

ــ كانت !

ولاذ بالصمت هنيهة ، وكان الوجه الشاحب لا يزال متوردا . واستدرك الإخشيدى :

ــ لا تحسبن عظماء الرجال بمعصومين ، والبك جاد فى إصلاح خطئه . فإذا شاطرته مقصده النبيل ، ظفرت برضاه ، وهيأت لنفسك مستقبلا حسنا . ومثل هذا العمل يتطلب قلبا كبيرا وعقلا واسعا ، وثقافة عميقة ، أما إذا تناولت الأمور بمعيار العوام فهذا فراق بينى وبينك ، ولا تتوهمن أنى أجرى وراءك ، فالذين يرضون بما يعرض عليك لا حصر لهم. بيد أنى أوثر أن تعمل معى أنت فى هذا المكتب لما أعهده فيك من الذكاء والإخلاص . ثم إننا جيرة من قديم ، ودرجة سادسة كنز ..!

إنه يدرك البواعث الخلفية التى جعلت الإخشيدى يرسل إليه ساعيه. إنه يروم خدمة مولاه واكتساب رضاه . ولعله إن لم يظفر بزوج طيب للفتاة التى اعتدى البك عليها اضطر أن يقدم نفسه كبشا للتضحية . هذا واضح ومفهوم . ولكن هناك حقائق أخرى أولى بها أن تذكر . هنالك وظيفة سكرتير ، وهنالك الدرجة السادسة ، أفيجوز أن يضحى بها ؟ ولماذا ؟..

أيشعر بما يدعونه غيرة على العرض ؟.. حاشاه . أيصدق فيما يسمونه الشرف ؟.. تبا له . لقد قال كلمته الأخيرة فى كل هذه الأشياء ، فينبغى أن يختار دون تردد . التردد معناه أنه لا يزال غير أهل لفلسفته الجسور تبا له . أينسى ليالى الجوع ؟ أينسى الفول المدمس ؟ أينسى التخبط فى شوارع القاهرة شحاذا متسولا ؟. على طه فى المكتبة ومأمون رضوان فى طريق باريس ويتردد ؟! حمديس بك لا يكلف نفسه مجالسته خمس دقائق ويتردد ؟!. وتحية ــ وهنا تميز غيظا ــ أغلقت باب السيارة فى وجهه ويتردد ؟!. ونتف حاجبه الأيسر ، ورفع عينيه إلى صاحبه وسأله :

ــ من هى ؟ أريد أن أعرف كل شىء ؟

فقال الإخشيدى :

ــ ستعرف كل شىء فى حينه ، ولن تكون من الآسفين .

فرفع محجوب حاجبيه استهانة وقال :

ــ ليكن . فمتى يكون التعيين ؟

ــ ٢٣ ــ

فتنهد سالم الإخشيدى بارتياح ، وقال وهو ينهض قائما :

ــ تعال أقدمك إلى البك .

وتبعه على الفور باذلا جهده لضبط عواطفه . ودخلا حجرة فاخرة ، رأى فى صدرها مكتبا كبيرا يجلس إليه البك . واقتربا من المكتب فى احترام حتى كادا يلمساه . ورأى الإخشيدى يتنازل مرة واحدة عن جلاله ، وينحنى على يد البك فى خشوع ، ففعل مثله ، ولما اعتدل فى وقفته ألقى على الجالس نظرة خاطفة . كان فى الأربعين ، معتدل القامة ، جميل المحيا ، أنيق الملبس والهندام ، صغير الشارب جميله ، يدل مظهره على أنه إمام من أئمة مدرسة الغزل . وقد قدمه الإخشيدى إليه ، وأثنى عليه ، فرحب به فى تحفظ مقصود ، وسأله :

ـــ هل أنت من متخرجى هذا العام ؟
فأجاب محجوب بالإيجاب ، فقال له البك :
ـــ أرجو أن تكون عند حسن ظن الأستاذ الإخشيدى بك .
ثم مد له يده إيذانا بانتهاء المقابلة ! وقد تعمد أن يجعلها مقابلة رسمية حتى لا يلعب الغرور برأس الشاب ، وعاد إلى حجرة الإخشيدى ، ورآه محجوب مختالا فخورا ، فامتلأ حنقا عليه ، ولكن حنقه لم يدم طويلا ، لأنه ـــ رغم كل شىء ـــ كان راضيا ، وسأل بأدب :
ـــ متى يتم التعيين ؟
ـــ هذا على هين . ستكتب اليوم مذكرة تعيينك ، فجهز مسوغات التعيين ، ويتم كل شىء إن شاء الله فى بحر أيام . أما الآن فدعنا ننجز الأمر الآخر ... (وسكت لحظات) تكرم بالحضور إلى بيتى عصر اليوم ...
فتساءل محجوب بدهشة :
ـــ لماذا ؟
فقال الآخر بهدوء :
ـــ لتعقد زواجك .
فقال محجوب بانزعاج :
ـــ أليس من الأفضل أن تؤجل هذا إلى ما بعد إتمام التعيين ؟
ـــ ولمه ؟
فقال الشاب مبتسما :
ـــ حتى أتريش ...
ـــ أستاذ محجوب خير البر عاجله ، سيدفع لك بمبلغ محترم تستعين به على الزواج حتى تقبض أول مرتب ، ولن يكلفك الزواج شيئا ، شقة العروس فى انتظارك ، وما عليك إلا تجديد ملابسك !
فاستولت الدهشة على الشاب الذى لم يكن يتصور أن كل شىء مهيأ

على هذا الوجه . كانت المصيدة مجهزة تنتظر فأرا . ووقع الفأر . ترى أبها عسل أم سم ؟

ـــ ألا تعطينى مهلة أسبوعا ؟

ـــ العقد اليوم ليطمئن قلب والدى الغروس ، أما الزفاف فبعد التعيين

فتنهد محجوب مستسلما ، وسأله :

ـــ وأين شقة ... العريس ...؟

ـــ شارع ناجى ، عمارة شليخر شقة رقم ٤

فقال الشاب بدهشة :

ـــ هذا حى افرنجى ، ايجاره مرتفع بغير شك !

ـــ لا تكترث لهذا ...

فتساءل الآخر بانزعاج :

ـــ كيف يمكن هذا !

ـــ أنت كثير الأسئلة ، قليل الصبر . اعلم يا أستاذ أن البك قد اكترى هذه الشقة لمدة عام !

فتبلبل فكر الشاب ، وسأل بمكر :

ـــ لو ترك لى الخيار لاخترت مسكنا مصريا .

وابتسم الإخشيدى ابتسامة دلت على احتقاره لمكر صاحبه ، وقال باستهانة :

ـــ المساكن الافرنجية ينعدم فيها التطفل ، فإذا رأى البك أن يزورك ، زارك فى أمن من المتطفلين :

وصوب بصره نحو المتكلم فوجده يتظاهر بالنظر فى بعض الأوراق وشعر مرة أخرى بالدم يتصاعد إلى رأسه ، وخفق قلبه بعنف ، وذكر ـــ لا يدرى كيف ـــ زميله أحمد بدير وحفلة السيدة اكرام نيروز ، وتخيل نفسه جالسا فى الحفلة ، وصاحبه الصحافى يومىء إليه خفية من بعيد ويحدث !. دائما الناس ، الناس دائما .. أيترك الناس يحطمون سعادته ؟

أيهما يفضل ؟ أن يكون من المجدودين وليقل أحمد بدير ما يشاء ، أم يكون من البائسين ولا يجد الصحافى ما يقوله عنه ؟... وقطب غاضبا ، ألا يزال مترددا ؟.. كيف نسى « طظ » العزيزة ؟ يا له من جبان حقير . واشتد غضبه . ثم نظر إلى صاحبه وقال بحدة :

ــ ليكن ..

فقال الإخشيدى :

ــ سأنتظرك عصر اليوم .

وفيما هو يغادر حجرة المدير وقع نظره على حجرة تقابلها كتب على لافتتها « السكرتير الخاص » فخفق فؤاده . ومضى إلى الخارج . وجعل يحدث نفسه : قرنان فى الرأس ، يراهما الجاهل عارا ، وأراهما حلية نفيسة . قرنان فى الرأس لا يؤذيان . أما الجوع ... سأكون أى شىء ، ولكن لن أكون أحمق أبدا . أحمق من يرفض وظيفة غضبا لما يسمونه كرامة . أحمق من يقتل نفسه فى سبيل ما يسمونه وطنا .. أحمق من يضيع على نفسه لذة لأى وهم من الأوهام التى ابتدعتها الإنسانية . كل هذا حق وجميل . بيد أنى منفعل هائج . لماذا ؟! ذلك أن العقل لا ينفرد بتوجيه سلوكنا . وبينما يحدث العقل حكمة ، يخلف الشعور حماقة . فعلى الحكمة أن تمحق الحماقة وليكن لى أسوة حسنة فى الإخشيدى ، ذلك الأريب . ظفر بوظيفته لأنه خائن ، ورقى لأنه قواد . فإلى الأمام .. إلى الأمام .

وكور قبضة يمناه ولوح بها ، وحث خطاه وقد انبعث من عينيه الجاحظتين نور خاطف ..

— ٢٤ —

وغادر حجرته عصرا بعد أن ارتدى بدلته بعناية وأخذ حظه من التأنق والزينة ! ومضى إلى طريق المنيرة إلى بيت الإخشيدى . لبث طوال يومه متفكرا . وكان يقطع تفكيره بالتعجب . ثم يقول لنفسه وكأنه لا يصدق « سأتزوج اليوم » . وكانت الورقة التى أثبت بها نقط الموضوع الخاص بحفلة جمعية الضريرات لا تزال على مكتبه ! فكيف قطعت الأمور هذا الشوط البعيد ؟! تفتحت أبواب الوظيفة وها هو ذاهب لأداء الثمن ، الزواج ؟!.. لا ينبغى أن يدع اسما يهوله ، فما هو إلا اسم !.. وكثير مما نحسبه حقائق أو قيما ما هى إلا أسماء . هو عادة اجتماعية . وفى بعض البلاد يتعدد الأزواج كما تتعدد الزوجات فى بلاد أخرى ، وقد يباح الزنا فى بلاد ، وكانت الاباحية قانونا فى بعض المجتمعات . فليس هناك قانون مطلق للزواج ، وليتحل بما أثر عنه من شجاعة وجسارة . هكذا مضى يحادث نفسه ثم ذكر فى طريقه والديه !.. وانقبض صدره على رغمه . وفرق . وتفصد جبينه عرقا . تمثلت له والدته التى تؤمن بأنه لا يخطىء أبدا . وتمثل له والده الريفى ، بطيبته وتقواه وغيرته . إنه يتزوج دون علمهما . ولا يدرى متى يعلمان ، ولكن هل يحتمل أن يعلما بالحقيقة ، لا فلسفته ولا أعصابه بمستطيعة أن تجعله يواجه مثل هذا التحدى !.. إن ذكرى والديه شبح مخيف فليطرده عن مخيلته . ما أحوجه الآن إلى صفاء الذهن وحضور البديهة ورباطة الجأش . أليست عروسه فى انتظاره ؟!.. يا لها من حقيقة بالخيال أشبه . ترى من عروسه ؟... ما صورتها ؟ ما أسرتها ؟ ما أخلاقها وأحوالها ؟! قلبه يحدثه بأنها جميلة وإلا ما جذبت شخصا كقاسم بك . ولكن لا شك كذلك فى أنها فقيرة

كما يدل اختياره زوجا لها ، والفتاة الغنية لا يعوقها عن الزواج عائق . والشرف قيد لا يغل إلا أعناق الفقراء . ترى ماذا تخبىء له هذه الحياة الزوجية ؟ كيف يكون شعوره نحو زوجه غدا ؟ وكيف يكون شعورها نحوه ؟ وما هى حقيقة الرابطة التى ستربطهما معا ؟! وكيف يستقبل البك إذا جاء لزيارته !. يا لها من حياة ، ويا لها من تجربة . غدا تمتحن فلسفته وقوته . إنه يسير نحو هدفه لا يلوى على شىء . ولا يستطيع عقله الآن أن يجد حلا لجميع المشكلات التى ينطوى عليها الغد . ولكنه إذا واجهها فسيعرف كيف يقهرها ، وينتصر عليها كما انتصر على كل عقبة فى ماضيه . وداخله شعور بالثقة والزهو والخيلاء ، فسار بقدمين ثابتتين وانتهى إلى بيت الإخشيدى ، وفتح له الرجل بنفسه ، ثم مضى به إلى حجرة نومه وسأله :

ــ أأنت مستعد ؟

فقال محجوب وهو يبتسم ليستبقى ثقته بنفسه :

ــ كما ترى يا بك .

ونظر إلى الإخشيدى فلم ير ما اضطره قديما إلى إجلاله ، وشعر فى أعماقه برغبة فى تحديه والاستهانة به . قال الرجل :

ــ سيأتى المأذون عما قليل ...

فابتسم محجوب وقال بغرابة :

ــ المأذون !

فقال الإخشيدى مبتسما أيضا :

ــ ستدخل دنيا يا عم . والآن دعنى أقدمك إلى العروس ووالديها .

وتبع الإخشيدى خافق الفؤاد ، تلوح فى عينيه نظرة تطلع وما يشبه الخجل والتردد ، وكان لا يكف عن دعاء جراءته وقحته ، ويرسل ناظريه

لرؤية حياته ومستقبله .. وسبقه الإخشيدى إلى الدخول وهو يقول :
ــ هاكم عضوا جديدا فى أسرتكم المحترمة ...
ودخل وراءه ، فوقعت عيناه على وجه غريب ، رأى إحسان شحاته ، إحسان شحاته تركى دون غيرها ، والتفت عيناهما ..

ــ ٢٥ ــ

كانت إحسان شحاته دون غيرها . ولكن غير الفتاة الطاهرة التى أحبها على طه فتعاهدا على الحب والزواج . حدث تاريخ جديد ، بدأ بنظرة عين ثم أعقبتها أمور . حدث ذلك وهى عائدة عصرا من المدرسة ، عند رأس شارع رشاد باشا فيما يلى شارع الجيزة ، أمام القصر المعروف بالفيلا الخضراء . ولكم مرت بهذه الفيلا ذهابا و إيابا منذ أعوام ، ولكن فى ذلك اليوم وقعت عليها عينان جميلتان خبيرتان ، مغرمتان بكل حسن صبيح وشعرت الفتاة بالنظرة الثاقبة فلم يخل وقعها من أثر . رأت رجلا جليل الشأن ، إن لم يكن باشا فهو بك ، أنيق المنظر ، جميل المحيا ، ذا شارب صغير فاتن ، يكتنفه جلال وجمال على دقة جسمه وميله إلى القصر نوعا . ولعل ذلك وحده ما جعلها تلتفت إلى الوراء بعد أن ابتعدت أذرعا ، فوجدته مصوبا نحوها عينين أحست ــ فى حياء ــ نفاذهما وحرارتهما !. كانت الفيلا ملكا لمدير شركة ايطالى ، باعها إلى هذا البك منذ أشهر ، وقيل يومئذ إنه موظف خطير ، ونوه البعض باسمة ، ولكنها نسيت ذلك جميعه . وما بلغت دارها الباهتة حتى كادت تنسى البك ونظرته . فى عصر اليوم الثانى ــ وعند عودتها من المدرسة أيضا ــ رأته بموقف الأمس . التهمتها العينان الجميلتان وهى مقبلة نحوه، وتبعاها بعد أن جازته. وتساءلت

ترى هل وجد ذلك الوقت ــ مصادفة كالأمس أم أنه انتظر اليوم على عمد ؟!. وسارت دون أن تلتفت وراءها ، وإن ظل ذهنها متفكرا . وعند منتصف الطريق شعرت بدنو سيارة من الطوار الذى تمشى عليه ، فعطفت رأسها إلى يسارها فرأت سيارة تكاد توازيها ، سيارة رائعة كأنها فيلا متحركة ، ولمحت وراء نافذتها عينى البك ترسلان إليها بنظرة غريبة ، فيها ابتسام مستتر ، واعجاب ظاهر ، وفجر فاضح . وبطؤت حركة السيارة حتى سارت تسايرها ، فتولاها الحياء والارتباك ، وحثت خطاها ، وابتعدت داخل الطوار . ولما اقتربت من دار الطلبة اندفعت السيارة مسرعة ودارت إلى طريق الجامعة ، واختفت عن الأنظار . قطع الشك ، فهذا غزل . وخالط فؤادها شعور بالسرور والخيلاء ، وغلبتها خفة ودلال ورثتهما عن أمها فترنمت بصوت خفيض بأغنية : « التاكسى على الباب مستنينى » ثم قالت لنفسها : « ليس تاكسى ، ولكنها سيارة ولا سيارات عابدين ! » . بيد أنه كان شعورا بريئا أحدثه زهو الصبا . أما الرجل العظيم الجميل فلم يمسك ، بل تمادى فى غزله يوما بعد يوم . فلم تر بدا من الاستياء والتجهم له وقالت له عيناها : « هذا سلوك لا يليق » . ولكنه لم يأبه لانذارها . ويوما رأت إلى جانبه فى السيارة شخصا جديدا مثلث الوجه مستدير العينين ، ثم استمرت المطاردة وعنفت ، حتى باتت الفتاة فى حيرة . كانت تحب على طه فرأت أن من المنطق أن تنتهى هذه المطاردة الملحة . ومن ناحية أخرى لم يترك البك الجميل فى نفسها أثرا سيئا ، وعلى العكس من ذلك أبهج نفسها ولوعه ونظرة عينيه الجذابتين . وقالت لنفسها متألمة : إنه على كهولته أجمل من على وأروع منظرا ، ولولا أن قلبى قال كلمته لما دريت كيف أصده عن صاحب السيارة العظيم !. وجعلت تتساءل مغيظة : هل ارعوى ؟. متى يغيب عن ناظرى ؟ متى يبعد عن سبيلى ؟!. ولكن هل كانت صادقة فى تساؤلها ؟ أو لأى درجة كانت

صادقة ؟. فلم تجد لذلك جوابا صريحا . باتت فى حيرة من أمر نفسها . وراحت تقول لنفسها كالمعتذرة .. إن كانت تسر لمطاردته .. فما ذلك إلا إرضاء لغرورها الأنثوى وتأثرا بمقامه الكبير . وما تدرى يوما إلا وأبوها يقول لها بلهجة ذات معنى — وكانت راجعة من المدرسة — « ألم تثوبى إلى رشدك بعد ؟! » . واضطرب فؤادها ، وتوردت وجنتاها . هل يعلم الرجل بما يحدث فى شارع رشاد باشا ؟!، رباه ، أدائما هو بالمرصاد لها ؟! ونظرت إليه نظرة المتسائلة المتجاهلة ، فقال وكانت أمها لحقت به : « رجل لا يقل مقاما عن وزير وأعظم جاها وثروة ، ألا ترين سيارته ؟، ألا ترين قصره ؟. فماذا تريدين ؟! » ، فسألته الفتاة بحدة : « ماذا يريد هو ؟ » فقال المعلم شحاته تركى بصوت غليظ أخافها على غير عادته : « يريد بك خيرا ، ويريد بنا خيرا ، يريد الله أن يرفعك إلى طبقة السادة وأن يزقق إخوتك الجياع .. كلمنى مدير مكتبه الذى أعرفه منذ عهد تلمذته . سيتزوج منك . نعم . لم لا ؟. أنت جميلة ، وأنا رجل من صلب كريم . لعن الله الزمن . فحتام تلوى بوزك ؟. افتحى عينيك . أبوك يستغيث بك . وأمك تستغيث بك . وإخوتك يستصرخونك ! » . واستفاض الحديث . واشتركت فيه أمها . فى تلك الليلة لم يغمض لها جفن حتى مطلع الفجر . قضت الليلة تتقلبّ على جنبيها وتفكر . وعند عصر اليوم الثانى — فى الموعد المعهود ، اقتربت السيارة منها وفتح الباب . وترددت قليلا ثم صعدت إليها ..

كيف وقع هذا ؟!. ألم تكن تحب على طه ؟ بلى كانت . ولكنه ليس الحب الذى يعمى ويصم . ليس الحب الذى يصمد للتجارب الشديدة والمغريات العنيفة . كانت تحب الجاه كذلك وتكره الفقر . كانت تئن تحت حمل أسرتها الثقيل . كانت الفيلا منظرا بديعا ، والسيارة كنزا نفيسا ، والبك إلـها من آلهة الذهب والسلطان . لقد قاومت أول مرة

الشاب الحقوقى لأنها كانت أول مرة . ثم راح والداها لا يسكتان عن الالحاح ، وقد جعلاها منذ التجربة الأولى فى حل من كل استهتار ، بل جعلا عصمتها بيدها ، ولولا علي لهوت وانتهت من زمن بعيد . بيد أنها لم ترد فيما بينها وبين نفسها ـــ أن تعترف بضعفها . تجاذبتها فى ليلتها المسهدة عهود كثيرة وعواطف متباينة . ترددت بين البك وعلى طه . بين زوج اليوم وزوج الغد البعيد ، بين الراحة والتعب ، بين حياة الدعة والاطمئنان وحياة الكد والكفاح ، بين عيش رغيد لها ولأسرتها وحياة جلها مغالبة لفقر لا يغلب وضنك لا يزول . ثم اختارت دامعة العينين ، خافقة الفؤاد . وأوهمت نفسها أنها تضحى بسعادتها فى سبيل الآخرين ، وأن الليل استقبلها فتاة معذبة ، وطلع عليها شهيدة من الشهداء . قالت لنفسها : « إنى أحب على ، ولكنى أحب إخوتى كذلك . ولا يجوز أن يذهب إخوتى ضحية لأنانيتى . لذلك ـــ لا لشىء آخر ـــ ينبغى أن أذعن لأبى . أنا لا أحب البك ، ولا أحب الجاه ، والله يعلم بذلك ! » . وهكذا صعدت إلى السيارة التى ظلت تطاردها بعناد واصرار . كانت السيارة سحرا ، وكان صاحبها ساحرا كذلك . كان على طه عاشقا وناقدا فى آن واحد ، يحب ولكنه ينقد ويعلم ويرشد أيضا ، أما البك فرجل فاتن ، منظره جميل ، وكلامه لذيذ، ودعاباته جنون وفتون ، كانت عيناه بأعين المنومين أشبه ، وكان إذا نظر فى عينيها الجميلتين وعاطاها الحديث شعرت بتخدير عام واستسلام حالم . وجزى الله صبر المعلم شحاته تركى خيرا ، فجاءته يوما سيارة شيكوريل وأفرغت حمولتها من الثياب الفاخرة !. وحركت أم إحسان رأسها على طريقة العوالم وغنت : « حود من هنا وتعال عندنا » ، ولاح السرور فى عينى إحسان وهى تقلبهما فى ألوان الحرير لتختار ما يروقها ، وهكذا بدأ تاريخ جديد . ثم كانت نزهة الهرم بعد ذلك بأسابيع . انطلقت السيارة بالبك الجليل ، إلى يمينه

فلقة قمر تبعث الجنون ، والحق أن إحسان بعد أن تريشت وأخذت زينتها وصار شيكوريل ومدام جريكور الخياطة فى خدمتها أصبحت . على حد قول البك ، جنونا رسميا . فى ذلك اليوم بيت أمر . تعطلت السيارة فى الطريق فتركها الراكبان . وقال البك إن له فيلا على مقربة من المكان واقترح أن يستريحا فيها حتى يتم اصلاح السيارة . ومضيا إلى فيلا جميلة تحيط بها حديقة غناء . ثم قال البك إنها وقد شرفت بيته الخلوى فينبغى أن يحتفل بزيارتها الميمونة . وأمر خادما فهيئت لها مائدة من التفاح والشمبانيا . وقشر لها تفاحة وقدم لها كأسا من الشمبانيا وهويقول لها إنها شراب غير مسكر ولذيذ . كان الوقت أصيلا والحياة فى أطيب أحوالها . كانت النافذة تشرف على خضرة يانعة يتيه فيها البصر ، والسماء موردة الوجنات بحمرة الشفق ، والحدأة تولى مودعة ضاربة بجناحيها ، ووسائد الكرسى الكبير تتلقاها وكأنها تضمها بحنو ، وقدماها منغرستين فى سجادة وثيرة . وبعثت الشمبانيا الدفء فى العقل ، والعقل إذا أحس دفئا تهيأت له قوة سحرية يحول بها عالم المحسوس إلى عالم أطياف روحية ، خال من الخوف والهم والأحزان . وتصاعد همس محبوب أشهى من نفثات الأمانى ونقرت على معصمها أصابع مسحورة ، تدغدغ حواسها وتحمل دمها رسائل الاستفزاز ، ونفذت أنفاس حارة مترددة كشكات الابر من جيب فستانها إلى ثغرة صدرها وما بين ثدييها . وجعلت تدافع بساعدين مخذولتين ، حتى يئست ، فضمت بهما .

* * *

ونطقت عيناها بالفزع والارتباك والحياء ، فقال لها البك بلهجة مطمئنة :

ــ لا تحسبى أنى غدرت بك . إن مستقبلك أمانة بين يدى والله على ما أقول شهيد ...

التقت عيناهما — محجوب وإحسان — فى صمت وذهول . وذكر كلاهما صاحبه فتولته الدهشة ولانزعاج واضطراب أيما اضطراب ، ذكرها محجوب فكاد يفقد رشاده . وذكرته إحسان فتولاها الذهول ، وذكرت على طه ، ودار الطلبة ، والماضى الذى تود أن تفر منه فرارا . ونظر محجوب فيما حوله فرأى عم شحاته تركى فى معطف جديد ، وسيدة بدينة أدرك أنها زوجه . وفطن الإخشيدى إلى ارتباك الجماعة ، فقال مبتسما :

— لعلكم لا تحتاجون إلى تعارف ..

فقال عم شحاته :

— محجوب افندى جارنا منذ أربع سنوات ..

ولم يكن الإخشيدى يجهل هذا — وهو ما جعله يحرص على ألا يعرف أحد الطرفين بالآخر قبل مفاجأة اللقاء — قال :

— مصادفة جميلة ، والناس تقول : « اللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش » سلم واجلس يا أستاذ محجوب .

وأفاق الشاب من ذهوله ، فاقترب من آله الجدد وسلم عليهم واحدا واحدا ، ومدت له إحسان يدها ، خافضة العينين ، بوجه كالجمان . كانت تريد أن تسدل على الماضى ستارا كثيفا ، وأن تفر منه إلى الأبد ، فرمى بها الحظ بين يدى واحد من صميم ذاك الماضى ، وكأنه — الحظ — لم يشبع بها تنكيلا ! وأراد الإخشيدى أن يعالج توتر الجو بالحديث ، ولكن محجوب لم يلق إليه بالا . وكيف له بأن يغفل ثانية عن العجيبة الماثلة أمامه ؟!. هذه إحسان شحاته بلحمها ودمها !. أهذا

سر.مأساة على طه ؟!. يا عجبا ، كيف غوت ؟! كيف استولى البك عليها ؟! كانت ثقة على بها عمياء !.. أهكذا تقع إحسان ؟!.. أما هو فلا يعرف الثقة العمياء أبدا ، ومع ذلك فلم يذهب به سوء الظن يوما إلى التنبؤ بما وقع !.. انتهت إحسان التى أحبها على طه ، وانتهى ذاك الحب القديم ، وها هى إحسان أخرى جديدة تمد إليه يدا ليرتبطا بميثاق الزواج ... إحسان التى طالما تمناها معذبا محسورا !. أفليست الحقيقة أغرب من الخيال ؟ وتنبه إلى صوت الإخشيدى يقول له معاتبا :

ــ أما تستفيق ؟

فنظر إليه بعينين ذاهلتين وتمتم قائلا :

ــ إنى أعجب لهذه المصادفة .

فسأله الإخشيدى مبتسما :

ــ كيف ترى هذه المصادفة ؟

فقال محجوب بلا تردد :

ــ مصادفة سعيدة بلا جدال !

وجعل الإخشيدى يتكلم عن المصادفة متفلسفا ، وقالت أم إحسان كلمة أو كلمتين ، وظن عم شحاته أنه أحاط بالموضوع حين قال : إن المصادفة من صنع الله وبأمره سبحانه . ولكن بالرغم من هذا كله ظل العروسان غارقين فى أفكارهما ، وغلب الوجوم والارتباك على جو الجلسة . ثم رن الجرس ، فنهض الإخشيدى ظافرا بالخلاص من التوتر الشائع حوله ، ومضى إلى الخارج وهو يقول :

ــ لعله المأذون يا سادة ..

وخفقت القلوب جميعا ، ثم دخل الحجرة شيخ يتبعه الإخشيدى ، وسلم على الحاضرين ، ثم دعا الله أن يجعل محضره مباركا . وجلس الشيخ إلى نضد ، شمر عن ساعديه ، وأخذ فى عمله البسيط الخطير .

وجرت يده المغطاة بالشعر الغزير على القرطاس ، وتابعه عم شحاته والإخشيدى ، أما محجوب فقطب قليلا وأحد بصره ليركز انتباهه ويطرد أفكاره ، وخفضت إحسان عينيها الساجيتين وقد امتقع لونها . وجاءت الدقيقة الفاصلة ، فالتفت المأذون إلى محجوب عبد الدائم وقال له : « كرر ما أقوله : الآن قبلت زواج الست إحسان كريمة السيد شحاته تركى ، البكر البالغ الرشيد الخ .. » وكرر محجوب قوله بنبرات هادئة ، وصوت واضح ، لم يعتوره اضطراب حتى نطقه كلمة « البكر » بيد أنها وقعت من مسمعه موقعا غريبا أثار سخريته الكامنة ، وحقده الراسخ . وذكر إجابة الإخشيدى حين سأله عن العروس : عذراء ؟! فأجاب الفاجر باستهانة : كانت ؟!.. أجل كانت ، فلماذا لا يكتب المأذون : التى كانت البكر ؟!. تزوير فى أوراق رسمية !.. زواجه تزوير ، حياته تزوير ، الدنيا كلها تزوير ..

ومضى المأذون يلقى الخطبة : الحمد لله الذى أحل النكاح وحرم السفاح . واستمر فى محفوظاته واستمر محجوب فى تأملاته . وقال لنفسه : ولكن البك حرم النكاح وأحل السفاح !، وجاراه هو على اعتقاده فوقع علي عقد نكاح فى الواقع هو عقد سفاح ! وصارا زوجين أمام الله والناس !.. واسترق الشاب إلى عروسه نظرة فرأى عينيها محمرتين تنذران بالدموع ، فقال لنفسه ساخرا : أول الغيث قطر . وتبودلت التهانى ، ودارت أكواب الشربات . كان زواجا غريبا ، شعر كل من شارك فيه بأنه يؤدى واجبا ثقيلا يود الفراغ منه فى أقصر وقت : ارتاح الوالدان دون أن يستخفهما فرح أو سرور ، وغرق العروسان فى وجوم وتفكر ، وغلبهما شعور بالقلق والخجل . قد عجبت إحسان فى أول الأمر ، حين علمت أنه يراد تزويجها ، وتساءلت حيرى : أين الذى يرضى بعروس مثلها ؟ ثم ذكرت والدها المحترم فلم تستبعد شيئا ؟ والدها الذى تعامى عن

سقوطها ، والذى وصاها بعشيقها ولم يوصها بزوجها : فلماذا لا يوجد أناس على شاكلته ؟ وقد وجد بالفعل واحد ، وها هو يجلس إلى جانبها كزوجها ، وإنها لتذكره ، وتذكر كيف صدت هواه حين كانت تملك الصد عن هواه . وخالطها شعور نحوه بالاحتقار ، ولكنها لم تتماد فيه ، وقالت لنفسها ممتعضة : ألست مثله أو أضل سبيلا ؟! كلانا باع نفسه للجاه والمال .

أجل ، صارا زوجين ..

ـ ٢٧ ـ

وقعت التجربة إذا وتلقتها فلسفته بساعدين شديدتين ، إلا أن نفسه لم تخل من قلق . بيد أن هذا القلق لم يقعده عن العمل بل على العكس جعله أشد رغبة فيه ، فلم ينس غرضه لحظة واحدة ، ولم يضع ثانية بلا نشاط ، وكأنما وجد فى العمل ملهاة عن وساوسه . راح يعد مسوغات تعيينه ، وكانت أعجبها شأنا شهادة بأنه « حسن السير والسلوك » ، ووقع عليها الإخشيدى وزميل له مما جعل محجوب يقول ساخرا : « من يشهد للعروس ؟؟ » .

وتسلم عشرين جنيها ليستعين بها على اصلاح شأنه فأخذ الأوراق ذاهلا لأنه لم يكن رأى شيئا كهذا من قبل . وجعل يعبث بها باهتمام ، ويتفرس فيها بغرابة وانكار . هذا ثمن القرنين اللذين يحلى بهما رأسه ، كل قرن بعشرة جنيهات ! ورأى على احدى الورقات صورة الفلاح ، فجرت على فمه ابتسامة خفيفة ، وذكر أباه طريح الفراش ، المهدد بالجوع ، وتساءل لماذا لم يصوروا أحد الباشوات ؟.. أو العلم التركى ؟!. وقال لنفسه ساخرا : إن هذه الصورة شبيهة بامضائه على عقد الزواج .

ومضى بجيبه المنتفخ إلى الخياط وابتاع قماشا لبدلتين ، فأدرك الرجل أن الطالب صار موظفا، ولم يكن فصل له سوى بدلة واحدة فى مدى أربع سنوات الدراسة . ثم ذهب إلى الموسكى ، واشترى بيجامتين ، وقمصانا ، وفانلات وجوارب . وحذاء وطربوشا ، كما ينبغى لعروس ! وحزم ثيابه الجديدة فى حقيبة كبيرة وقد تورد وجهه سرورا وحياة . وألقى على حجرته الصغيرة نظرة شامته ، وذكر ليالى فبراير البشعة ، ودكان الفول بميدان الجيزة ، تبا لهاتيك الأيام السود ؟. لن تعود أبدا مهما كان الثمن !.. ينبغى أن يتورد هذا الاهاب الشاحب ، وأن يمتلىء ما بين هذا الجلد وهذا العظم ، وأن يصفو هذا الذكاء الجبار ، وأن يهلك شبح الجوع المقيت . إن النعامة لكى تعيش جعلت رقبتها كالثعبان طولا ، والأسد لكى يعيش جعل قبضته كالقنبلة فتكا ، والحرباء لكى تعيش اصطنعت كل لون . وهذا ما فعله هو على اختلاف الوسائل ! أجل ، وليكن طموحه لا نهائيا ، وطمعه لا حد له ، فقد غرم ثمنا باهظا ويجب أن يكون الجزاء كالعمل . وتفكر مليا ، ثم وصى نفسه قائلا : الحذر ؟ ليفعل ما يشاء ، ولكن لا يجوز أن يقول إلا ما يشاء الناس . وقد فطن إلى هذه الحقيقة منذ البدء ، فإذا امتدح الفضيلة بكلمة أو كلمتين لم يعدم من يسبغ عليه لقب الفاضل ، أما إذا صارحها العداء فسينقلب عليه الناس جميعا وعلى رأسهم الملوثون . وليكن له أسوة فى الإخشيدى الذى يرى فى كل حفلة خيرية !.. بل لماذا لا يفكر جديا فى الاشتراك فى بعض الجمعيات الخيرية ؟!. ثم ذكر زواجه ! وعاد يتساءل كيف هان على طه على إحسان ؟ كيف زلت قدمها ؟! وما عسى أن يفعل على إذا علم غدا أن إحسان صارت زوجة ؟ سيسقط فى يده ، ويتشتت ذهنه حيرة ، ولايصدق أنه ــ محجوب ــ كان سبب شقائه ، فإذا لم يجد بدا من التسليم بهذه الحقيقة الغريبة اتهمه حاقدا ثائرا بكل خسة ودناءة وغدر ذميم .

ليكن . فليتهمه كيف شاء ، وليحقد عليه ما وسعه الحقد . بيد أنه ذكر دينه الذى لم يقضه ، الخمسين قرشا ، فصدق عزمه على ردها إليه فى يومه ، وكره أن يواجهه بنفسه لشعوره بذنبه ، فأرسلها بالبريد . وارتاح لذلك أيما ارتياح ، وشعر بأنه قطع آخر خيط يربطه بعلى طه ، وأنه لا يجوز له بعد الآن أن يعبأ بما يتوهمه الآخر أو بما يحسه أو بما قد يفعله . ودعا البواب وكلفه ببيع أثاث حجرته ، ووعده بالتنازل عن ثلث ثمنه نظير أن يحتفظ له بما قد يصله من خطابات باسمه ، وكان يفكر وقت ذاك فى والديه . ولعلها كانت أول مرة يذكرهما بلا سخط أو تذمر أو غضب ، وقد بات فى نيته أن يرسل لوالده جنيهين كل شهر ، بل يزيدهما إلى ثلاثة إن أمكن .

أما غدا ، فصباحا يذهب إلى الوزارة ، ومساء يأخذ عروسه إلى عشها الجديد .

— ٢٨ —

واستيقظ مبكرا ، ومضى إلى الوزارة ، وانتظر الإخشيدى فى حجرته ، وجاء المدير عند تمام التاسعة ، فتصافحا بمودة ظاهرة ، وشربا القهوة معا ، وقال له الإخشيدى وهو يهيىء مكتبه :

ـــ لا شيء يصدق ! أتعلم أن أكثرية طلبات الإعفاء من المصروفات مقدمة من ذوى اليسار ؟

ولم يكن محجوب ـــ فى ذلك الوقت على الأقل ـــ ليهتم بأمثال هذه الأمور ، ولكنه لم ير بدا من التظاهر بالدهشة ، وقال :

ـــ شيء لا يصدق حقا !.. وكيف يسوغون التماساتهم ؟

وقال الإخشيدى :

ــ لا حاجة ماسة إلى التسويغ ، حسب أحدهم أن يقهقه ضاحكا ، وأن يقول لقاسم بك : « ألا يكفينا هبوط أسعار القطن ؟ » ثم مزاح فمداعبة فموافقة !

ثم جعل كعادته يتهكم من أحوال البلد وتصرفات كبار الموظفين وصغارهم ، فلم يسلم من لسانه سوى قاسم بك ، ولعل ذلك إلى حين .. والتفت إلى محجوب قائلا :

ــ لا تنس أن عملك يحتاج إلى لباقة وحسن تصريف للأمور . (ثم غلبه طبعه في التهوين من شأن الغير وأعمالهم فقال) .. هو سهل فى ذاته ، بل هو لعب . لا يحتاج بطبيعة الحال إلى فلسفة أو علم . ولكن إلى لباقة ..

فقال محجوب باهتمام :

ــ أرجو أن أنتفع بارشادك ..

ــ يسرنى أن أجد مساعدا مخلصا لى ، ولذلك احتفظت لك بهذه الوظيفة على كثرة المتقاتلين عليها ، ولذلك أيضا ينبغى أن نكون يدا واحدة لأن أعداءنا كثيرون . لا يغرنك ما تلقى من بشاشة . فالعادة أن الموظفين يقبلون على صاحب السلطان ما أقبلت الدنيا عليه ، فإذا أفل نجمه فأكرمهم من يدبر عنه دون أن ينشب فيه أظفاره : فلنكن يدا واحدة .

وتحدث الإخشيدى طويلا على غير عادته. وفكر محجوب طويلا فيما يدعو إليه الآخر من أن يكونا يدا واحدة ، فقال مخاطبا صاحبه فى سره : وقعت فى شر منك ، وساقك الحظ إلى مساعد من طينتك ، يفهم الاخلاص كما تفهمه ، ولكل شىء آفة من جنسه ، وليست منزلتى عند البك دون منزلتك ، فإذا كنت مهرجه أو قواده فأنا زوج عشيقته .

وجاء الساعى الضخم وأعلن حضور قاسم بك ، فنهض الإخشيدى

واصطحب محجوب إلى حجرته ، وصافحهما البك بسرور ، وهنأ الشاب على تسلمه العمل ، وقال له برقة :

ـــ أرجو لك التوفيق ، والمستقبل الباهر ..

ومضى الإخشيدى يعرض عليه بعض الأوراق ، أما محجوب فوقف انتباهه عند « المستقبل الباهر » . يقولون : « يا بخت من كان النقيب خاله » والنقيب أقرب إليه من خاله ! واختلس من البك نظرات ، ليملأ عينيه من الرجل الذى صاد إحسان ، وأفقدها رشدها . نظر إليه بغرابة كأنما ينقب عن سره السحرى ، أيوجد فى محاسنه ؟ أم جاهه ؟ أم فى مكان اكتشفته إحسان لحسن حظها أم لسوء حظها ! أعجب بهؤلاء الرجال ذوى السلطان إنهم يأتون الكبائر باستهانة ، ويتجاهلون ما يسميه السذج ورطة أو مشكلة ، ويخلقون الحل اليسير للأمر فى غمضة عين ، وكان هو الحل اليسير !.. كيف غوت إحسان ؟ سيظل متحيرا حتى يعرف الحقيقة . ليس على طه دون البك جمالا ، وهو يفوقه بشبابه . فكيف غوت ؟.. ولو كانت تزوجته لقال آثرته لماله ، ولكنها .. رباه .. تبا لهؤلاء الرجال الأقوياء ، إنهم لا يعرفون المستحيل . أم تكون إحسان خدعة كبرى جازت على المصلح الاجتماعى الأحمق ، وما هى إلا .. لابد أن يعرف الحقيقة .

وغادرا حجرة البك ، وسار به الإخشيدى إلى حجرة « السكرتير الخاص » وقد قام ببابها ساع طاعن فى السن ، وكانت حجرة مستطيلة اصطفت على جانبيها المقاعد الجلدية وتصدرها مكتب كبير . قال الإخشيدى :

ـــ أستودعك الله ، سأبلغ المستخدمين أنك تسلمت عملك اليوم .

وكان الإخشيدى يقول لنفسه : أما كان الأحكم أن يلحق الشاب بوظيفة بعيدة عن المكتب ؟ فليس مما يرتاح إليه أن يوجد فى نفس

المكتب شخص له هذه العلاقة الوثيقة بالبك ! ولكن ماذا كان بيده أن يفعل ؟ كانت الحالة حرجة ، والبك مضطربا خائفا ، والوظيفة خالية ، ولو لم يعثر على محجوب لربما كان هو الزوج ! ولعل الأيام تثبت أن الشاب أهل لصنيعه !

وترك محجوب وحده فى الحجرة ، استخفه سرور عجيب كاد يرقص له . وجلس على الكرسى المتحرك ضاحك الثغر ، ووضع يده على سماعة التليفون ، ولم يكن استعمل التليفون قط ! وجعل يحرك الكرسى ذات اليمين وذات الشمال . موظف خطير بغير شك . وغدا يمتلىء بطنه باللحوم والفواكه . تبا للفلاسفة الذين يقولون : إن السعادة فى البساطة ، أليست أمراض البطنة بخير من عذاب الجوع ؟

واليوم والغد ، أما الماضى فسحقا له ..

* * *

ولبث ساعة وحيدا حتى ضاق بوحدته ، ورغب أن يفعل شيئا أيا كان . فضغط على زر الجرس ، وفتح الباب وجاء الساعى العجوز وقال بأدب : « أفندم يا سعادة البك » . وتورد وجهه ! ووقعت الرتبة الجديدة من أذنيه موقعا موسيقيا مطربا ، وإن تظاهر بعدم المبالاة ، ثم قال باقتضاب : « قهوة » وما كاد الباب يغلق مرة أخرى حتى رن جرس التليفون ، فرنت أوتار قلبه ، ورفع السماعة بقلق ووضعها على أذنه ، ثم قال بصوت هياب :

ـــ أفندم .

ـــ سكرتير قاسم بك فهمى ؟

ـــ نعم يا فندم .

ـــ البك موجود ؟

ـــ نعم يا فندم .

ــ دعنى أكلمه ... قل له محمد رشاد .

وظن أنه ينبغى أن يذهب إلى حجرة البك ليخبره ، فأعاد السماعة إلى موضعها الأول ــ فأقفل السكة وهو لا يدرى ــ ومضى إلى حجرة البك وقال باحترام :

ــ محمد رشاد .. بك ، يريد أن يكلم سعادتك .

ــ خله يدخل ..

ــ إنه يتكلم فى التليفون .

فسأله البك بدهشة :

ــ ولماذا لم تحول السكة إلى .. ؟

فلم يحر جوابا ولاح فى وجهه الارتباك على غير عادته ، فضحك البك وقال :

ــ حول السكة على ، استعمل الموصل فى مثل هذه الأحوال .

وغادر الحجرة مرتبكا ، وقد أدرك أنه أخطأ . كيف تحول السكة ؟. وأى شىء هذا الموصل ؟ وعاد إلى مكتبه ورفع السماعة إلى أذنه فسمع نقيقا متصلا فقال :

ــ يا سعادة البك ...

فلم يجبه أحد مع معاودة الدعاء ، ولم يسمع إلا النقيق المستمر ، فاشتد ارتباكه ، وخاف أن يكون قد ارتكب خطأ جديدا ، ولبث ممتعضا . ما كان يعلم أن للتليفون ثقافة خاصة ينبغى أن يعلمها ، ودعا الساعى على مضض ليلقنه سر التليفون . ودون بعض الملاحظات على ورقة كى لا ينسى ما يجب ذكره فى المستقبل . ثم دبت الحياة فى الحجرة فتوارد عليها أناس مختلفون من طبقات متباينة يستأذنون فى مقابلة قاسم بك فهمى ، فاستقبلهم دون ارتباك ، وعاونته جسارته الطبيعية على تمالك أعصابه ، والظهور بمظهر الرزانة والثبات . واستقبل أحد الباشوات المعروفين ، الذين لم يكن يراهم إلا من بعيد ، فسلم عليه ، واستأذن له ، ودعاه إلى مقابلة البك . وعلى رغم تظاهره بالهدوء كان يكتم بعنف انفعال

السرور والفرح . ومضى نهار العمل فى حركة دائبة ونشاط متصل وسرور لا مزيد عليه . وبهذا النشاط غير المنقطع نسى أفكاره ووساوسه ، فارتاح باطنه وهو لا يدرى ، وغادر الوزارة معافى كأنما ينهض من نوم عميق .

وكان غير الفتى الذى جاء الصبح ساعيا ، فقد عرف بكوات وباشوات ، وثقف فن التليفون . ودعى « محجوب بك » عشرات المرات ، فكان أعظم ثقة وخيلاء ، بل أوشكت أن تتغير مشيته ونظرة عينيه . وذكر — فى نشوة المجد المباغت — قريبه أحمد بك حمديس ، فود لو يأتى يوما لمقابلة قاسم بك ليجىء حجرته مستأذنا ، فأى دهشة تتولاه ! وكيف يتصافحان تصافح الأنداد ثم يقص ما رأى على أسرته فتسمع تحية ، وتعلم أنها أغلقت باب سيارتها دون فتى ذى نباهة ومجد !.. ولكم يود أن تراه تحية مع زوجه الحسناء ! فزوجه تفوقها حسنا وفتنة ، وإنه ليود أن يتفرس فى وجهها وهى تنظر شزرا إلى زوجته وقد أدركت مدى حسنها الفتان !

صبرا صبرا ، إن الحياة بدأت تبتسم ...

— ٢٩ —

وفى ذلك اليوم نفسه ذهب محجوب عبد الدائم إلى الإخشيدى — كوعد سابق — ومضى به الرجل إلى الشقة ليسلمها له ، وحمل محجوب معه حقيبة ثيابه وكتبه القلائل وأعطاه الإخشيذى مفتاح الشقة وهو يقول :

— الشقة وما تحتوى — لكما — إلا صوانا صغيرا فى حجرة النوم .

أدرك محجوب أن الصوان خاص بقاسم بك فهمى ، وتورد وجهه ، وشعر محجوب برغبة قوية فى أن يركله بما أوتى من قوة !. وقال الإخشيدى :

— يحسن أن يجدد العقد باسمك .

— أهو الآن باسم قاسم بك ؟

فقال الإخشيدى ببرود :

ـــ باسمى أنا ...

فأحس محجوب ارتياحا وسأله :

ـــ وكم إيجار الشقة ؟

ـــ عشرة جنيهات !

فابتسم محجوب قائلا :

ـــ ما يعادل ماهيتى تقريبا ...

ـــ سيؤديها البك ، كما سيؤدى عنك أجر الطاهية ... وغير ذلك ...

ودارا معا فى الشقة دورة استكشافية ، وكانت على صغرها آية فى جمال البناء ونفاسة الأثاث . فتولته الدهشة ، وأدرك أنه يرى كثيرا من قطع الأثاث لأول مرة ، ولم يدر لها أسماء . كانت الشقة مكونة من ثلاث حجرات وصالة ، فعلى يمين الداخل تقع حجرة الاستقبال ، وهى تفتح على دهليز يؤدى إلى صالة معدة للجلوس وبها جهاز الراديو ، وعلى جانبها الأيمن بابان ، أحدهما لحجرة النوم ، والآخر لحجرة السفرة ، ولحجرتى النوم والسفرة شرفة طويلة واحدة تطل على شارع ناجى . وذكر فى موقفه بسرعة بيت الناظر ، ودار الطلبة ، وحجرة السطح بعمارة شارع جركس . أدرك فى موقفه ذاك أن الحقائق قد تفوق الأحلام سحرا وجمالا . والواقع أن مادة الأحلام مستمدة فى العادة من محسوسات الحالم ومدركاته ، وها هو ذا يرى أدوات ترف لأول مرة فى حياته ، لم تكن من محسوساته ولا من مدركاته ! الفرق بين هذا البيت وبيت القناطر هو الفرق بين إحسان وجامعة الأعقاب ، كلتاهما امرأة ، أجل ، ولكن شتان بين هذه وتلك . ونسى فى تلك اللحظة ما كان يقوله لنفسه دائما من أنه لا يوجد ثمة فرق بين امرأة وامرأة ، وأن إحسان وتحية وجامعة الأعقاب كلهن سواء !..

وقال له الإخشيدى وهو يودعه :

ـــ غدا مساء تجد عروسك فى انتظارك !

وذهب الرجل والشاب يرمقه شزرا .

وعند أصيل اليوم الثانى انطلق إلى الجيزة ، وذكر فى الحال على طه ترى فى أى موقع يقيم ؟ كان يعلم أنه فى الجيزة ولكنه جهل عنوانه . فهل ما يزال الشاب مقيما على عهده واهتماماته بالفتاة ؟ أيدعوه هواه إلى ربوعها وهل نما إليه خبر زواجها ؟ أيمكن أن يلتقى به وهى متأبطة ذراعه ؟: ساوره قلق ، وإنْ كان لا يبالى شيئا ، بل ود فى تلك اللحظة لو يلقاه على ويعلم كل شىء . ومضى إلى بيت عم شحاته تركى ، فوجد الأسرة فى انتظاره ــ ما عدا إحسان ــ فأيقن أن تعليمات الإخشيدى سبقته إلى آله الكرام . وكان الجميع ــ عم شحاته وزوجه والأبناء الستة الصغار ــ يرفلون فى الثياب الجديدة الناطقة بكرم قاسم بك وحدبه !. وسلم وسلموا بحرارة ، فقبله عم شحاته فى جبينه ، وقبل يد حماته ، وداعب الصغار وقبل أصغرهم فى خديه . وفى جلسته أنعم نظره فى الوجوه تتطلع إليه ، فأقر لتوه بأن بيت عروسه حافل بالحسن . أبوها حسن القسمات ، وأمها حسناء ، وإخوتها لآلىء منثورة . وقال لنفسه إن الجمال سلاح نافع حقا فى يد الفقير . واستفاض الحديث ، وساهم فيه الشاب كما ينبغى وإن ود لو يغادر البيت فى أقرب وقت ، وتكلم عم شحاته عن دار الطلبة ، وعن الطالب محجوب عبد الدايم المهذب المجتهد ، وكيف أنه لم يكن من عملائه لأنه لا يدخن ، وكيف أنه ــ عم شحاته ــ يحترم الطلبة الذين لا يدخنون وإن (وقد ضحك عند ذاك) لم ينتفع باستقامتهم ، وقال إنه لم يحيى حفلا لعرس ابنته لأن الزوج الطيب هو الفرح الحقيقى ، وأنه لم يدع أحدا من أقربائه وآله ــ وهم ريفيون ــ حتى لا يجشمهم مشقة السفر . وغلب على ظن محجوب أن الرجل يكذب كما يكذب المولعون بالفخر الزائف ، ولكنه ذكر والديه بامتعاض ، وقال إنه طير نبأ زواجه إلى والديه ، ولولا أن أباه ــ وهو مزارع

ذو شأن بالقناطر وهو مريض لشهد يومه وباركه بنفسه . وتحدثت أم إحسان عن أبنائها ، وعن إحسان خاصة ، وأدرك محجوب من حديث حماته ، من لهجتها ، وحركات رقبتها وحاجبيها وعينيها أنها امرأة ذات دلال وأنوثة ودعابة ومكر — وكان يجهل تاريخها بشارع محمد علي — وقد سألته عن وظيفته ، واقترحت عليه أن تقرأ كفه ، وتنبأت له بذرية صالحة ومركز حكومى ممتاز ، وكان محجوب يتكلم ويستمع ، ويسترق النظر إلى باب الحجرة الموارب ، وعيناه تتساءلان « حتام الانتظار ؟ » . وأخيرا جاءت إحسان . جاءت فى ثوب العرس الأبيض الشفاف ، وقد عقصت شعرها وجعلته على هيئة عمامة ، فتجلى سواده اللامع وأكسب بشرتها صفاء ، وجاء فى صحبتها نسوة أربع ، — قيل إنهن قريبات أمها — ولكنه لم يلق بالا إلى أحد ، جذب حسنها عينيه فأطاح باستهتاره المعهود ، حتى تمشت شرارة الكهرباء فى صدره ، وقرض على أسنانه ، والتقت عيناهما وهما يسلمان ، فامتلأ بالسحر الجارى فى لحظيهما ، وشعر بأنه ثمل يترنح ، وعاودته ذكريات عذابه القديم ، ومآسى شهوته المضطرمة ، فلم يصدق — على استهانته وجسارته — أنها صارت ملكا له ، أو حتى ملكا له على المشاع كما يقولون وذكر للشريك ، وكيف سبقه ، فتألم ، وعاود النظر إلى الجسد البض الذى يشف عنه فستان العرس الأبيض وما يزداد إلا تألما . وكان عم شحاته قد هيأ للحاضرين عشاء فاخرا كلفه ثمنا غاليا ، فدعاهم إلى المائدة ، ونهضوا تسبقهم ضجة الصبيان . وكانت أم إحسان على مرحها مستاءة فى أعماقها ، وكانت تود من كل قلبها أن تحتفل بيوم إحسان السعيد ، وأن تجعل منه يوم سرور للحى جميعا ، ولكن الإخشيدى صارحها بأن محجوب أعجز من أن يحقق لها رغبتها ، وكانت تعلم أن زوجها أعجز من زوج كريمتها ، فطوت نفسها على رغبتها الحانقة : وقد

أكلوا مريئا وعادوا إلى جلستهم هانئين ، ولم يكن يوجد ثمة داع إلى بقاء العروسين ، فنهضا يودعان الحاضرين . وجىء بتاكسى حملت إليه ثياب العروس فى حقيبة كبيرة ، وأخذ محجوب إحسان من يدها وسار بها وسط نصف دائرة من المودعين ، وهبط السلم على مهل ، وكأن أم إحسان قد نفد صبرها فأطلقت زغرودة رنت بين الحيطان رنينا نفاذا ، خفق له فؤاد الفتى ، وارتج جفناه . وتلقت النسوة تلك الزغرودة كما يتلقى الجنود علامة الهجوم ، فأطلقن الزغاريد ، تتجاوب أصداؤها ، ويشتد صفيرها المتقطع يهتز له صدور الحسان . واحتوى التاكسى العروسين ، وقد نسيا فى شدو الزغاريد نفسيهما فابتسما فى بشاشة وحياء ، وظلا ينظران إلى الواقفات بالباب حتى جاوزت السيارة دار الطلبة إلى شارع رشاد باشا .

ــ ٣٠ ــ

وأراد أن يتكلم ، ولكنه لم يدر ماذا يقول ، وكان كلما طال صمته طال حصره ، فعدل عن رغبته وهو كظيم . وتفحصها بعناية . رآها تنظر إلى الطريق من النافذة ، مولية إياه مؤخر رأسها . ولم يشك فى أن أعينا كثيرة فى الطريق ستنفس عليه هذا الحسن البديع الذى يستأثر به . وسر لذلك أيما سرور . ليت آل حمديس يرونه فى جلسته هذه ، وخصوصا تحية حمديس !.. وخطر له فى تلك اللحظة ــ وقد اطمأن إلى أن تحية تكتمت فضيحته ــ أن يمضى يوما إلى زيارة قريبه العظيم ليقدم له عروسه كما جرت العادة . وداعب هذا الخاطر فؤاده حتى أسكره . وكانت لا تزال عاطفة رأسها إلى الخارج ، فألقى بنظره الجائع إلى جسمها اللدن ، فجرى على الجيد فالمنكب فالثدى الناهد ثم الخاصرة الخميصة وأخيرا الفخذ اللفاء . وتنهد من أعماق صدره ، وقال لنفسه : ما أشد

جوعه ، واضطرام دمه . ووقف التاكسى أمام عمارة شليخر ، ونزل ونزلت مستندة إلى يده ، وسارا إلى المصعد ، ودخلا الشقة يتبعهما البواب بالحقيبة . ودلها على حجرة النوم فتقدمت إليها وردت الباب ! ووقف مترددا : ثم تراجع إلى مقعد فى الصالة وارتمى عليه . لم يرتح أول وهلة لاغلاق الباب ، وذكر باب السيارة فى الهرم ! ولكنه سرعان ما أقام العذر بالارتباك الذى يحدثه الموقف بيد أنه لم ينج من مرارة طبعه الساخر فقال لنفسه : يا له من حياء هو بالأبكار الساذجات أولى ! ثم قطب وتساءل : ترى ماذا تخبىء له حياته الجديدة ؟ أسعادة أم شقاء ؟! إنه لا يطمع أن تنظر إليه كزوج بالمعنى المفهوم لأنه هو نفسه لا يستطيع أن ينظر إليها هذه النظرة وحتم أن تراه — فى قرارة نفسها — قوادا ، كما يراها فى قرارة نفسه — عاهرة . فهل يمكن أن يسعد قواد وعاهرة معا ؟؟ هذه هى مسألته دون زيادة ولا نقصان . إنه لا يروم من حياته الزوجية معنى اجتماعيا ، ولا ذرية صالحة ، ولا احتراما متبادلا ، كل ما يريده رغبة متبادلة ، ميل يعادل ميله ، شهوة بشهوة ، وحسبه هذا من زواج هو وبيلة لا غاية ، إنه يروم حبا بلا غيرة ، يرد ماءها الحين بعد الحين . دون قلق أو فكر أو هم ، وتوكله أولا وأخيرا على نفسه الجسور التى حطمت القيود ومزقت الأغلال . كان يفكر ونظره عالق بالباب المغلق . أينتظر حتى يفتح ؟ وإذا ظل مغلقا ، فهل يلبث مكانه حتى الصباح ؟ ونهض قائما ، ودنا من الباب ونقره بخفة ، فلم يجبه صوت ولا حركة ، فأدار الأكرة ودفعه . وجد الظلام يوشك أن يبتلع الحجرة إلا نورا خافتا آتيا من ناحية الشرفة ، فأدرك أنها فى الشرفة ، تستجم ، فمضى إليها فى خطى رقيقة ، ورآها جالسة فى ناحية مسندة ذراعها إلى حافتها ملقية بنظرها إلى الطريق . ولم تبد حركة لدخوله ، فوقف ينعم فيها النظر على ضوء مصباح الشرفة ، ثم قال :

ـــ فعلت خيرا بدخولك الشرفة ، فهذه الليلة من ليالى يولية الحارة ؟

فحولت رأسها إليه ، وقالت بعد تردد :

ـــ أجل هذه ليلة حارة ..

سر لمبادلتها إياه الحديث ، فأتى بمقعد ، وجلس عليه على كثب منها ، وألقى عليها نظرة ، فراعته صورتها ، وحرقه تكوين جسمها البديع المشتهى ، وذكر أنه سيتمتع بهذا الجسد الفاتن هذه الليلة ، بل هذه الساعة ، فجن جنونه ، وأسكرته هذه الحقيقة الماثلة بين يديه ، كأنه يكتشفها لأول مرة . ولم تعد تحتمل عرامة نظرته فأطرقت ، فمد يده إلى ذقنها ، ورفع رأسها إليه ، وهو يقول بصوت متهدج :

ـــ دعينى أطالع وجهك الجميل ...

والتقت عيناهما لحظة ، فامتلأ حماسا وقال بحرارة :

ـــ تآلفت حياتنا بمعجزة . وما كنت أحسب قبل اليوم أن المصادفة تلعب هذا الدور الخطير فى حياة الانسان ، فما أحقها أن تسخر من منطقنا ومن سنن الوجود جميعا ، ولعلك تجدين وحشة ، ولكنك ستتغلبين بذكائك وثقافتك . وكما أن الحب يكون مقدمة للزواج ، فالزواج يكون مقدمة للحب ، والمعاشرة كفيلة بمزج النفوس وتوحيد الآمال ... أليس كذلك ؟؟

فتحركت شفتاها كأنما لتتكلم ، ثم جمدتا ارتباكا ، وارتسمت عليهما شبه ابتسامة . وازداد حماسا فقال :

ـــ ستدركين معنى قولى هذا ، وستعملين على تحقيقه ، لنعملن معا على تحقيقه ، وسنرى ..

وقال لنفسه : إن النساء لا يعشن بلا حب ـــ حقيقة تعلمها من القراءة ـــ فهى لا شك تحب ، ولكن من المحبوب المجدود ؟!..

حسبه يوما على طه ، ثم ظنه قاسم بك فهمى ، وقد يكون المال دون غيره ، فعلى هذه الحقيقة تتوقف سعادته . وقد يكون صادقا فى قوله لها « ولعلك تجدين وحشة ؟ » فالحقيقة أنها كانت تجد هذه الوحشة ، وقد أدرك ذلك من أول نظرة ، بل أدرك أنه لو أعتقها هذه الليلة لكان ذلك أدنى إلى التهذيب والرقة ، ولكنه نبذ هذا الخاطر ، موقنا أن الحيوان الهائج فى باطنه لا يعرف التسويف ولا التأجيل . ولا يقدر على انتظار مهما كان الثمن . ثم كف عن التفكير وقد عاودته جسارته الطبيعية :

ــ هلمى ندخل ...

وأمسك بمعصمها برفق ونهض ، فنهضت طائعة ، ثم أحاط خصرها بذراعه ، ودخلا معا ..

ــ ٣١ ــ

وفتح عينيه فى الصباح الباكر فوقعتا على مرآة الصوان الفاخر ، فرأى صورته وإلى جانبه يرقد الكنز النفيس . وارتفق ساعديه ، ثم ثبت عينيه وقد غمرته ذكريات الليل التى لم تمح آثارها من نفسه وجسده وكانت لا تزال مستغرقة فى النوم مبعثرة الخصلات على الوسادة الحريرية ، ما أجمل صفاء هذه البشرة ، ما أعمق سواد هذا الشعر ، واهتز صدره طربا فهوى بشفتيه الممتلئتين على خدها الأسيل ..

ومضى الأسبوع الأول من هذه الحياة الجديدة ، وقد أقبل ينهل من الشراب العذب المبذول بشراهة جنونية ، وسرعان ما أدرك منذ اللحظة الأولى أن لذته ــ لذتهما ــ لن تتم إلا بشىء جديد ضرورى جدا كى ينسى هو ما ينبغى أن ينساه ، وكى تنسى هى ما يحسن أن تنساه ، فيصفو الجو ، ويستمتعا بحياتهما أجمل استمتاع . وجرب بالفعل ذلك الشىء

الضرورى الذى سمع عنه كثيرا : الشراب !. وقليل منه كفاهما ، ولكنه نفعهما نفعا سحريا ، بفضله وجدها تذوب رقة ، وتنفث سحرا ، وسكن بين ذراعيها يرشف من طيبات رزقه . كانت الحياة فى ظاهرها ثملة باللذة مخمورة بالشهوة أما فى الأعماق فاضطربت تيارات خفية . فلم يفتأ محجوب يتساءل عن على طه وقاسم فهمى وقلب إحسان . وربما ثار شكه ، وراح يؤنب نفسه ويعنفها ، ويقول إنه الحمق ولا شىء غيره ، الذى يوسوس له فيوقظه من لذته ليصلى نار الفكر . وحاول مرات أن يعوذ بسخريته ، وجعل يوصى نفسه قائلا : « اقتل الشك ، امح الكرامة من قاموسك ، احذر الغيرة ، أفرغ شهوتك ، توثب للطموح ، واذكر أن ما أنت فيه هو الامتحان الأول والأخير لفلسفتك ، فقل الآن طظ ، قلها بلسانك وبقلبك وبارادتك .. » .

ولم تخل إحسان كذلك من خواطر تضطرب فى أعماقها . عرفت أخيرا المصير واستقر بها المستقر . أسدل الستار على أحلام الحياة الأولى ، وخاب الرجاء فيما طمعت فيه من أن تصير زوجا للبك العظيم . ووجدت نفسها ربة هذا البيت العجيب الذى يتنازعه صاحبان . لم تعد تقول لا . فما خوف الغريق من البلل ؟؟ ورأت من الحكمة أن تنظر فيما بين يديها . إن القلب الذى أيقظه على طه اندثر وذهب . والأمن الذى لوح لها به قاسم فهمى خاب وانطفأ . فلم يبق لها إلا تلك الغريزة الحيوانية التى أطلقها والدها من عقالها منذ البدء . ربما حنت إلى على طه أو حقدت على قاسم بك أو عافت نفسها محجوب عبد الدائم ، ولكنها لم تسمح لاحدى هذه المشاعر بالتمادى والتضخم ، ومالت بمزاجها وبالدوافع التى تحيط بها إلى الاستسلام التام . ما من فائدة ترجى من التحسر على ماض لن يعود ، وأولى بها أن تولى الحاضر والمستقبل عنايتها ، فلتستمتع باللذة ، ولتستأثر بالقوة ، ولتنفق عن سعة ، ولتغمر

أسرتها بكل خير عميم ، وبذلك وحده لا تذهب التضحية عبثا ، وزوجها أولى الجميع بتفكيرها ، لقد همت بأن تحتقره أكثر من مرة ، ولكن لماذا ؟؟ لأنه ..؟ ولكنها هي أيضا ..؟؟ فلا تعيره ولا يعيرها ؟. بل هنالك وجه آخر يقرب بينهما ، فهو فيما يبدو ضحية مثلها للعوز والطمع . وكلاهما ضحية لشر واحد فما أجدرهما بالتصافى والتعاون . كان كلاهما يعالج همومه بالحكمة ، ويحاول ما استطاع أن ينفى عن نفسه نوازع الشقاء . واطردت الحياة فى لذة يهيئها الشراب والرغبة فى السعادة . وكان محجوب أقدر منها على التغلب على أمثال هذه الهموم لاستهانته المعروفة ، أما هى فكانت حديثة عهد بالشذوذ ، فربما تولتها الكآبة إذا خلت إلى نفسها ، وربما وجدت حنينا إلى الآمال المشرقة الأولى فى الحب والحياة الشريفة ، مثلها مثل النازح إلى بلد غريب إذا احتواه بيته الجديد فى أول لياليه ، ولكنها كانت تتغلب على مرضها — والحنين مرض — بتلك الواقعية التى اشتهرت بها النساء ، وبتلك الرغبة الصادقة فى طيب الحياة . ولهذا السبب سألها محجوب يوما — من أيام الأسبوع الأول — وهو يقرصها فى خدها :

— أنت سعيدة ؟

أجابته من فورها :

— نعم ، والحمد لله ..

فقال لها الشاب بسرور :

— الحياة أمامنا منبسطة ، والفرص دانية ، فلنثب بين الأزهار ، ولنجن الثمار ..

فقالت مبتسمة عن درها النضيد :

— نثب .. ونجنى .

— لا تصدقى الحكم الجامدة التى يعرفون بها السعادة . السعادة

ليست فى الحياة ، وجميع ظروف الحياة لديها سواء ، هى حقا فى الإرادة فمن يردها إرادة تأته طوعا أو كرها ..

فحدجته بنظرة متفكرة بعينيها السوداوين البديعتين ، فقال بحذر وتواضع :

ـــ إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ..!

فقالت بهدوء :

ـــ لا داعى لهذا.. (وهنا ذكرت شطر بيت للمتنبى فقالت) .. كل مكان ينبت العز طيب ..

فأخذ يدها فى يده كأنه يعاهدها ، تريث قليلا ، ثم قال وقد غير لهجته :

ـــ وثمة شىء آخر ، لا ينبغى أن نعيش فى عزلة . لنقتحم الحياة العريضة ولنأخذ من مظاهرها بأوفى نصيب .

كان يريد أن يتمتع بحياته الاجتماعية على أكمل وجه ، وأن يقدس مظاهرها الكاذبة التى يكبرها الناس جميعا ، واشتدت إليها حاجته ليخفى بها ما فى حياته من شذوذ . ولذلك فكر جديا أن يذهب وعروسه إلى آل حمديس ، ليبرىء جرحا قديما ، وليشبع شهوته إلى الظهور ، ولكن ألا توجد ثمة عقبة حقيقية ؟؟

ـــ ٣٢ ـــ

ولم ينثن عن رغبته الجريئة ، وأراد أن يجعل منها أولى خطاه فى غزو المجتمع الراقى . ورأى عن حكمة أن يمهد للزيارة بمحادثة حمديس بك بالتليفون ، وسيعلم من إجابته إن كانت حكاية الهرم قد بلغته أم أن الفتاة الأريبة أخفتها عنهم . وحادثه ، ووجد منه خطابا رقيقا ، فأخبره بزواجه ،

وكاشفه برغبته فى تقديم زوجه إليه فرحب بها البك أيما ترحيب . وهرع محجوب إلى زوجه وقال لها بسرور وخيلاء :

ـــ دعينى أقدمك إلى أقربائى العظام ..

وعند عصر اليوم العاشر من حياته فى البيت الجديد أخذا أهبتهما للزيارة الخطيرة . فارتدت إحسان ثوبا جميلا من ثيابها الجديدة ، وتجلت صورتها الفاتنة ، وتهيأ سحرها باجتماع الشعر الأسود الفاحم والبشرة العاجية الصافية والشفتين الورديتين وبدا الشاب فى منظر حسن قد أخذ يستعيد عافيته ورونقه . واستقلا تاكسى إلى الزمالك . لم تكن إحسان تخلو من قلق ووحشة ، أما محجوب فكان يبتسم ابتسامة هادئة مطمئنة كأنه ذاهب إلى بيته الذى شب وترعرع فيه . وقد عبرا الحديقة إلى سلاملك الاستقبال وهما على تلك الحال ، فما راعهما إلا منظر الأسرة الكريمة فى انتظارهما عند مدخل السلاملك . وقفوا الأربعة صفا : أحمد بك حمديس ، حرمه ، تحية ، فاضل . وسر محجوب لنجاح الاستقبال ، وقد اطمأن إلى نجاحه من قبل لما هو معهود فى النساء كافة من الميل إلى تفحص بنات جنسهن ونقدهن ، وتبادلوا التحية والسلام ، ولم يخف عن عينيه الجاحظتين الأثر الذى أحدثته زوجه فى المستقبلين ، فأحس ارتياحا وغبطة . وجلسوا ، وما زالوا يتبادلون ألفاظ الترحيب والمجاملة ، وجعلت عيناه القلقتان تدوران فى جميع الأنحاء وتتفرس فى الوجوه . ووجد نفسه وهو لا يدرى يقارن بين زوجه الحسناء وتحية حمديس . إن لتحية جمالها ، ولها إلى جمالها سمت أناقة ورفعة ، ولكن هيهات أن تبلغ مدى هذا الحسن الرائع . إن زوجه أجمل من تحية ، بل أجمل من أم تحية فى صباها ، وأعينهم لا تنكر هذا ولا تمارى فيه . وطرب لذلك أيما طرب وقال لنفسه بشماتة : « لقد هزمت فى المقبرة يوم الرحلة وتم لى الانتقام اليوم » . وأراد أن يعرفهم بزوجه كما ينبغى ، فقال

بجسارته المعهودة وهو يشير إلى فتاته :
ـــ إحسان كريمة شحاته بك تركى من كبار تجار الدخان . ألا تعرفه يا سعادة البك ؟

وتورد وجه إحسان ، وأطرقت لتخفى ارتباكها . أما أحمد بك حمديس فزوى ما بين حاجبيه باحثا فى ذاكرته ، ثم قال بلهجة الاعتذار :
ـــ لا أذكر للأسف (والتفت إلى إحسان) . لنا عظيم الشرف !

فقال الشاب ضاحكا وهو يشير إلى زوجه مرة أخرى :
ـــ زميلة قديمة ، عرفتها فى الجامعة ..

فابتسم البك وابتسمت زوجه ، وابتسمت إحسان أيضا وقد هالها اندفاع محجوب ، ولم تدر أين يقف . وكان فاضل ينظر إلى العروس بفتور ، أما تحية فلم تحول عنها عينين ثاقبتين ، وقد فطنت ببداهتها إلى البواعث الحقيقة التى أغرت الشاب بهذه الزيارة ، فازدادت له احتقارا وتجلى فى نظراتها إلى العروس الاستهانة والسخرية . وراحت حرم حمديس بك تتحدث عن فتيات الجامعة ، فقالت :
ـــ إن الجامعة : تمهيد للوظيفة ، وإنها لذلك اختارت لتحية سبيلا آخر ، (وسألت العروس) :
ـــ ألم تخامرك فكرة التوظف وأنت تلتحقين بالجامعة ؟

وكانت إحسان برمة بالحديث ، مشفقة من مغبة الكذب ، ولكنها لم تر بدا من الإجابة فقالت :
ـــ بلى يا هانم ، ولكن كل شيء قسمة ونصيب كما يقولون .

فسألتها تحية بمكر :
ـــ ألم تأسفى لتغير مجرى حياتك ؟

وابتسموا جميعا ، وضحك محجوب كأنما راقته دعابتها وقال :
ـــ سامحنى الله . كانت إحسان طالبة بارعة ، وطالما أثارت إعجاب

المسيو ليشو أستاذ الفلسفة بذكائها ، وقد اعترض طويلا على انقطاعها عن المدرسة ..

ونظر إلى تحية ليرى ما ترك من أثر فى عينيها ، فوجدها تنظر إليه باحتقار وسخرية ، فلم يغضب ، بل سر سرورا خفيا . ودخل عند ذاك خادم نوبى بالمرطبات . فشربوا هنيئا وسادت فترة سكون كالاستراحة .

وطرقت حرم حمديس بك الحديث مرة أخرى ، فنادت الذكريات البعيدة ، وذكرت الغلام الصغير الذى يطالعها الآن زوجا رشيدا ورب أسرة ناشئة ، وتكلمت عن الزمن وسرعته العجيبة ، ثم سألت الشاب قائلة :

ـــ كيف حال والديك ؟

ـــ الحمد لله .

أجاب محجوب بسرعة ، وسرعان ما انقبض صدره ، فسألته السيدة مرة أخرى :

ـــ ألم يحضرا زفافك ؟

ـــ لم يمكنهما ذلك لمرض والدى ..

فدعت السيدة للرجل بالشفاء واستدركت سائلة أيضا :

ـــ وكيف القناطر ؟

ـــ جميلة كعهدك بها ..

ـــ يا عجبا ، لم نعاودها منذ فارقناها ..

وسأله أحمد بك مبتسما :

ـــ هل تقضيان شهر العسل فى القاهرة ؟

فسر محجوب بالسؤال لأنه فتح له أبوابا للحديث ، فقال :

ـــ عملى كسكرتير لقاسم بك فهمى لا يدع لى فراغا فى الوقت الحاضر ...!

وهنا قالت تحية لتشرح للشاب أسباب وجودهم فى القاهرة فى يولية إذا كانت غابت عنه :

ــ والذى يقوم عادة بأجازته فى أغسطس فنسافر جميعا إلى أوروبا ..!

ثم غيرت لهجتها وسألته باهتمام :

ــ ألم تأخذ إحسان هانم إلى حفريات الجامعة ؟

واضطرب فؤاده ، وجرى بصره بحذر على وجوه الجالسين ، فوجدهم مبتسمين لا تدل وجوههم على شيء مما أثاره الخوف فى نفسه من سوء الظن فتنهد ارتياحا وقال وقد تمالك نفسه :

ــ كلا ...

ثم قال بخبث :

ــ سنذهب بلا شك عندما نبتاع سيارة قريبا ..

فقالت بخبث أيضا :

ــ المشى فى الرحلات ألذ ..

وسأله حمديس بك عن قاسم بك فهمى ، وقال له إنه كان زميله فى البعثة ، ووعده أن يوصيه به خيرا . وضايقته هذه الصلة التى لم يتوقعها ، ماذا يحدث لو وقف حمديس بك على سر زواجه ؟؟ وشعر بيد ثلجية تقبض على قلبه . ولما كانت الزيارة للتعارف فأحب ألا تطول أكثر مما طالت ، ونهض مستأذنا فى الانصراف ..

* * *

وفى طريق العودة قالت له إحسان وهى تنفخ :

ــ أعوذ بالله منك ..

فقهقه ضاحكا ، وقال بسخرية :

ــ كونى جسورة . الكذب كلام كالصدق سواء بسواء إلا أنه ذو فوائد .

ـــ وإذا انكشفنا ؟؟

فقال بضجر :

ـــ وإذا .. وإذا .. دائما وإذا .. إذا هذه حرف خيبة إذا دخل على جملة ذهب بفائدتها وثبط همة الفاعل ، لا تقولى وإذا ..

فضحكت إحسان وقالت :

ـــ حرم البك قريبك سيدة لطيفة !

فاختلس إليها نظرة ماكرة وقال بخبث وشيطنة :

ـــ وتحية ؟.. يا لها من فتاة كاملة !

فصمتت لا تدرى ما تقول . ثم غمغمت :

ـــ أجل ..

وكان يلحظها بخبث . وسر سرورا كبيرا . وعاد إلى الشقة يخامره شعور الظافر المنتصر . وظل ذاك المساء مغتبطا حتى ناداه جرس التليفون ، وما وضع السماعة على أذنه حتى تجهم وجهه . وفتر حماسه ، كأنما ألقى على لهيب قلبه الفرح الراقص ماء بارد . كان المتكلم سالم الإخشيدى ، وقد أخبره أن البك سيزور الشقة مساء الغد ..

ـــ ٣٣ ـــ

ما لجرح بميت إيلام .

جعل يردد هذا الشعر قبيل مساء اليوم الثانى وهو يتأهب لمغادرة البيت ثم تساءل متى يموت جرحه إذا ؟! كان عظيم الثقة بنفسه وبفلسفته ، ولكنه شعر فى اضطرابه وألمه بأن الفلسفة إذا خرجت من الدماغ إلى دنيا الحقائق قد يحدث لها ما يحدث للقذيفة إذا انطلقت من المدفع : تتفجر وتتناثر . حاول أن يستعيد رباطة جأشه وبروده . حاول أن يقول

« طظ » ولكنه ، أخفق ، أو أخفق مؤقتا على حد تعبيره . وجعل يتساءل
ترى هل علمت ؟. ثم نظر إلى التليفون فرجح أن يكون طير إليها النبأ
السعيد ! فالتليفون هو القواد الثانى فى هذه الشقة ؟ ترى ما حقيقة
شعورها ؟! أمسرورة هى بذاك اللقاء لمرتقب ؟؟.. أتنتظر على لهفة أم بغير
مبالاة ؟؟.. أيحطم هذا الرأس الجميل كما تحطم جوزة الهند ليرى
ما فيه ؟؟ وتلوث حية الغيرة فى قلبه نافثة سمها القتال ، وغادر البيت
وسار فى شارع ناجى على غير هدى ، وقصارى ما يطمح إليه أن يمسك
زمام عقله ، أو أن يثوب إلى رشده . ووجد نفسه أمام حانة « لاروز » فمال
إليها بلا تردد ، كأنها هى هدفه المطلوب ، وكان طلاب الجعة يتقاطرون
عليها فرارا من جو يوليو القائظ ، متهافتين على الجزء التابع لها من الطوار ،
ولكنه كره الازدحام ، وانتبذ مكانا داخلها ، فلم يلق حوله إلا شابا يجلس
إلى مائدة غير بعيدة منفردا بكأسه ، وقبل فوات خمس دقائق على جلوسه
كان يرفع الكأس إلى شفتيه الممتلئتين ، ويفرغها حتى الثمالة ، ثم صفق
يطلب أخرى . شرب بشراهة لا عهد له بها ، وإن كان يوجد فى حانة لأول
مرة فى حياته . وما انفك عقله متفكرا مشغولا لايغيب به عما حوله . ولم
يكن غضبه لاضطرابه بأقل من اضطرابه نفسه ، كبر عليه أن يأسى على
معنى تافه من المعانى التى ثار عليها وكفر بها . أغضبه حقا لعرضه ؟..
وما عرضه ؟؟. ألم يتحرر من هاتيك الأغلال جميعا ؟؟ كلا إنه
لا يغضب لعرضه . ولا عرضه بالشىء الذى يستحق الغضب ، ولكنه
يعانى الغيرة . وتفكر مليا ، ثم عاد يحادث نفسه : هل الغيرة طبيعية أو
تقليد اجتماعى كالعرض ؟؟. بل صفة طبيعية بلا مراء . إن الحيوان يعانى
لأواءها كالإنسان سواء بسواء ، فنحن نغار ما دمنا نحب ، وما دمنا نرى
أنفسنا جديرين بأن نحب كذلك . هكذا حدث نفسه ولكنه لم يقتنع كل
الاقتناع ، ولا ارتاح الارتياح كله ، بقى فى النفس شىء . ألا ترى أن هذه
الغيرة توشك أن تفسد عليه جميع ما أفاد من فلسفته وتحرره ؟؟. إنه ينتقد
ويحلل ويحطم ، ولكن وراء ذلك تتخايل لعينيه أشباح مخيفة : سيارة تقف

أمام عمارة شليخر ، ينزل منها البك الأنيق ، المصعد ، الجرس ، باب الشقة يفتح ، مساء الخير أيها العروس .. جاء زوجك الطبيعى ، ثم .. كيف تلقاه ؟. فى نفس الحجرة وعلى نفس الفراش ... وصفق بشدة يطلب كأسا جديدة ولاحت منه عند ذاك التفاته إلى الشاب المنفرد بكأسه ــ بكئوسه ــ فوجده يحدق فيه بدهشة وسرور ، فقد راقبه الشاب منذ حضوره ، وراح ينظر إلى اضطرابه وحركاته غير الإرادية ، ويتساءل عما يقلقه ، ولكن فى سرور ولذة شأن المنتشى الثمل . ولما التقت عيناهما ابتسم فابتسم له محجوب والسكارى سريعو التعارف ، إلى بعض وإن كانت مودتهم سطحية ، فتبودلت التحية ، وبدا الشاب الغريب وكأنه يلوذ بصاحبه من وحدته التى جعلها السكر أفظع من أن تحتمل ، وعاذ به محجوب من أفكاره وآلامه فدعاه إلى مائدته ، وسرعان ما جلسا وجها لوجه ، شابين ثملين لا يقيمان لشىء وزنا . وتعارفا . ثم قال الشاب الغريب :

ــ رأيتك آخذا فى حديث عنيف مع نفسك ، فوددت لو حملت عنك بعض هذا العناء ..

فضحك محجوب ضحكة عالية جدا دلت على انفلات الزمام من يده ، وسأله :

ــ أحقا كنت أحادث نفسى ؟

ــ أجل . وكنت محتدا .. بل حانقا ..

وكان لابد أن يتكلم ، لأنه دعا بمتكلم : ولأنه أراد أن يروح عن نفسه ، ولم يجد فى ذلك من بأس ، فحالته وحالة صاحبه آذنتا بحديث أهوج ماجن لا يعرف الحدود . سأله :

ــ ومتى يحادث الإنسان نفسه ؟

ــ فى أحوال نادرة ..

ــ اضرب مثلا .

ـــ فى السرور الفائض والحزن البالغ أو فى حالات لا هى إلى السرور الفائض ولا الحزن البالغ !

ـــ وماذا يبقى من الحالات غير ما ذكرت ؟؟

ـــ الحالات التى يحادث الإنسان فيها غيره ..

فقال محجوب متحيرا وهو يقبض على كأسه :

ـــ لا أكاد أفهم شيئا ...

ـــ ولا أنا !. فى مجلس الأنس ، كما فى مجلس النواب ، ليس بالمهم أن تفهم ما يقال ، ولكن المهم أن تتكلم .

ـــ كيفما اتفق ؟؟

ـــ وكيفما أحببت...!

ـــ ولذه الاقتراح ،.فطرح التفكير ظهريا ، وراح يقول وقد احمرت عيناه الجاحظتان من الشراب :

ـــ أنا فى الحجرة والكبش فى الحقل ..

ـــ كتب محمد الدرس ..

ـــ اعمل لدنياك كأنك تموت غدا ، واعمل لآخرتك كأنك تعيش أبدا .

ـــ ولكنك لن تعيش أبدا ، وربما لم تعش حتى مطلع الصباح ، لأنك تفرط فى الشراب ..

ـــ إذا نطلب كأسا أخرى ..

ـــ علام يدل امتلاء الحانات بالواردين ؟

ـــ يدل على أن دستور ١٩٢٣ أفضل من دستور ١٩٣٠

ـــ أتحسب أن دستور ١٩٢٣ يعود ؟

ـــ أين هو الآن ؟

ـــ فى ضريح سعد مع جثث الفراعنة .

ـــ فليحفظوه هنالك حتى نستحقه .

ـــ هل أنت وفدى ؟

ـــ كلا ... أنا حنبلى !

ـــ وأى فرق بين الاثنين ؟

ـــ الحنبلى ينقض وضوءه خيال الكلب .

ـــ والوفدى ؟

ـــ ينقض وضوءه خيال الظل .

ـــ إذا أنت حز دستورى !

ـــ أنا ؟.. أنا فى الحقل ..!

ـــ أنت كبش إذا ذو قرنين !

واضطرب محجوب ، وبهت ، وكأنه يستيقظ من هذيانه على مطرقة ، وحدج صاحبه بنظرة ملتهبة ، لكن وجده يبتسم منشرح الصدر ، متأهبا لتلقى كل ما يقذفه به ، فحمل نفسه على السرور حملا ، وسأل الشاب الغريب :

ـــ خبرنى . أحق أن القواد فى نعيم ؟

وتضاحك الشاب ، ورأى محجوب يرمى فى الموقد حطبا ، فرغب أن يعاونه وقال :

ـــ حالك خير دليل !

فضحك محجوب ضحكة عالية ارتج لها المكان وقال :

ـــ حدثنى بما لك من خبرة عن أنواع القيادة .

ـــ قيادة عمياء لا يدرى بها ضحيتها من النوع الذى ابتلى به زوج عشيقتى ...

ـــ واحد .

ـــ وقيادة يعلم بها الزوج ويتجاهلها إيثارا للسلامة ، وهى موضة منتشرة فى بعض الأوساط .

ـــ اثنان .

ــ وقيادة يختارها الزوج للذة أو لفائدة . هل أنت متزوج ؟

فعاوده الضحك ، وأغرق فيه ليخفى توتر أعصابه ، ثم قال بحقد خفى :

ــ يوجد نوع رابع يجمع ميزات الثلاثة معا وهو وقف عليك : كنت أول الأمر تجهل ما أنت مبتلى به ، ثم تكشف لك فتجاهلته إيثارا للسلامة ، ثم تعودته فاستلذذته .

وأغرقا فى الضحك معا . ثم قال الشاب الغريب بلهجة ظاهرها الجد وباطنها المزاح :

ــ الواقع أن القيادة من أعقد مشكلات الزواج فى العصر الحديث .

ــ الحقيقة أن الزواج من أعقد مشكلات القيادة ..

ــ صدقت ، ألا ترى كيف يضرب الشبان عن الزواج ؟؟ ولكنهم يشتركون فى الأسر من منازلهم ..

ــ الانتساب ألذ بلا تكاليف ..

وهذيا طويلا ، بلا ملل ولا تعب حتى أوشك الليل أن ينتصف ...

* * *

وطاب له أن يخبط فى الشوارع على غير هدى قبل أن يعود إلى البيت . وغمغم كالمترنم : « أنا فى الحجرة والكبش فى الحقل » ثم راح يقول : « أنا فى الحانة والبك فى الحجرة » ولكنه كان فى منتهى النشوة والسرور ، فارتفعت حرارة غبطته لدرجة تذوب فيها جميع الأحزان . وبدا له وكأن شيئا فى الدنيا لا يساوى مثقال ذرة من الكآبة ، وآتته قدرة يمكنه أن يحقق بها فلسفته إذا شاء بلا تردد ولا تفكر ولا انفعال . وقد أدرك فى تلك اللحظة أن فلسفته والخمر كلتيهما من جوهر واحد !. وعاد إلى البيت ، ودخل الحجرة ، كان كل شيء هادئا ساكنا ، وهى مستغرقة فى نوم عميق . ووقف فى وسط الحجرة يحدق فى وجهها بعينين محمرتين

ذابلتين ولبث واقفا حتى خال الأرض تدور به . وخطر له خاطر فسر به دون أن يتدبره ، ونفذه بأسرع مما خطر له . دنا من الفراش ، ثم ارتمى عليها بجسمه كله كأنه يلعب حركة سويدية : واستيقظت إحسان فزعة ، وفرت من فيها صرخة ، وحملقت في وجهه بعينين مرتعبتين ، ثم دفعته بعيدا عنها وقد أخذت تدرك حقيقة الحال . دفعته بغيظ وحنق ، وصاحت به :

ــ أنت سكران .. كدت تقتلنى .. ابعد ..

فجعل ينظر إليها بذهول مالئا عينيه من وجهها الساخط الغاضب ، ثم ابتسم ، ابتسم ابتسامة لا معنى لها ، أو ابتسم سرورا بما أحدث فيها من ألم وغيظ . وزاد حنقها وتضاعف ، وقالت بحدة :

ــ كسرت أضلعى بجنونك ، فابعد عنى .. أنت سكران ، لا تنم فى هذه الحجرة ..

وظل الابتسام مرتسما على شفتيه ، ثم فرت من فيه ضحكة خفيفة ، ولما تضاعف غضبها أغرق فى الضحك حتى زلزل كيانه ..

ـ ٣٤ ـ

فى صباح اليوم الثانى استيقظ فى ساعة متأخرة ، ونهض متعبا مصدع الرأس ، وكان نام ليلته على الشيزلنج ، فنظر فى الفراش بعينين خائفتين ، ولكنه وجده خاليا ، وتذكر ليلة الأمس ، فهالته الذكرى : ثم هز منكبيه استهانة ومضى خارجا ، والتقى بها فى الصالة فطالعته بوجه مقطب فارتبك حينا ، وابتسم غاضا من بصره ، وسألها بلهجة لطيفة :

ــ لا زلت غاضبة ؟

فقالت بحدة :

ــ السكر يجعل منك وحشا مجنونا ، لا تسكر أبدا ، شرب كأس .. كأسين كما نفعل شىء محتمل ، أما أن تعود بعد انتصاف الليل ثملا

تترنح وتسلك مثل ذاك السلوك الشائن فشىء لا يحتمل ..

وانتقلا إلى حجرة السفرة ، وتناولا فطورهما ، فى سكون بادىء الأمر ، ثم تبادلا بعض الكلمات ، وغادرا الحجرة فى حالة طيبة . وذهب إلى الوزارة قبيل الظهر ، وكان البك قد سافر إلى الإسكندرية ذلك اليوم يمضى بضعة أيام فى بولكلى . فجلس فى حجرته يطالع الجرائد ، وبعد مضى برهة وجيزة استقبل زائرا لم يتوقع حضوره ، فتح الباب ، فرفع رأسه عن الجريدة ، فرأى مأمون رضوان قادما نحوه ، ولاحت الدهشة في وجهه ، ثم نهض هاشا باشا ، وتصافح الصاحبان بحرارة ، وجلس مأمون وهو يقول :

ــ مبارك .. مبارك...

فأدرك محجوب أنه يهنئه على الوظيفة ، وسر لذلك أيما سرور ، وقال :

ــ الله يبارك فيك ، حسبتك فى طنطا ..

ــ عدت من يومين لشئون خاصة ، وقابلت ليلة عودتى الأستاذ أحمد بدير فى نادى الجامعة فأنبأنى بتعيينك ، وسررت لذلك سرورا عظيما ..

أحمد بدير .. انقبض صدره لذكر هذا الاسم الخطير ، وتساءل فى نفسه : ترى ماذا يعلم هذا الصحافى المحيط بفضائح المجتمع ؟.. ماذا قال لمأمون رضوان ؟. وحدج صاحبه بنظرة عميقة ، ولكنه وجده هادئا صافى النظرة كالعهد به ، يشف منظره عن باطن نقى طاهر لا تقربه أخبار السوء . واصطنع ابتسامة وقال متسائلا :

ــ وكيف حال الأستاذ ؟ .. لم أقابله منذ عهد ليس بالقصير ، ولم يأت لتهنئتى .

فابتسم مأمون وقال :

ــ غابت عنك أشياء ، لقد نشر خبر تعيينك ــ كما قال لى ــ فى جريدته ، وهو يعتبرك مدينا له بالشكر .

وتحدثا عن البعثة ، والوظائف الإدارية والفنية ، ومهنة التدريس فى الجامعة والمدارس الثانوية ، وانتقد مأمون النظام الجائر الذى يحرم المتخصصين الاشتغال بفنهم الذى تخصصوا فيه ، ولم يرتح محجوب إلى التهوين من شأن الوظائف الإدارية ، وقال لصاحبه : إنها تنفرد بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب . وكان مأمون يفهم المجد على نحو آخر ، ولكنهما أدليا بآرائهما في يسر وتسامح وجرّ الحديث بعض الشئون الخاصة فاعترف مأمون أنه جاء إلى القاهرة لأسباب تتعلق بزواجه . وعندئذ أخبره محجوب بأنه تزو ج !. وهنأه الشاب مرة أخرى ، ودعا له بالتوفيق ، ثم قال :

ــ قابلت صديقنا على طه أمس ومكثت معه مدة طويلة ...

وخفق قلب محجوب لهذا الانتقال المفاجىء ، وساوره القلق ، ترى هل أدى الحديث إلى على طه كيفما اتفق ؟ أم علم على بزواجه وحدَّث به مأمون ؟ لم يكن من الممكن أن يظل زواجه سرا ، وكان حتما أن يعلم به على طه يوما ما ، ولكن كيف انتهى إليه ؟ وكيف فسَّره ؟ ونظر إلى مأمون ، فالتقت عيناهما ، وقرأ فى العينين السوداوين الصافيتين الارتباك والريب ، فلم يعد يخالجه الشك ، أن عينى مأمون مرآة صافية لا تعرف المكر ولا الخداع ، وهما تسألانه بلسان فصيح : « أحقا ما يقال ؟ هل خنت صديقك حقا ؟ » . ولم يجد فائدة من حمل صديقه على البدء بالسؤال ، فقال متسائلا :

ــ وكيف حاله ؟

فقال مأمون برزانة :

ــ على ما يرام ..

وساد الصمت برهة ، وأطرق محجوب . لقد صدق جدسه ما فى ذلك شك . ولكن لأى مدى عرفت الحقيقة ؟. إن الذين يعرفون الحقيقة ــ آل إحسان والبك والإخشيدى ــ لا يمكن أن يبوحوا بها لمخلوق ،

لأن البوح بها ضار بهم . ولو عرف مأمون الحقيقة لأبى أن يزوره ، فليس من طبعه أن يتظاهر باحترام شخص يراه أهلا لاحتقاره ، وهو ما جاءه إلا ليسمع دفاعه عن تهمة صديقه ـــ تهمة الخيانة فقط لا تهمة الزواج من فتاة صفاتها كيت وكيت طمعا فى وظيفة ـــ هذا هو الحق المبين . وقد ارتاح لمنطقه فلم يكن يعبأ بحزن على ، ولا هو يعبأ برأى مأمون فيه . ونظر إلى زائره بجسارته المعهودة وسأله :

ـــ ماذا يسوؤه ؟

ولم يدر مأمون ماذا يقول ، فعض على شفته مرتبكا ولاذ بالصمت . فضحك محجوب ضحكة فاترة كأنه يجيب نفسه :

ـــ زواجى .

فتساءل مأمون بلهفة :

ـــ هل حقا ...؟

فقال محجوب باقتضاب :

ـــ تزوجت حقا من جارتنا القديمة إحسان شحاتة تركى ..

فلاحت فى وجه الآخر دهشة ممزوجة بانزعاج ، فابتسم محجوب وقال :

ـــ ولكننى لم آت نكرا ...

وقص عليه كيف فترت العلاقة بين على وإحسان حتى انقطعت ، وأكد له أنه لم يتقدم لطلب يدها إلا بعد ذلك .

وسأله مأمون بصراحته المعروفة :

ـــ لست مسئولا عن فتور العلاقة وانقطاعها ؟.

فقال له محجوب بلهجة التأكيد :

ـــ مطلقا .

وانتهت الزيارة عقب ذلك . وشعر محجوب وهو يصافح مأمون أن الشاب يودعه الوداع الأخير ، وما أن سمع صفقة الباب وهو يغلق حتى بصق باحتقار وغضب ، وغمغم بحقد شديد « طظ » .

ـ ٣٥ ـ

واستلقى بعد الغداء فى فراشه دون أن يغمض له جفن . ونامت هى كالعادة إلى جانبه فجعل يستمع إلى تنفسها المنتظم الذى ألفه . ثم استسلم لتيار أفكاره العارم الذى حرمه لذة النوم . اليوم هجره مأمون ، وبالأمس هجر هو على طه ، فانقطعت صلته بأقرب الناس إليه .

ولم تكن الصداقة يوما بالشيء الذى يحرص عليه ، ولكنه يشعر بالغربة والوحدة ، وبأنه فى واد والدنيا كلها فى واد . أجل لم يرع صداقة إنسان ، ولكن أكثر من إنسان رعى صداقته فهيأ له شعور الأنس بالناس . أما الآن فالخيوط الواهية التى تصله بالناس تنقصف واحدا إثر واحد ، ويهوى هو إلى وحدة عميقة . ومن قبل كانت غرابة آرائه سببا فيما يعتريه الحين بعد الحين من شعور الوحشة ، فلما جازف بتحقيق بعض آرائه تضاعف شعور الوحشة ، وأحس أنه فى واد والدنيا كلها فى واد ، وتساءل فى جزع : كيف يطرد سحائب الوحشة عن صدره ؟.. ليس فى عالمه فرد واحد يوده . هؤلاء الموظفون الذين يتصل بهم لا يقرون إلا نوعا من الزمالة الإجبارية . وسالم الإخشيدى لا يبالى شيئا غير منفعته . فأين يجد الدواء ؟. وألقى ببصره إلى جانبه فرأى الوجه النائم ، وسمع التنفس المنتظم . أجل ، هى العزاء . وهى السلوى ، خلاصة ما بقى له من دنياه ، ولو ظفر بها ما اشتكى شيئا . وحقيقة قلقه اليوم ليست ناجمة عن قطيعة مأمون له ، بقدر ما هي ناجمة عن تذكر على طه وهواه . غدا قلبه فريسة للغيرة ، ولم يعد يؤمن بأن الأمر مجرد رفع الصمام عن خزانة البخار كما كان يحلو له أن يقول كلما سئل عن الحب أو المرأة . كان شعوره بالحاجة إلى زوجة عنيفا قويا ، فلعله كان نتيجة للشعور بالوحشة ،

أو لعله كان سببا فيه . ولم يكن ـــ حتى فى حالته تلك ـــ يؤمن بالحب كما عرفه على طه . ولم يعرج ببصره إلى السماء قط ، ولا حلم بالمثال والأوهام . بيد أنه شعر بحاجته إلى الفتاة كقوة مستبدة غشوم . لا تقع بمجرد بلوغ الجسد ، ولكنها تطمع فى أن تستبد كذلك برغبته وميوله وهواه ، فتكون رغبة متبادلة ، وحنينا متبادلا ، وبغير ذلك لا يمكن أن يشعر بأنه بدد الوحشة وفاز بالعزاء . هذه القوة المستبدة الغشوم تهزأ بالعقول الراجحة والنفوس المتعجرفة والفلسفات الساخرة . وابتسم ابتسامة المتهكم وجعل يقول تبا لهذه الغيرة الحقيرة .. ما جدوى غرور هذه الحياة إذا كانت الدنيا تفقد طعمها لمجرد إغضاءة من هذا الحيوان اللطيف .. ولم تخف عنه حقيقة مشاعره الجديدة . لقد قبل الزواج بادىء الأمر على أنه مساومة نفعية ، وأراد أن يتغلب على وضعه الشاذ بحريته المطلقة وطموحه اللانهائى ، ولكنه يطمع الآن فى أكثر من جسد زوجه ، يطمع فى عواطفها ولو أن حظه كان جمعه بغير إحسان ـــ الفتاة التى أحبها قديما ـــ لربما كان الحال غير الحال . أما إحسان فلا يملك إلا أن يحبها ؛ وقد تكدر صفوه بهذه الأفكار . رأى فيها نذيرا يهدد كيانه وحياته ، وقال لنفسه محزونا : عسى أن تكون آثار مرض وقتى أحدثته الوحشة المخيفة .

* * *

وحين العصر جلسا معا فى الشرفة يشربان القهوة . ولم يكن انقطع عن أفكاره لحظة واحدة حتى بدا تعبا قلقا . وجعل يتفرس فى وجهها بعينيه الجاحظتين حتى لاحظت ذلك ، كما لاحظت تعبه وقلقه وحدست أسباب ذلك ، وظنت أنها ترجع جميعا لليلة أمس . فلم تنبس بكلمة ، ولكنها ألقت عليه نظرة متسائلة . وأراد هو أن يشرح لها حالته فقال :

ـــ لم أنم ظهرا ..

فسألته وهى تتظاهر بعدم المبالاة :

ـــ ولمه ؟ ..

ولكنه لم يجب سؤالها ، وشعر بقوة تدفعه إلى اقتحام الغموض الذى يغشاه ويحيره ، فثبت عليها عينيه وقال :

ـــ أنت سر يجب أن أعرفه ..

فلاحت الدهشة فى وجهها الجميل الذى لم يكن أفاق تماما من أثر النعاس . وتمتمت :

ـــ سر !.

ـــ أجل . يجدر بنا أن نتكاشف .

ـــ نتكاشف !..

فلم يعبأ بدهشتها وحسبها تظاهرا ، ثم قال :

ـــ حياتك تثير فى النفس أسئلة محيرة ..

فأغضت دون أن تتكلم وبدا على وجهها الوجوم ، ولكن قوة مهما بلغت من الشدة لم تكن لتثنيه عما اعتزم ، فقال :

ـــ التكاشف فى حالتنا لا يقدر بثمن . ينبغى أن يفهم كلا منا صاحبه لنستطيع أن نتعاون على ما فيه سعادة حياتنا المشتركة ، اذكرى دائما أننا شريكان ، وأن كل شىء ما خلا هذه الشركة زائل ..

فأخذت آخر رشفة من فنجان القهوة وأعادته إلى نضد بينهما دون أن تنبس بكلمة أو تبدى رغبة فى الكلام . فاستطرد متسائلا بجرأته :

ـــ لماذا فعلت ما فعلت ..؟ .

فاحمر وجهها وقالت بحدة :

ـــ ولماذا قبلت ؟..

فقال بسرعة وبلهجة لينة توحى بالاعتذار :

ــ أنا لا أحاسبك ، ولكنى أريد أن أفهم .. لماذا ؟.. ألم ..؟
وأغلق فمه مرغما وقد تورد وجهه ، ثم استدرك قائلا :
ــ على طه ..؟
وطعنته وبسرعة اللهجة الحادة الغاضبة :
ــ لا محل لذكره ..
فسألها بصوت خافت :
ــ وقاسم بك .؟
وقطبت ، وجعلت تقرض ظفرها بانفعال ، ثم قالت بحدة :
ــ حملنى على معرفته ما حملك على قبول هذا الزواج ..
وأحس ارتياحا لهذا الجواب ، وقال بلين :
ــ لا تغضبى . أنا لا أحاسبك كما قلت لك ، بيد أنى أريد أن أعرف ، ألا .. أعنى هل .. ، أعنى قلبك : أجل قلبك !..
ــ قلبى !.. إن هذا التكاشف لن ينتهى بشىء ، أو هو لن ينتهى بخير . قلبى ؟!.. عم تتساءل ؟!.. ألسنا ... سعداء !
ــ بلى .. بلى ..
قال ذلك بسرعة ، وتفكر مليا . ثم سألها بجرأة عجيبة :
ــ وإذا منعتك عن البك ؟.
فنفخت باستياء ، وقالت :
ــ أطيع زوجى ..
وشعر بما فى إجابتها من تهكم فأدماه جرح عميق ، وتساءل عما جناه من تحقيقه الجرىء . فوجد نفسه حيث بدأ فى حيرة وقلق ، وأدرك أن على طه لا يزال مبعث غضبه وحنقه .. « لا محل لذكره » ما معنى هذا ، وقد قالتها بغضب !
غضب لحالة التدهور العامة التى انتابته ، لماذا لا يقاتل هذه العواطف

الخبيثة حتى يقتلها ؟ أيستسلم لما يستسلم له الحمقى من بنى آدم ؟!..
فلتحب على طه أو فلتحب قاسم بك . وليأت البك كل ليلة إذا أراد ،
وليلقين كل ذلك بما هو فوق طاقة البشر من الاستهانة والعبث . هذه هى
مسألته بلا زيادة ولا نقصان . بيد أن طموحه لا يجوز أن يقف عند حد :
لكل داء دواء ، ودواء العزلة التى يعانيها المجد والخمر ! يسطى عليه
فينبغى أن يسطو على الناس !. وغداً يلتمس بيوت الفجور ويعشق النساء
ألوانا !. فإذا انكشف سر زوجه يوما طمع أن يقال : إن زوجها أفسدها
باستهتاره ، وإنه شاب فاجر لا شيء آخر !. وتنهد فى شبه ارتياح لما انتهى
إليه تفكيره ، غير أنه لم يطمئن إلى الارتياح طويلا . ذكر ـــ متجهما ـــ أنه
يخاف الناس دائما ، وأنه يخافهم أكثر مما ينبغى ، وأنه يخافهم على
الخصوص خلاف ما تقضى به فلسفته ، ففيم التخبط والحيرة ؟! ومتى
يبلغ بحياته أقصى الكمال الذى ينشد ؟..

ـ ٣٦ ـ

ولم يعد لمثل ذلك الحديث مرة أخرى ، وبذل قصاراه فى تجنب
ما يعكر الصفو ويبلبل الخاطر . وكان إذا قاتل عن سعادته قاتل بعنف
ويأس غير مبق على شيء . وإذا كانت الحياة الزوجية لم تتح له ، فقد قام
بدوره خير قيام ، كما يقوم الممثل بدوره خير قيام حتى لينسى نفسه
فيضحك حقا ويبكى حقا . ظهرًا أمام الناس كزوجين سعيدين ، فلم تعوز
أحدهما الرغبة فى التوفيق والتلهف على السعادة ، أما حين يشعران جفوة
أو برودة فكأس أو كأسان يصلحان ما يوشك أن يفسد . وقد صدق عزمه
على أن يشغل وقته كله بحياته الجديدة حتى لا تجد الوساوس فرجة إلى
قلبه . وكانت وظيفته تستغرق جل نهاره ، ففكر أن يقتحم الحياة

الاجتماعية التى بدأها بزيارة آل حمديس ــ ليشغل ما يبقى من وقته ، . وليجنى من متع مظاهرها ما تجود به على مثله . وحادث فى ذلك إحسان ، وانتهز فرصة سانحة يوما فقال لها :

ــ عرفت جماعة من صفوة الموظفين الشباب وبعض الأعيان وقد دعانى أحدهم ــ دعانا معا ــ إلى حفل سيقيمه لعيد ميلاد ابنه ، فقبلت الدعوة بسرور .. !

فرفعت عينيها الدعجاوين ولم تدر ماذا تقول ، فعاد يقول بحماس :

ــ لا ينبغى أن نقبع فى دارنا ، انظرى إلى الإخشيدى كيف يعرف وجوه المجتمع العالى جميعا ، وكيف تدعم هاتيك الصلات بنيان حياته وأسس مستقبله ؟

وكانت فى أعماقها تتوق إلى التسلية والعزاء والسرور ، وترغب فى أن ترى وأن تعرف وأن تتناسى ، فرحبت بالاقتراح ، وقالت وقد سبقتها ابتسامتها إلى الموافقة :

ــ لنذهب ..

فسر الشاب ، كان يهوى دائما أن تشاركه اهتمامه وآماله . وكان يشعر دائما بغريزته بأنه إن نجح فى جذبها إلى محيط أطماعه فقد ضمن فوزا عظيما . لذلك سر ، وقال :

ــ إن مقتحم هذه الحياة البديعة كالرحالة الجسور لا يمكن أن يعود خالى اليدين .. وإن لى من وظيفتى لمركزا ممتازا ، وإن لك من جمالك لمكانة سامية ..

وذهبا معا إلى حفل الميلاد . وأحدثت إحسان بجمالها الفاتن أثرا بالغا واستعان محجوب بجسارته على تمثيل دوره ، ولم يعجز عن خلق الفرصة المناسبة لإعلان قرابته بأحمد بك حمديس . وعاد وقد ظفرت إحسان بإعجاب شاب وجيه يدعى على عفت ، وقد دعاهما الشاب بعد يومين إلى بنوار بمسرح الفانتزيو ..

وتقضت الأيام الباقية من يولية فى حياة مرحة حارة ، فارتادا السينما والصالات الصيفية . ودعى هو إلى البوديجا وجروبى وصولت . وأفضى بسروره يوما إلى الإخشيدى ، فقال وهو يمط بوزه استهانة :

ــ الطبقة العالية الآن خارج القطر. وستعود الحياة الحقيقيـة إلـى القاهرة فى أواسط أكتوبر ..

وقد هاله الأمر ، ولكنه قنع بمعارفه الجدد ، ولعلهم أن يكونوا أدنى إليه ــ أو لعله أن يكون أدنى إليهم ــ من أولئك السائحين فى بطون القارات الحية . بيد أن أمرا واحدا أزعجه ، هو تكاليف هذه الحياة المرحة الممتعة . هذه الحياة تفرض عليه العناية بلباسه كالنساء سواء بسواء ، وأن يقتنى الأنواع النفيسة ، ويختار الألوان الجميلة : مع ملاحظة الوفرة حتى لا تقع العين الناقدة على شيء واحد مرتين .. ولم يلق بين أولئك الشبان من يتحدث عن العروبة ، ولا من يناقش الاشتراكية أو أجست كونت . ومن بينهم جامعيون كثيرون ولكنهم متأقلمون ، فلا كلمة واحدة تذكر بحدائق الأورمان أو دار الطلبة . ووجد نفسه يهوى إلى التدخين ومشاهدة ألعاب القمار .

ولكن كيف يواجه هذه الحياة بمرتبه الصغير ؟!.. أجل إن قاسم بك يقوم بنفقات البيت والزوجة ! ولكن تبقى وجوه إنفاقه هو ، وهى تتسع يوما بعد يوم وتتنوع ساعة بعد ساعة !. وقد تفكر فى ذلك طويلا ثم قال لنفسه : « أمثالى يرتقون سريعا فى الحكومة ، فلا يجوز أن أتخلـف عنهم ! » .

* * *

وطابت حياة المجتمع لإحسان . استهوتها بما فيها من تسلية ومرح وفرص للظهور والمباهاة واستثمارات للإعجاب . وجذبت اهتمامها نحو أمور جديدة فبثت فى حياتها روح العناية والحماس ، وأنقذتها من تأملا حياتها ــ ماضيها وحاضرها ومستقبلها ــ والاستسلام للفكـر .

سرورها ما صادفها من نجاح ووداد . وكان قاسم بك فهمى مغرما بها غراما
جنونيا ملك عليه نفسه ، فجرى وراء هواها غير عابىء بمركزه أو أسرته أو
أبنائه . وأنفق عليها عن سعة حتى صارت زينة كل مجلس بفضل جمالها
ولباسها . تلك حياة ، أما القبوع فى البيت تنتظر أحد رجليها فهو فوق
ما تحتمل . بيد أنها رغم كل ذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل شأن فتاة
خلا من الحب قلبها . لم تكن تحب البك ، ولم يعد لسحره العجيب من
سلطان عليها ، والأرجح أن سحره زال مذ آنست غدره . ولعلها انطوت له
عن موجدة وحقد ، إلا أنها حرصت عليه حتى لا تذهب « تضحيتها »
هباء . وكانت فتاة ذات طبيعة عملية فأودعت الماضى مدارج النسيان ،
وولته ظهرها ، غير عابئة بغمزه على قلبها الحين بعد الحين ! فالماضى
المولى ورمزه الجميل — على طه — شيئان لا يعودان . وركزت اهتمامها
فى زوجها ، فهو شريك حياتها ، وهو قرين حاضرها ومستقبلها ، وقد
استأدته الحياة — مثلها — تضحية فظيعة ! وإنه ليهدف — مثلها
أيضا — إلى غاية واحدة ، ثم إنه بعد هذا وذاك شاب يمكن أن يحب ،
وأن يهب الحياة الزوجية السعيدة ، فكانت تشجع محاولاته فى سبيل
سعادتهما المشتركة ، تشاربه وتبادله القبلات وترجو أن ينتهى التمثيل
بحياة حقيقية ، ولو كان مزاج إحسان حيوانيا بحتا لبلغت ما تحب من
سعادة ، ولكن ما زال قلبها متشوقا إلى حنان ومودة لا يجدهما فيما تتيح
لها حياتها من لذة وترف . لذلك ما انفكت تشعر بفراغ وملل ، وكلما ألح
عليها هذا الشعور تمادت فى التهالك على حياة المرح والترف حتى فاقت
زوجها فى طموحه .

وكانت تغادر بيتها عادة كل صباح عقب خروج زوجها إلى عمله ، إذ
كانت تضمر للبيت نفورا جعلها أعجز من أن تستطيع البقاء فيه بمفردها .
وكانت المحال التجارية الكبرى هدفها المختار ، تنتقل بين معارضها ،
وتضرب فى طرقاتها المزدحمة ، وربما ابتاعت حاجة مما يلزمها ، غير

ملقية بالا إلى الشبان الذين قد يتعرضون لمغازلتها . وما حاجتها إلى رجل جديد وفي بيتها رجلان ؟.. وفضلا عن ذلك فقلبها كان يحدثها دائما بأنها ستألف زوجها يوما ما وتحبه وتخلص من حيرتها جميعا . أما إذا تمكن منها الملل وأدركتها السآمة فربما خرجت عن حكمتها ، وذكرت مثالب حياتها ــ والديها وزلتها وحياتها الراهنة ــ فاجتاحتها موجة تمرد ثائرة وحدثتها نفسها بالجرى وراء اللذة حتى قرارة بؤرتها ، ولكنها لم تفعل . كما أنها لم تتخذ قرارا نهائيا كما فعل محجوب فى مثل ظروفها تلك : كانت تتسكع كل صباح كالمتعطلين وربما استقلت الترام أو الأوتوبيس إلى بعض النواحى النائية ذهابا وإيابا . وعلمت يوما أن إحدى صديقاتها ستنتقل يوما مع زوجها إلى مفوضية روما . فأثر فيها الخبر تأثيرا عجيبا ، وتمنت لو تستطيع أن تجوب بلدان الأرض جميعا . فما أجدر مثل هذه الحياة النشيطة أن تنسى كل ذى هم همه ، وأن تسدل على تفاهة الحياة ستارا كثيفا . وقالت لمحجوب وكان قد علم الخبر :

ــ ما أمتع أن يسافر الإنسان إلى روما ..!

فسألها بدهشة :

ــ هل ترغبين فى السفر حقا ؟

ــ أجل .. لم لا ؟

فقال وقد ابتسمت شفتاه :

ــ والبك ؟

ــ عسى أن يكرمنى بهذه الخدمة فيما بعد ..

وأدرك ما تعنيه بقولها « فيما بعد » ، فهز كتفيه وقال :

ــ إذا فتر هواه يوما فلن يفعل شيئا مطلقا ..

والتقت عيناهما فى نظرة ذات معنى ، وأراد أن يستغل الفرصة السانحة أبعد استغلال فقال :

ــ إنه الآن يذعن لرغباتك فلا تفلتن من بين يديك هذه الفرصة

الجميلة . الفرصة السعيدة لا تسنح فى عمر مرتين : تناسى هذه الرغبة الفجائية فى السفر فهى رغبة خيالية ، واعلمى أنك إذا فقدت حبه يوما فستلقى الحياة عابسة متجهمة . إذا لم نحسن الاستفادة من ظروفنا فسنضطر غداً إلى مغادرة حينا هذا إلى حى فقير . وليغلقن المجتمع الراقى أبوابه فى وجوهنا ، ولنكونن أضحوكة المتندرين ، فينبغى أن نحتاط للمستقبل البعيد ..

وتفكر فى كلامه قليلا فوجد أنه يتكلم كما يتكلم القوادون بيسر وبغير مبالاة . وسر لمقدرته ، وعدَّها فوزا مبينا لفلسفته وإرادته . وتفكرت إحسان فى كلامه طويلا ، فلم تلبث أن اقتنعت بما فيه من حكمة وبعد نظر ..

ـ ٣٧ ـ

وجاء أول أغسطس ، وقبض أول مرتب له من الحكومة ، وهو مرتب لم يكن ليحلم به أيام الجوع ، فمن عجب حقا أنه لم يسر به !. توزعته المطامع وتعددت رغائبه فباتت حياته كالنار لا تشبع ولا تقنع . وذكّره المرتب بوالديه اللذين ينتظران على لهفة نصيبهما من مرتبه ، لا شك أن مكافأة والده نفدت ، ولعله يبيع الآن أثاث البيت كما فعل هو فى فبراير الماضى ، وسيعجز حتما عن أداء إيجارة المسكن ، وربما وجد والداه نفسيهما بلا ماوى وبلا طعام . ما عسى أن يفعل ؟

كان حكيما بلا ريب حين قرر أن يخفى عن والده تعيينه ، وقد احتاط للأمر فرجا الإخشيدى ألا يذيع الخبر فى القناطر حتى لا يعلم به أحد قبل الوقت المناسب ، ولكن متى يجىء الوقت المناسب ؟. إن مرتبه لا يفى بتكاليف هذه الحياة الراقية ، فهو يدرك قصوره عن الظهور كما ينبغى ، فإذا تنازل لوالديه عن جنيهين أو ثلاثة اختل ميزانه وافتضح أمره وانهارت

آماله ! فكيف يواجه هذه الصعاب ؟! وتولاه الغضب كان دأبه الغضب إذا تحير أو ارتبك ، كأنما يعتقد فى قرارة نفسه أن لا شىء يستحق الحيرة أو الارتباك ، ولكنه ذكر على رغمه والديه ، وتماثلت له صورتهما ، أبوه على فراش المرض — ولم تحرك هذه الصورة نفسه إلا بقدر يسير — وصورة أمه بعينيها الضعيفتين وصمتها الرهيب وإيمانها العميق به وبمستقبله ، وقد حاول أن يهرب منها أو يطردها عن مخيلته فلم يفلح ، فأجمع على أن يقهر ما توقظه فى نفسه من عاطفة بقوة وصرامة . لم يكن حبه والديه دافعه الأول إلى التفكير فيهما ، ولكن شعوره بالتبعية نحوهما كان الدافع ، وفطن إلى هذه الحقيقة منذ البدء ، فكانت من أسباب مضاعفة غضبه . ألا يزال يعلق بنفسه شىء من الأوهام ؟. ما البنوة ؟ أليست عادة سخيفة لاحقة بظاهرة الأسرة ؟ بلى ، وسيكفر بها كما كفر بأخوات لها من قبل ، ولن يراعى إلا ذاته ومجده ولذته .. وتساءل لماذا يعيشان ؟ وما فائدتهما فى هذه الحياة ؟ وما معنى الحياة لهما ؟ لماذا لا يموتان فيستريحان ويريحان ؟ البر بالوالدين شر إذا عاق سعادة الابن ، بل كل ما يعود سعادة الفرد شر . هذا واضح بيِّن ، وهو يؤمن به إيمانا عميقا ، ولكن ماذا هو فاعل ؟ أيقطع كل صلة له بالقناطر ويترك والديه يلاقيان مصيرهما وحدهما ؟ وكيف يدبر لهما النقود التى يحتاجان إليها ؟ الواقع أنه لا يستطيع الإنفاق عليهما. والظاهر أنه لا يستطيع كذلك أن ينساهما !

* * *

وظل مغتما متفكرا حتى غادر الوزارة ، ولم يكن بتَّ فى الأمر برأى وإن كان شعوره بأنانيته لا يغلب . وعند شارع قصر العينى التقى بالأستاذ أحمد بدير خارجا من إدارة الجريدة ، وتصافحا بحرارة ، وما لبث أن عاوده شعور الخوف الذى ينتابه كلما ذكر هذا الصديق المخيف . ومشيا جنبا

إلى جنب يتحادثان كعادتهما القديمة فى طريق الجامعة وحديقة الأورمان . وسأله الشاب الصحافى عن حاله وعن عمله وعن قاسم بك ، وحدثه عن مشاق حياته الصحافية . وكأنما أراد محجوب أن يجامله فقال :

ـــ الصحافة فن خطير ، والوظيفة الحكومية بالنسبة إليها لهو ولعب ..

فقال أحمد بدير بسرور :

ـــ صدقت أيها الصديق العزيز ، ولذلك فإنه يدهشنى أن يزهد شاب مثلنا فى العمل الحكومى ويهجر وظيفة محترمة ليجاهد فى ميدان الصحافة ..

فلاح التساؤل فى وجه محجوب وتمتم :

ـــ حقا ؟!

ـــ أجل . هو صديقنا الأستاذ على طه ..

وقلقت عيناه الجاحظتان ، ولاحت فيهما نظرة متجهمة ، ثم داراها بالدهشة وقال متعجبا :

ـــ على طه !

فقال أحمد بدير :

ـــ إنه شاب جسور مثالى ، فسرعان ما ضاق ذرعا بمكتبة الجامعة ، واتفق مع بعض زملائنا على إصدار مجلة أسبوعية للدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى ..

ـــ والماجستير ؟

فقال أحمد بدير :

ـــ قال لى : لندع البحث للباحثين ، ولنركز همّنا فيما هو أجل ، وليكن جهادنا كله لمصر وكيف تحول من أمة عبيد إلى أمة من الأحرار ..

فتفكر محجوب عبد الدائم مليا دون أن يبدو على وجهه شيء ، ثم

قال :

ــ الواقع أن الأستاذ على طه ذو طبيعة عملية ، فهو لا يصلح للتفكير العلمى النظرى ..

فلحظه الصحافى بنظرة حادة ، وقال :

ــ هذا لا يعيبه . الطبيعتان على اختلافهما جليلتان . والحق أن صديقنا شاب مخلص متحمس ، ولقد ركل الحياة المطمئنة ليدعو إلى مثله العليا على ما فى ذلك من مشقة وخطورة ، فليست مبادىء صاحبنا بالمبادىء التى يأمن معها الصحافى على نفسه ، وربما تعرض لسفاهة السفهاء ، وتهجم الجهلاء المتعصبين ، وربما سيق إلى ما هو أخطر من ذلك جميعا ، ما عسى أن ينتظر من يدعو إلى الإيمان بالعلم والمجتمع والاشتراكية ؟

ولم يجب محجوب ، ولكنه تساءل :

ــ وهل صدرت المجلة ؟

ــ تصدر فى أوائل هذا الشهر .

فقال محجوب بعد تردد :

ــ وكيف جاء بالمال اللازم لمثل هذا المشروع ؟

ــ أعطاه والده مائة جنيه ..

فتساءل محجوب كالساخر :

ــ وهل يؤمن ذلك الوالد الموسر بالاشتراكية ؟

فضحك بدير وقال :

ــ لعل الرجل يعد مشروع المجلة عملا تجاريا ، فأعانه بما فى وسعه وهو وشأنه بعد ذلك ..

فهز محجوب رأسه وقال بلهجة لا تخلو من الاحتقار :

ــ طالما حدثنا على طه فى دار الطلبة عن مبادئه ، والحديث لون من ألوان السمر الجميل . أما أن يهجر الإنسان عمله ، ويتخذ من الحديث

عن مبادئه عملا قد يؤدى به إلى غيابات السجون فسلوك أقل ما يقال فيه إنه جنون ، وما صاحبنا بمجنون ، فكيف فعل هذا ؟.. انظر إلى صاحبنا مأمون رضوان !. وكيف حدثنا طويلا عن الإسلام ؟.. ثم انظر إليه وقد جمح لسفر إلى باريس ليتأهل لوظيفة الأستاذية العظيمة .. هذا شاب حكيم ..

فقال بدير بسرعة وبلهجة نمت عن الدهشة :

ــ مأمون رضوان شاب مخلص أيضا . وأؤكد لك أنه سيتم تعلمه بتفوق كالعهد به ، وأنه سيكون إماما من أئمة المسلمين هذا أمر لا شك فيه ..

ــ أو فيه شك كبير ..

فهز بدير منكبيه ، ولكنه لم يجادل صاحبه لأنهما كانا اقتربا من ميدان الإسماعيلية حيث ينبغى أن يفارقه ، واكتفى بأن قال :

ــ لقد عقد الأستاذ مأمون بالأمس زواجه ، وسيسافر الزوجان إلى الخارج فى نهاية هذا الشهر ..

ها هى ذى الخطوط الأولى لهذه الحيوات المتناثرة ترسم فى صحيفة الدنيا الواسعة ، ولا يدرى أحد كيف تصير فى الغد القريب أو البعيد ، ولا ماذا ينتظر أصحابها من حظوظ ومقادير ، وكل ما يدريه أن حياةِ أى منهم يمكن أن يذيعها راوية كأحمد بدير إلا حياته ، فإنها إذا ذاعت على حقيقتها اعتبرت فضيحة !. وما يعنيه ذلك فى كثير أو قليل ، ولكن ينبغى أن يخاف سوء العاقبة ، كما ينبغى لعاقل يعيش بين حمقى ومجانين ! ولم يستطع أن يستشعر الطمأنينة ، ولا أن يستهين بالكآبة التى تولته . ومن عجب أنه وعلى طه نقيضان ، ومع ذلك فلا يبعد أن يقذف بهما المجتمع إلى أعماق السجون غير مفرق بين عابده والكافر به !.. وبلغا الميدان . وسمعا باعة الجرائد ينادون عليها منوهين باجتماع حزب الحكومة . وتذكر الأستاذ بدير أمرا فقال وهو يصافح صاحبه مودعا :

ـــ على فكرة . لقد فقد رئيس الحكومة عطف السراى !

فاضطرب محجوب ، وذكر أن قاسم بك فهمى من رجال العهد الحاضر المعروفين وتساءل :

ـــ والإنجليز ؟

فمط الشاب بوزه وقال :

ـــ قلب المندوب السامى قُلّب ..

وافترق الشابان : واتجه محجوب إلى شارع سليمان باشا متجهما مكتئبا . ولكن أنقذه هذا الاضطراب الجديد من الحيرة التى لازمته منذ قبض مرتبه ، ولم يعد إزاء الخطر الماثل يتردد فى الحكم على والديه ، فكانا أولى ضحايا الأزمة السياسية ..

ـ ٣٨ ـ

ونقل الخبر إلى زوجه ، فكان حديثهما على المائدة ، وفى الشرفة ، وتساءلا معا : هل يبقى قاسم فهمى أو يذهب بذهاب الحكم ؟. وكان البك من رجال العهد القائم المعروفين بعداوتهم الحزبية ، فلم يكن ثمة أمل فى بقائه إذا استقالت الوزارة ، وقال محجوب :

ـــ إذا أحيل البك إلى المعاش نقلت حتما إلى وظيفة مغمورة ـــ إن لم يقذف بى إلى أقاصى الريف ـــ وفقدت آمالى البعيدة إن لم أفقد وظيفتى نفسها ..

أكان كافح ما كافح ليجنى هذه النهاية المحزنة ؟! أهذه خاتمة الجسارة والمغامرة والاستهانة بكل شىء ؟.. لقد امتلأ غما وكمدا ، وجعل ينظر إلى زوجه بعينين مظلمتين لا تريان شيئا . ولم تكن إحسان دونه غما أو كمدا . فكّرت مثله فيما يمكن أن يتكشف عنه الغد ، وتخايل لعينيها المصير المنتظر . لم يعنها كثيرا فقدان الآمال البعيدة ، ولكن كربها تزعزع الطمأنينة الحاضرة . هل تحرم هذه الحياة الناعمة الراغدة ؟.. هل

ينضب النبع الذى يروى أسرتها العطشى ؟ لتجد نفسها يوما فى إحدى مدن الريف ربة لبيت باهت تقف حياتها على خدمته ورعاية صاحبه ؟. هذه الخواطر بالأحلام المزعجة أشبه . ولم تدر كيف تواجهها غدا إذا صارت حقائق واقعة !. ولكن الظاهر أن الخبر كان سابقا لأوانه ، ولم يجدا صدى في الجرائد التي عكفا على قراءتها بعناية . وأكد لهما كثيرون من الأصدقاء أنه لم يئن الأوان بعد . وتتابعت أيام أغسطس فى هدوء حتى ألفا الطمأنينة مرة أخرى ، بل عاد محجوب يذكر والديه ويتساءل عما ينبغى أن يصنع بهما . وكان هذه المرة ذا عزيمة صادقة فكتب خطابا لأبيه يعرب له عن أسفه لعجزه عن معاونته ، وذكر له أنه لا ينى عن البحث عن عمل ، ووعده بفرج قريب ، وقال لنفسه ، يسكن خاطرها : إن الرجل يستطيع أن يصبر شهرا آخر أو شهرين حتى يدركه بالمعونة فى ظروف أنسب ؟.. ولكن الطمأنينة لم تدم . وبعث الخبر الذى أعلنه أحمد بدير أول الشهر من جديد . وتطايرت الإشاعات حتى ملأت الجو . وبات الأفق ينذر بشر مستطير . وعاد الزوجان إلى أفكارهما ، وساورتهما المخاوف . وقد قابل محجوب مديره سالم الإخشيدى فى مكتبه يوما ليسأله عما هنالك ؟ ووجده كما عهده دائما هادئا رزينا . ولكنه لم يتأثر بهدوئه ولا برزانته لأنه يعلم حق العلم أنه لا يخرج عنهما حتى فى أحرج الأوقات . ورفع إليه الرجل عينيه المستديرتين متسائلا ، فسأله الشاب وقد ظل واقفا :

ـــ ما حقيقة هذه الإشاعات التى تتناقلها الألسن ؟

فسأله الإخشيدى بصوت لم يفقد أية رنة من رنات الرياسة :

ـــ أية إشاعات ؟

ـــ سقوط الوزارة . ماذا وراء الأكمة ؟.

فابتسم الإخشيدى وقال :

ـــ وراء الأكمة ما وراءها !.

ـــ هل حقا يمكن أن يزول هذا العهد ؟

فقال الإخشيدى وقد تملكته رغبة عابثة فى تعذيبه :

ــ كل شىء زائل ..

فملأه بروده حنقا وغيظا حتى اضطر إلى مداراتهما بالابتسام وقال :

ــ سعادتك تعلم أشياء وأشياء بلا ريب ..

وأبت عليه نفسه أن يقول إنه لا يعلم شيئا ، فابتسم ابتسامة غامضة وقال بثقة :

ــ انتظر . إن غداً لناظره قريب ..

ــ أما من كلمة مطمئنة ؟

وعاودته الرغبة فى تعذيبه فسأله متجاهلا :

ــ ماذا يخيفك ؟

فاتسعت عينا الشاب الجاحظتان دهشة ورفع حاجبيه ، ثم قال :

ــ ما أجمل أسوان فى أغسطس !

فهز الإخشيدى كتفيه استهانة وقال :

ــ كل مكان ينبت العز طيب .

ــ الإشاعات صادقة إذن ...

فصمت الإخشيدى لحظة منقبا عن إجابة لا تكشف جهله غدا أو بعد غد ، ثم قال :

ــ لا يعلم أحد حتى هذه اللحظة ، أما بعد ذلك فالسياسة مجنونة ..

وعاد إلى حجرته مغيظا محنقا يقول لنفسه : « ابن الست أم سالم يريد أن يوهمنى بأنه سياسى داهية ، تبا له ! » .

وعند الظهر ملأت الوزارة إشاعة بأن الوزارة قدمت استقالتها بالفعل ، وقال قائل : إنه اتصل ببولكلى بالتليفون فأكد له الخبر . وعمّت الموظفين حركة عنيفة لا تظهر إلا إبان الاستقالات ، فانطلقوا فى الردهات يتحدثون بأصوات مرتفعة عن الوزراء الجدد . واضطرب الشاب أيما اضطراب ولاح

فى عينيه الوجوم . وجاءه الساعي وأخبره بأن قاسم بك غادر الوزارة ، فاتصل بالإخشيدى بالتليفون وسأله عن الجهة التى ذهب إليها البك ، فأجابه بأنه لا يدرى . وخاطب ــ بالتليفون ــ جمهرة من صحبه فى الوزارات المختلفة وتلقى الإجابات : ماذا عندك من الأخبار يا فلان ؟ ــ الحالة حرجة ، ما آخر الأخبار يا أستاذ ؟ قطران ، هل من جديد يا فلان ؟ ــ ضربوا الأعور على عينه ، أسمعت الإشاعات الغريبة يا عزيزى ؟ ــ عن الوزارة ؟ إلى الجحيم يا سيدى ! وهكذا حتى أيقن أن الوزارة فى النزع الأخير . ورن جرس تليفونه ، وإذا بالمتكلم إحسان زوجه فأوجس خيفة :

ــ هل جاءك النبأ ؟

ــ الوزارة ؟

ــ نعم . استقالت ..

ــ كيف علمت هذا ؟..

ــ ملحق الجرائد ..

ــ إذا ..

ــ إنى أكلمك لأطمئنك .

ــ كيف ؟ .. هذا كلام غير معقول ..

ــ بل معقول جدا . سأحدثك بالتفصيل عند عودتك ، اعلم الآن أن البك قال لى إن الوزارة ستتغير ، أما العهد فباق كما كان ..

ــ أمتأكدة أنت ؟

ــ ولدىَّ أخبار تسرك غير هذه ستعلمها حين عودتك ..

وأغلقت التليفون فنهض الشاب من فوره وغادر الحجرة . وفى الطريق سمع باعة الصحف ينادون بأعلى أصواتهم على استقالة الوزارة ، وانس الاهتمام والسرور يجريان مع الهواء فى كل مكان . ذهب الطاغية ، غار

سفاك الدماء . وانفك حبل الاستبداد عن أعناق المصريين أو كاد . لم يشاركه أحد سروره ، ولولا ما بشرته به زوجه لانتحب باكيا . ووجد إحسان فى انتظاره ، فاستقبلته بابتسامة عذبة ، وأقبلت عليه تحدثه بما عندها من أخبار ، وأعادت على مسمعيه ما قالته فى التليفون ، ثم سألته :

ــ أتدرى من وزيرك الجديد ؟

فسألها متعجبا :

ــ من ؟

ــ قاسم بك فهمى ..

رمقها بنظرة ذاهلة وقد تورد وجهه ، وسألها :

ــ أقال لك هذا ؟

ــ أجل ..

غمره شعور ارتياح وسرور ، ولكنه لم يطمئن به طويلا ، وما لبث أن نتف حاجبه الأيسر وهو يقول :

ــ وزيرا !... ليته ظل كما كان !.. الوزارة تقليد لا تخليد ، فمن لنا غدا ؟..

ولكن ريبه لم يؤثر فيها ، فقد خالت إن الوزارة آلت إليها هى ، وقالت بإنكار :

ــ إنه الوزير ، ألا تفهم ؟..

ــ بلى يا عزيزتى ، هى فرصة سعيدة ، بيد أن الوزارة قصيرة الأجل كالأحلام السعيدة ، وسيستقيل غدا أو بعد غد ، ونجد أنفسنا بلا نصير ، أو تحت رحمة أعداء لا يرحمون ...!

فلم تحر جوابا ، ومضت تنتقل إليها عدوى القلق حتى لعنته فى سرها وجعل الشاب يزن الأمور واحتمالاتها بفكر سريع نافذ ، ثم قال :

ــ هذه هى فرصتنا الأخيرة ، فإما نحسن انتهازها فنحن فى عيشة راضية ، وإما ندعها تفلت من أيدينا فالعاقبة الهوان .

والتقت عيناهما ، وأدركت ما يرمى إليه ، ولكنها انتظرت حتى يفصح عن رأيه . واستدرك محجوب قائلا :

ـــ إذا استقال ونحن فى مركز « معقول » فلن نأسف على ذهابه ..!

واستأنف الكلام بعد صمت قليل :

ـــ ينبغى أن ألحق بمكتبه ..

ـــ سكرتيرا له ؟

فهز رأسه كأنه يقول : « هذا لا طائل تحته » واستدرك :

ـــ سكرتيره درجة سادسة فلا فائدة فيها ، أما مدير مكتبه فدرجة رابعة !

ـــ أيمكن القفز من السادسة إلى الرابعة ؟

ـــ يمكن ترقيتى إلى الخامسة خصما على الرابعة ، وفى الكادر تأويلات تتسع لكل شىء ، فما رأيك ؟

وعضت على شفتيها لتخفى ابتسامة خيلاء ، وكانت تدرك أن أية درجة يرقى إليها فكأنما ترقى إليها هى ، ولم يداخلها شك فى أن الدرجة الرابعة المرجوة تستطيع أن تحتفظ لها بمستوى الحياة الذى تتمتع به الآن ، فبادلته شعوره بإخلاص ، وتمتمت قائلة بصوت خفيض :

ـــ لا أظنه يرفض لى رجاء ...

فقال بحماس وإيمان :

ـــ همتك ، همتك يا بطلة ! فعلى نتيجة سعيك يتوقف مصيرنا .

وفى صباح اليوم الثانى تناول الأهرام باهتمام ، ونظر فى الصفحة الأولى ، فجرى بصره على عمود من الصور ، صور الوزراء الجدد . ووجد فى وسطه مبتغاه ، صورة قاسم بك فهمى ، فاستقرت عليها عيناه ، وتنهد من الأعماق . ترى هل يتحقق هذا الأمل !.. هل تستطيع قبلة أو رنوة أو تنهدة أن تنقله من حال إلى حال ، وأن تدفعه من طبقة إلى طبقة ؟

— ٣٩ —

ومضت أيام قلائل وجعل الوزير الجديد إقامته فى القاهرة — لا فى بولكى — لحالة ربو يعانيها منذ سنوات . وفى اليوم الرابع لتوليه الوزارة علم محجوب أنه قد استقر الرأى على اختياره لوظيفة مدير المكتب . استقبلته إحسان بابتسامة وقالت بخيلاء « مبارك .. » فاهتز فؤاده سرورا ، واضطرب اضطراب المفاجأة كأنه لم يركز كل اهتمامه فى هذا الأمل طوال الأيام الأربعة الماضية . صار الأمل حقيقة رائعة . وسيصبح من كبار الموظفين . ليست الدرجة الخامسة بالحظ الذى يستهان به ، فما بالك إذا كانت خطوة قصيرة إلى الرابعة ؟! وتخايلت الرابعة لعينيه مرسومة بألفاظ واضحة ، ثم تحولت إلى صور ذهنية على هيئة كرسى كبير ، وأحاط بالكرسى سعاة ، ومثل أمامه خلق كثيرون من جميع الطبقات . ولم ير نفسه وهو يتخيل هذا المجد وإلا لسخر منه كعادته ، فقد قطب متكبرا وألقى على ما أمامه نظرة مرتفعة من رأس شامخ . ولذ له فى تلك الساعة أن يفر صفحات الماضى القريب : ليالى فبراير ، دكان الفول بميدان الجيزة ، رحلة الأهرام ، تردده بين الجيزة وشارع الفسطاط والإخشيدى مادا يده بالسؤال ، زواجه ، ثم هذه النهاية !... ولاح له رأسه المفعم جسارة وفلسفة كمصباح يهدى سواء السبيل ، فطاب نفسا ، وفرك يديه حبورا .

وذهب إلى الوزارة مبكرا فى اليوم الثانى . وجلس إلى مكتبه الذى يوشك أن يهجره ، وقد بدا لعينيه حقيرا ، ولكنه لم يكن أول المبكرين .. فتح الباب وبدا عند عتبته الأستاذ سالم الإخشيدى !..وانقبض صدره انقباضا لم يبد على وجهه بطبيعة الحال ، ووقف مبتسما يستقبل القادم

وهو يتساءل فى نفسه ما الذى دعاه إلى التنازل عن كبريائه والقدوم إلى مكتبه ؟!. ومد له يده بسرور وهو يقول :

ـــ أهلا بسعادة البك . تفضل بالجلوس !.

وجلسا معا . وجاد الإخشيدى بابتسامة من ابتساماته النادرة ، وتكلم كلاما عاما عن الوزارة الجديدة ، والبك الذى ينتظر أن يخلف قاسم بك ثم قال بهدوئه المعهود :

ـــ لدى ما أحب أن أكاشفك به ، وقد أمرت ساعيك بأن لا يأذن لأحد بالدخول ..

وحدس الشاب ما يريد قوله ، وأحس استياء وحنقا ، ولكنه قال بلهجته الدالة على الترحيب والسرور :

ـــ حسنا فعلت ، وهأنذا رهن أمرك ..

فصوب الإخشيدى نحوه عينيه المستديرتين وقال :

ـــ الأمر جد خطير ما دام يتعلق بمستقبلنا ، وسنجنى من ورائه نفعا مؤكدا متبادلا . ولكنى أحب أن أسألك سؤالا قبل كل شىء : ألم تجدنى صديقا مخلصا ؟

ـــ بل خير الأصدقاء جميعا ..

قال محجوب ذلك وهو يعجب لهذه اللهجة اللينة اللطيفة التى لم يتعود الإخشيدى الكلام بمثلها من قبل . أين الأمر والنهى والزجر ؟ أين البرود والتعالى ؟ وقد شعر فى أعماقه بدبيب الحنق والسخرية ، ثم استمع إليه وهو يقول :

ـــ شكرا لك . صداقتنا هذه كنز نفيس . وبفضلها تستطيع أن نقتحم الصعاب يدا واحدة ...

ـــ نطقت بالحكمة كعادتك يا بك ...

وجعل يقول فى سره : تكلم عن الصداقة كيف شاء لك الخداع . فأنا

أعرفك كما تعرف نفسك أيها الشيطان الماكر . وحسبى أن أعرف نفسى كى أعرفك حق المعرفة ، ولكل شىء آفة من جنسه !.

وحدجه الإخشيدى بنظرة ثاقبة وقال :

ـــ علمت أن مذكرة تكتب لندبك مديرا لمكتب الوزير ...؟

هذه هى النقطة الجوهرية . أيريد أن يتنازل له عن الوظيفة !!.. يا له من أحمق . كيف غاب عنه أنه تلميذه !. إن الدين والأخلاق والتقاليد لم تستطع أن تحول بينه وبين هذه الوظيفة ، فهل يظن أن « صداقته » تنجح فيما أخفقت فيه جميع القوى !. قال بهدوء :

ـــ أجل . علمت ذلك بالأمس فقط ...

فقال الإخشيدى :

ـــ إن ذلك يسرنى بقدر ما يسرك ، بيد أنى أحب أن ألفت نظرك إلى أن درجة مدير مكتب رابعة وأنت فى السادسة ، فإذا وجدت درجة خامسة خالية فقد بلغت مرادك . خذ وظيفتى ودع لى وظيفتك الجديدة يتحقق أملنا جميعا .

وتساءل محجوب فى سره أغبى هو أم يتغابى ؟! فلم يدرك أنه يطمع فى الرابعة نفسها ؟ وهب القفز إلى الرابعة تعذر عليه فهل من شك فى أنه يفضل أن يكونا فى الخامسة معا عن أن يمهد له سبل التفوق عليه ؟. ونظر إليه متظاهرا بالاهتمام وتساءل :

ـــ وماذا تريدنى على أن أفعل ؟

فقال الإخشيدى :

ـــ صارح الوزير بأنك قانع بوظيفتى ..

وجاءت الدقيقة الفاصلة !. وكان يدرك بلا ريب أن أسطورة الصداقة التى تغنيا بها معا رهينة بكلمة واحدة ، فتردد قائلا ، وذكر أن عداوة الإخشيدى شىء لا يستهان به فليس الرجل بعلى طه أو مأمون رضوان

اللذين لهما من شرفهما وازع . هذا رجل ـــ مثله ـــ بلا خلق ولا مبدأ ، وهو يعرف كل شيء ، فماذا يصنع ؟!... وتفكر مليا . قال إن سره سيعرف يوما بلا ريب ، إن لم يكن عرفه بالفعل أمثال أحمد بدير ، وماذا نال تهكم بدير من أبطال حفلة جمعية الضريرات ؟!... طظ ؟!. كلا ثم لا ينبغي أن يتردد ، وليذهب الإخشيدى وصداقته إلى الجحيم !. واجتاحته عاصفة استهانة ، فقال :

ـــ ألا ترى يا سالم بك أن هذا معناه رفض شرف آثرنى به الوزير ؟!

فرمقه الإخشيدى بنظرة غريبة كأنها تقول له . « يا بن اللئيمة ! » . ولكنه حافظ على هدوئه بقدرة عجيبة ، وصمت برهة ، وقد هم بمراجعته ، وأوشك أن يرسم ابتسامة من ابتساماته ، وانتظمت على لسانه عبارات لطيفة ، وكاد يذكر كلاما عن الصداقة والتعاون ، ولكن إرادته منعت ذلك كله ، فظل صامتا جامد الوجه والنظرة ، واكتفى بأن تساءل بلهجة لا تدل على شيء :

ـــ أهذا رأيك ؟!

فقال محجوب بغير مبالاة وقد تلبسه شيطانه :

ـــ أجل . ألا تشاركنى رأيى ؟!

فتمتم الإخشيدى وهو يحول عنه عينيه .

ـــ معقول . لك حق . أشكرك . مبارك !

وغادر الحجرة بخطاه الوئيدة وقد عاوده كبرياؤه . وارتفق محجوب مكتبه متفكرا !. سبق أن خسر على طه ومأمون رضوان وكان ينسى سريعا . أما هذه المرة فقد ساوره الخوف ، وقد ثار بخوفه ، وكور قبضته غاضبا ، وكأنما أراد أن يتناسى همه فنهض قائما ، وغادر الحجرة إلى إدارة المستخدمين ليطلع بنفسه على مذكرة ندبه ...

— ٤٠ —

واحتل الأستاذ محجوب عبد الدائم ـــ أو محجوب بك عبد الدائم من الآن فصاعدا ـــ حجرة مدير مكتب الوزير . ووفد عليه كبار موظفي الوزارة مهنئين . فكان يوما عظيما ومجدا مشهودا . وهنأه البعض بالدرجة الرابعة « مقدما » كأنها باتت أمرا مفروغا منه !. أما سالم الإخشيدى فلم يهنئه . وأعلن بذلك عداوته صراحة . وقد ذاع خبر فى الوزارة بأن الإخشيدى سينقل إلى الخارجية وبأنه سيرقى هناك إلى الرابعة . فلم يغب عنه المصدر الذى خرج منه الخبر ، ولكنه لم يستبعد صحته ، لأنه كان يعلم بصلات الرجل بكبار رجال الدولة ، وقد قال لنفسه : « الإخشيدى قوى بلا جدال ، ولولا زوجى ما تغلبت عليه ولكان اليوم فى مكانى هذا ... » . وداخله سرور . فإذا نقل الإخشيدى حقا خلا له الجو وصار رجل الوزير الأول ، كما صارت زوجه من قبل امرأة الوزير الأول ؟ . سر لذلك بلا ريب ، بيد أن سروره لم يدم طويلا . عاد يفكر فى غضب الإخشيدى وانتقامه وفيما عسى أن ينجم عن هذا وذاك : وسرعان ما أدركته روح الاستهانة فاسترد مرحه وجعل يقول لنفسه : إن الناس يحبون المظاهر ويخدعون بالرياء ، فإذا اضطر للدفاع عن نفسه عاطاهم ما يشتهون من تظاهر ورياء ، ولو بلغ به الأمر أن يشترك فى جمعية الشبان المسلمين مثلا !. فطظ فى كل شيء إلا الناس . على الأقل فى العلانية . ولكنه لم ينته عند ذاك من الإخشيدى وغضبه ، خطر له خاطر أزعجه أيما إزعاج وقد عجب كيف أنه لم يخطر له من قبل ؟ الإخشيدى جار قديم من القناطر ألا يجوز أن تبلغ به الرغبة فى

الانتقام أن يفشى سره بطريقة ما إلى والديه ؟ ازدرد ريقه بصعوبة وقد علت وجهه صفرة باهتة ، وجعل ينتف حاجبه متفكرا مغتما . ولبث متفكرا مغتما حتى كبر عليه أن يذهب سروره — يوم مجده — ضحية وساوس قد لا يكون لها أثر من الحقيقة ، فنفخ مغيظا محنقا ، وكور قبضته غاضبا ، وقال لنفسه : قضى الأمر ، وكان ما كان ، فليكن ما يكون . وبعيد جدا أن يبلغ الإخشيدى حقيقة زواجه فإنه هو أيضا يعرف عنه حقائق ليست دون زواجه خطورة . ثم إن الإخشيدى أحكم من أن يفشى سرا يتعرض به لغضب قاسم بك ، ولكنه من ناحية أخرى ينبغى أن يتوقع أن يعلم أبوه بنبأ تعيينه فيحسن به أن يدبر للرجل ما يقيم أوده ويصون كرامته . وأراد أن يطرد همه ، فبسط ورقة على مكتبه ، ورسم رقم مرتبه الجديد : ٢٥ جنيها ؟ وثبت عليه عينيه الجاحظتين حتى ابتسمت أساريره . سيقبضه أول أكتوبر ، وما أول أكتوبر ببعيد ، فهل يمكن أن يتصور ذلك بائع الفول بميدان الجيزة ؟. بل مأمون رضوان نفسه لن يزيد مرتبه بعد عودته من البعثة — بعد ثمانية أعوام — على مرتبه هذا !. نجحت طظ نجاحا باهرا ! وقد ارتاح لذلك ارتياحا عزاه عن كل ما لاقى من ألم ونصب وقلق وأحزان . وسر سرورا خالصا ببراءته من ذلك المرض الوهمى الخبيث الذى يسمونه الضمير أو الندم . حقا خاف أحيانا الناس ، وعذبته الغيرة أحيانا أخرى ، ولكن هذا شىء والندم شىء آخر . كان كفره بالقيم والمجتمع كاملا باهرا ، وإنه ليؤمن بأنه سيظل قويا حرا ، ما امتد به العمر . وأنه لن يلين أو يضعف إذا أقعده مرض أو رد إلى أرذل العمر ، وما أجمل أن يستهين بالموت — إذا حضره الموت — وأن يرمق العدم بعين التسليم بالواقع دون فزع إلى قوة وهمية أو إلـٰه باطل . هذا هو انتصار العقل الحر على الغرائز العمياء والأوهام الباطلة !. وتذكر قاسم بك فهمى والإخشيدى وعشرات ممن اتصل بهم فى حياته الجديدة ، كل

أولئك يبدون كأنهم من مدرسته . كلا . إنه يرفض ذلك رفضا متعجرفا ! أولئك يفعلون الشر وهم يعرفون أنه شر ، ومنهم من يفعله وهو لا يميز الخير من الشر ، ومنهم من لا يحمل نفسه مشقة التفكير بتاتا ، ومنهم من يفعله وهو يؤمن بالخير . هو غير هؤلاء جميعا . إنه ينكر الخير والشر معا . ويكفر بالمجتمع الذى صنعهما ، ويؤمن بنفسه فقط : يوجد لذيذ ومؤلم ، ونافع وضار ، أما خير وشر فمحض وهم باطل . ورب قائل يقول : « لو آمن كل بهذا لهلك الناس جميعا » . هذا حق لا جدال فيه . ولكنه ليس أحمق كى يدعو لرأيه هذا . إنه يحتفظ به لنفسه ، وإذا قال تكلم غيره ، فرزق أمثاله من الأحرار على الحمقى من المؤمنين !. والمجتمع متسامح مع أمثاله إذا أحسنوا التخفى ، فالمجتمع لا يعنيه إلا أن يحافظ على ذاته ، ويعادى فى ذلك حتى عشاقه الذين ينشدون له الكمال أمثال : على طه ومأمون رضوان . فهو كالمرأة المغرورة إذا آنست من عاشق انتقادا نبذته ، ولذلك فنصيب هؤلاء التعب والكفاح وربما السجن !.

طابت الحياة إذا . ثم ذكر أمرا فاستدرك قائلا : « إلا شيئا واحدا » ، هى إحسان !. أو هى تلك العاطفة المستبدة التى لا تقع بغير الحب . وأين الحب ؟ الفتاة تشاركه آماله ، وتحسن معاشرته ، ولكنه يشعر بأنها تؤدى واجبا باخلاص . إنها كالموظف الذى يحب الوظيفة دون عمله بالذات . أو هو لا يحبه ولا يكرهه . ارتبط مصيرها بمصيره ، هى تحب الحياة كما يحبها ، وتهوى الترف كما يهواه ، ولكن ينقصه شىء كى يكمل هذا الامتزاج حقا ، شىء يروعه افتقاده حتى فى تلك الأويقات التى يبدوان فيها سعيدين ثملين ، والشفة على الشفة والصدر ملتصق بالصدر . وليس هذا بالشىء الذى يهون وإن قال عنه ـــ فى غمرة اليأس ـــ طظ . بل إنه ليحدث فى نفسه ثورة شبيهة بتلك الثورة التى

أحدثها الجوع من قبل. ولذلك فكر جديا فى أن يسطو كما يسطى عليه، بل عابثته فكرة اكتراء حجرة وتأثيثها استعدادا للطوارىء، ومن يدرى؟.. فلا يبعد أن يقصد إليها غدا أو بعد غد ذوو الحاجات ، وكما أعطى ينبغى أن يأخذ !

* * *

وعند مساء ذلك اليوم ــ يوم مجده ــ وفد الأصدقاء على الشقة الأنيقة بعمارة شليخر ليقدموا التهانى لزوج مدير المكتب ، وجرى الحديث فى مرح وسرور ، وقد اقترح البعض أن يحتفلوا جميعا بترقية محجوب . وقال أحدهم مخاطبا إحسان :

ــ فى يوم الخميس القادم ينتصف الشهر العربى ، ويتربع البدر فى كبد السماء ، وتمسى القناطر قبلة الواردين ، فما رأيك فى رحلة قمرية ؟... (وهنا لحظ عفت بطرف خفى واستدرك غامزا بعينيه)وعفت بك يملك يختا صغيرا جميلا ...؟!

وسر عفت سرورا كبيرا ، وكان إعجابه بإحسان يزداد يوما بعد يوم . وقال بسرعة دلت على حماسة للقبول :

ــ اليخت وصاحبه رهن أمركم !

وما سمع اسم القناطر حتى سرت فى جسده قشعريرة باردة ، وكان يعلم أن حماس الصحاب ليس لشخصه هو ، فقال معترضا :

ــ هذه النزهة القمرية لا توافق جو سبتمبر الرطب البارد ..

فضحك عفت وقد أشفق من أن تفلت من يده الفرصة السانحة وقال :

ــ لا شك أن وظيفتك الكبيرة قد بثت فى نفسك شيئا من الشيخوخة فبت ترجف من الجو اللطيف ..!

وكان هذا « المدح فى قالب الذم » جديرا بأن يلذ محجوب فى ظروف أخرى ، ولكنه لم يستطع أن يتذوقه فى رعبه ، وقال بحمية :

ـــ الدنيا واسعة ، اختاروا أى مكان تحبون ، أما القناطر ..

واعترض عليه كثيرون فضاعت بقية كلامه ، ولم يدر كيف يقنعهم ويحولهم عن رأيهم ، ولبث حيال احتجاجهم مقهورا ، بينما راح عفت يقول :

ـــ ليس ثمة فائدة ترجى من الاعتراض ، والأولى بك أن تصغى إلى ... سينتظر اليخت عند قصر النيل فى الساعة التى تتفقون عليها .. أطعمة جافة لطيفة ... زجاجة ويسكى لكل ثلاثة ... دعونى أحصيكم ...

وعلا ضجيج الاستحسان ، وشاركتهم إحسان سرورهم ، وجعل محجوب يقلب عينيه فى وجوههم حائرا وعلى شفتيه ابتسامة لا معنى لها . لن يجد من رحلة القناطر مهربا ، سيقطع حدائقها ذهاباوإيابا فى ضوء القمر ، أليس من المحتمل أن يلقى أحدا من أهلها الذين يعرفونه ؟.. بلى ، هذا محتمل ، ويحسن به والحال كذلك ألا يبرح اليخت منتحلا عذرا ، أجل لن يستطيع مقاومة العربيدين العنيدين ، فليذهب إذا لم يكن من الذهاب بد ، والحدائق على أية حال بعيدة عن المحطة ، بعيدة عن البيت البائس الباهت ...

ـ ٤١ ـ

ومضت أيام أربعة تمتع فيها بوظيفته الخطيرة متعة صافية . وقد شعر جميع الذين يتصلون به من الموظفين ـــ صغارا وكبارا ـــ بأنه موظف متعجرف ينبغى أن تؤدى إليه حقوقه كاملة ، ولا يعفو عن زلل ولا يتكلم إلا آمرا . وكان كلما لان الموظفون ـــ ولابد أن يلينوا ـــ تمادى وطغى ، واستلذ تماديه وطغيانه ، حتى ود فى أحايين لو يمضى يومه كله فى الوزارة آمرا زاجرا ... !

وجاء يوم الخميس ، موعد النزهة . فغادر الزوجان بيتهما ومضيا فى طريق قصر النيل ، وقالت إحسان بتأفف وهما يقطعان طريقهما :

ــ لعلك الوحيد فى الجماعة الذى لا يملك سيارة ..!

فضحك محجوب قائلا :

ــ فى التأنى السلامة ...!

ولكن ملاحظتها حملته على أن ينادى على تاكسى فيستقلانه على قرب المسافة . وذكر لهجتها المتأففة فقال لنفسه ساخرا : « عيب كبير ألا يكون لكريمة عم شحاته تركى سيارة خاصة ! » ، ثم ذكر الأعباء التى تواجهه بها الحياة الجديدة كرغبته فى اكتراء حجرة وتأثيثها ، واقتطاع بضعة جنيهات من ماهيته لوالده ، وغير هذه وتلك من وجوه الترف والانفاق ، فهاله الأمر . وحدث نفسه قائلا : « سأظل ما حييت فقيرا إلى المال ! » . وبلغا مرسى اليخت بعد قليل . فغادرا التاكسى وأقبلا نحو الأصدقاء المنتظرين وقد غشى الظلام الآفاق . واستقبلا استقبالا جميلا ، وتقدم عفت بك من الزوجين وصافحهما ، وأعطى ذراعه لإحسان فتأبطته وسارا فى الطليعة إلى اليخت . ولم يكن محجوب يحب صاحب اليخت ، وقد بدأ يخامره النفور نحوه منذ لبى دعوته إلى الفانتزيو . قرأ فى عينيه الجميلتين آى الإعجاب بزوجه فامتعض وتميز من الغيظ ، ورمق شعره الأحمر وبشرته البيضاء وجسمه الرياضى بعين المقت والغضب ...

وكان اليخت صغيرا ، ولكنه جميل أنيق . وكان مكونا من طابقين ، بالأول المقصورات ، والثانى سطح مسور اصطفت به المقاعد الوثيرة على هيئة دائرة ، وفى المقدمة منه امتدت الموائد حافلة بما لذ وطاب . وقد أمر عفت بك بالإبحار فرفعت المرساة ، وأبحر اليخت ميمما شطر الشمال . فى هداية نور القمر البهيج وسط الأفق الشرقى صاعدا من وراء النخيل . هكذا بدأت الرحلة ...

وجلس الأصدقاء على المقاعد متقابلين ، وراحوا يسمرون فى جو لطيف رطيب . وجعل محجوب يردد ناظريه بين الوجوه المشرقة والقامات الهيف فبهره الشباب والجمال ورأى زوجه بعيدا عنه فى هالة من الإعجاب والمعجبين ، فذكر أيام كان يطالعها عن بعد من نافذة حجرته بدار الطلبة بيد أنه رآها الآن أبهى ما تكون جمالا وسحرا ، واستشعر الهوة العميقة التى تفصل بينهما ! وجرت أمام مخيلته صور سريعة مضطربة ، فرأى على طه — فى حالتى سروره وحزنه — وعم شحاته تركى ، والوزير ، وسالم الإخشيدى ، ومخدعه بعمارة شليخر !. ووجد نفسه يتساءل أيفضل لو كانت إحسان له قلبا وجسدا فى بيت زوجية هادىء « شريف » ولو كان موظفا صغيرا بلا مجد ؟!. ولم يجد الجواب حاضرا ، أجل كان طموحه قويا كعاطفته ، بل لعل طموحه أقوى . ولكن ما جدوى المفاضلة ؟!، وألقى بنظره إلى النيل يتسلى ، ثم رفع بصره إلى البدر الآخذ فى الصعود والصفاء ، كلما امتدت ظلمة الليل أذكت نوره وبهاءه ، ولكنه لم يكن من الذين تفتنهم الطبيعة بمحاسنها ، وكان يلذ له أن يقول : إن الهيام بالطبيعة مفسدة للعقل ، ومصدر منذ الأزل لجهالات لا تزال نرسف فى أغلالها . وذكر صاحبه مأمون رضوان وكيف كان يستيقظ فى الفجر للصلاة والعبادة ، وكيف كان يقلب وجهه بين النجوم الساهرة ويتلو : « والليل إذا يغشى » ، « والسماء والطارق » بصوت حنان ، وعيناه الصافيتان تلمعان لمعان النجوم الزاهرة . ولكن هل يوجد بين هؤلاء الشبان والشواب من يعشق الطبيعة ؟، وألقى عليهم نظرة شاملة فوجدهم فى شغل عن الدنيا بأنفسهم .

وسمع آنسة فيفى تتساءل فى إغراء :

— لماذا لا نرقص ..!

فقال على عفت من فوره :

ـــ ارقصوا إذا شئتم ، ولكن هل ترقصون بلا موسيقى ؟
فقال أحمد عاصم :
ـــ أبشروا لقد أحضرت معى موسيقى اليد .
وتصاعدت أصوات الاستحسان ، ودارت العيون تتصيد الأحباب ، وتناول أحمد عاصم آلته ولعب بها وهو يتمايل على مقعده مع أنغامها الراقصة ، ونهض الجميع للرقص إلا إحسان ومحجوب اللذين يجهلانه وعفت بك الذى آثر أن يجلس إليهما . وجعلوا يشاهدون الراقصين فى صمت وإعجاب . ثم أعلن عفت بك إنكاره لجهلها الرقص ، وقال لإحسان :
ـــ سأعلمك الرقص ، فإنه لا يجوز أن تجهليه ،.. ما رأيك ؟
فتمتمت وعيناها لا تفارقان الراقصين :
ـــ لا أدرى ..
ـــ غريب من يجهل الرقص فى الحفلة الرائعة ، أليس هذا رأيك يا محجوب بك ؟
فشعر محجوب بالخطر المحدق به ، وأراد أن يزوغ منه ، فقال بعدم اكتراث :
ـــ لا أظن ..
فضحك عفت ضحكة عالية وقال :
ـــ يا لها من أسرة من صميم القرن التاسع عشر ..
وضحكت إحسان لضحكه وقالت :
ـــ قد نتتلمذ لك يوما ما ..
فلاح الحماس فى وجه الشاب وقال بسرور فياض :
ـــ فى أى وقت تشائين ..
ولازم محجوب الصمت متظاهرا بالاهتمام بمراقبة الراقصين ، وهو يكظم حنقه وثورته . إن الشاب الأحمق التياه بجماله يتحفز للانقضاض

على عرضه ، وإنه لفاعل إذا وجد غرة ، ولكن هيهات أن ينهزه فرصة ، فليس لأحمق مثله أن ينبت فى رأسه قرنا جديدا ،.. لقد وهب رأسه للقرون الذهبية ، قرون المجد والسلطان . ولكن ترى هل تستجيب لغزله ؟. هل تلين هذه الفتاة الغامضة الفاتنة ؟. وأحس أنياب الغيرة السامة تنهش صدره .

ورقص الراقصون حتى أدرك أحمد عاصم التعب — أو الملل — فكف عن اللعب ، وانفرط عقد المتجاذبين ، فعادوا إلى جلستهم الأولى مشرقة وجوههم بالابتسام . وكان البدر قد علا فى السماء وانكسب نوره إلى مياه النيل المتموجة فتقاذفته ونثرته كاللؤلؤ يخطف الأبصار . وتساءل البعض :

— متى نفتح البوفيه ؟

فرد عليه قرين :

— ليس قبل أن يرسو اليخت إلى شاطىء الحديقة يا جائع ؟

فقال آخر :

— هل لكم فى لعب الورق ؟

ولكن اعترض كثيرون على الاقتراح أن يلهيهم عن صفوهم ، وعادوا إلى السمر ، وانتبه محجوب من أفكاره على صوت الأستاذ حسنى شوكت وهو يقول :

— كيف لا يكون أمرا خطيرا ؟!.. إن نجاح الحزب النازى فى الوصول إلى الحكم أمر جد خطير .

فقال أحمد عاصم :

— ولكن شخص الرئيس هندنبرج حقيق بأن يبتلع هتلر .

— انظر إلى الأفق ، ألا ترى أن هتلر فى عنفوان الشباب والرئيس فى نهاية العمر ؟

— إذا سيتمخض الغد عن حرب ضروس ..

ـــ كلام معقول ، بيد أن فرنسا لا تتريث حتى تستعيد ألمانيا قوتها وتجمع للانقضاض عليها ، وهنالك حلقة محكمة حول ألمانيا من البلدان الموالية لفرنسا كبولندا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان ، ولا تنس أن إيطاليا العظيمة تعد نفسها حامية النمسا ، فما هو إلا أن تتصافح هذه البلدان ، وربما انضمت إليها روسيا فتضيق الحلقة الفولاذية رويدا رويدا حتى تخنق ألمانيا فى النهاية وتقضى عليها القضاء الأخير ..

وإنجلترا ؟.. هل تتغاضى عن خنق ألمانيا ؟؟

ـــ ولم لا ؟

ـــ إنجلترا أمكر من أن تترك فرنسا ـــ أو غيرها ـــ تتسيطر على القارة الأوربية .

أصغى محجوب إلى الحديث باهتمام ، وكان على إطلاعه الواسع على السياسة الداخلية عظيم الجهل بالسياسة العالمية ، فاقترح على نفسه أن يعنى بمعرفة الأخبار الخارجية حتى لا يفوته الكلام فيها إذا لزم الأمر ، وتظاهر بتأمل القمر والغياب عما حوله حتى لا يلاحظ أحد صمته . فغاب حقا عن الحديث دقائق ، ولما عاد بوعيه إلى الجلوس ، وجد الحديث قد طرق الأحوال الداخلية دون أن يدرى كيف . وسمع بعضهم يقول :

ـــ أما مصر فيستطيع أى حاكم أن يستبد بها دون كبير خطر .

ـــ الواقع أن أى نظام من أنظمة الحكم يستحيل ديكتاتورية إذا طبق فى مصر .

ـــ هذا وطن « ضربك شرف يا أفندينا » ...

وقال أحمد عاصم بلهجة اليقين :

ـــ لن تظفر مصر باستقلالها أبدا ...

ـــ استبدت بها عادة الحكم الأجنبى !

فضحك عفت وقال :

ـــ وما حاجة مصر إلى الاستقلال ؟. أما الزعماء فيتعاركون على الحكم ، وأما الشعب فغير أهل للاستقلال .

ووجد محجوب الفرصة سانحة ليقول قولا « أخلاقيا » وليحدث لنفسه سمعة إيجابية ، الأمر الذى أجمع على تحقيقه حين فكر فى الاشتراك فى جمعية الإخوان المسلمين ، فقال مبتسما :

ـــ ألا يسوؤك أن تقول هذا القول عن قومك ..!

فضحك عفت مرة أخرى وقال بصوت مرتفع :

ـــ لا تجرى في عروقى نقطة دم مصرية واحدة .

وأحدث قوله عاصفة من الضحك ، أما محجوب فتضاعف مقته له ، لا غضبا لوظيفته ، ولكن ثورة لكبريائه ، وذكر خطبة رنانة ألقاها والد عفت فى مجلس الشيوخ فظن أنه قبض على عنق الشاب ، وقال بلهجة الظافر :

ـــ فما قولك فى خطبة الباشا والدك فى مجلس الشيوخ ، عند مناقشة الميزانية ، التى دافع بها عن الفلاح دفاعا وطنيا مجيدا ؟!

فقهقه عفت وقال كالساخر :

ـــ هذا فى مجلس الشيوخ ، أما فى البيت فكلانا متفق ـــ أنا ووالدى ـــ على أن أنجع سياسة مع الفلاح هى : السوط .

وضحك الحاضرون ـــ من الجنسين ـــ ضحكا عاليا . وابتسم محجوب يدارى هزيمته ، وقد أفرخ روعه ، وارتاح إلى تفرده بالدفاع عن « القومية المصرية » ، وقال لنفسه : « إن بدلة التشريفة الحقيقية هى ثوب الرياء فلا يفوتنى ذلك ! » وتساءل ساخرا : ترى كيف يصلح على طه هذا الشعب الكريم ؟ وكيف يحقق مثله العليا ؟

ومضى الوقت واليخت يشق الأمواج وكأنه يسبح فى النور السنى ، وانتبه محجوب مرة ثالثة على قول شاب :

ـــ .. فما من شك أن الزوجة أجبرت الباشا زوجها على الإقامة فى فندق إبقاء على سائق السيارة .

فسألت إحدى الفتيات باهتمام :

ـــ وهل حقا خيرها الباشا بين بقائه هو أو السائق ؟

ـــ نعم .

ـــ وماذا كان جوابها ؟

ـــ السائق ..؟

ولبث يلتقط الأحاديث من هنا وهنالك ، طورا فى يقظة وانتباه ، وطورا شاردا ذاهلا ، حتى لاحت الحدائق ساهرة فى ضوء القمر كأعذب الأحلام . ونهض الصحاب مهتمين . ثم دعاهم عفت بك إلى البوفيه .

ـ ٤٢ ـ

استبقوا إلى الموائد ، واتخذوا مجالسهم ، وأترعت الكئوس ، وملأ عفت كأس إحسان ، وكانت أول مرة تشرب فى جماعة ، فقالت بصوت خفيض :

ـــ حسبى كأس واحدة

فقال الشاب ضاحكا :

ـــ هلا تلفعت بخمار التقوى وذهبت إلى « السيدة » للوعظ والإرشاد ؟!

ثم همس فى أذنها :

ـــ انظرى إلى حكمت ، إنها تشرب زجاجة كاملة دون أن يبوح لسانها بسر .

ورأت إحسان الجميع ينظرون إليها لتبدأ بافتتاح الحفل ، فرفعت كأسها فى شىء من الارتباك ، فارتفعت الأيادى بالكئوس ، وهتفوا جميعا باسم مدير المكتب ، ثم أفرغوا كئوسهم حتى الثمالة . وسرعان ما مزقت

السكاكين اللحوم ، ثم إلتقطتها الشوكات وسلمتها إلى الأفواه النهمة ، وتحول المقصف إلى ميدان ، دارت به معركة بالغة فى عنفها ، بالغة فى لذتها ، وتعددت ضحاياها من الأطعمة والأشربة . وتنبهت إحسان إلى أن عفت بك يتعمد أن يلمسها وهو يميل نحوها ليملأ كأسها ، وأن حذاءه مس حذاءها أكثر من مرة ، ولكنها لم تشجعه . وأكل محجوب وشرب بنهم ، لا طلبا للذة ، ولكن هربا من مشاعره ، لأنه ما انفك يفكر فى البيت القائم أمام المحطة مذ رسا اليخت إلى شاطىء الحديقة ، تولاه شعور بالكآبة والخوف لم يستطيع منه فكاكا ، ترى ماذا يفعل والداه فى هذه اللحظة ؟، ألا يزال والده طريح الفراش ؟ وما عسى أن تفعل أمه ؟.. هل نفدت النقود ؟.. هل باعا بعض الأثاث القديم ؟ ألا يحتاجان لشىء من فتات هذه المائدة ؟.. كيف يتخلص من شعور الضيق والكآبة ؟! من له بمن يخضع شعوره لقسوة عقله الحر ؟! وقد أفرط فى الشراب ، وثرثر بغير حساب ، ولم يأل جهدا فى الهرب من باطنه ، والارتماء بين أيدى المحيطين به واختلط الحديث أيما اختلاط ، وسأل سائل جماعة المتزوجين : هل حقق الزواج أحلامهم ؟ وتبادل الأزواج نظرات الحيرة وضجوا ضاحكين . وسأل آخر عن أمتع ما فى الزواج ؟ فقال شاب متزوج : إنه الحب ، وقال آخر : إنه الخلاص من الحب !، وقال ثالث : إنه تحديد النسل !، وأجاب محجوب فى سره : « بل هو القرن الذهبى ! » وقال حسنى شوكت بلا مناسبة :

ــ خسرت فى الأسبوع الماضى خمسة عشر جنيها

فقالت له خطيبته :

ــ البقية فى الأسبوع القادم !

وقال أحمد عاصم :

ــ يقولون إن سيىء الحظ فى القمار سعيد فى الحب .

فقالت فتاة مبتسمة :

ـــ ذلك لأن سيىء الحظ فى القمار لا يعرف الغش !

وقال شوكت مرة أخرى :

ـــ إن أعجب مقامرة شاهدتها فى حياتى كانت مقامرة شاب بعشيقته !

فلاح الاهتمام فى وجوه الجميع وسأله كثيرون :

ـــ حقا ؟.. وكيف كان ذلك ؟

فأجاب الشاب الثمل قائلا :

ـــ إنه صديق حميم ، وقد اصطحب يوما عشيقته إلى ناد خاص من أندية القمار ، فخسر جميع نقوده ، وكانت الخمر قد لعبت برءوس الجميع فاقترح عليه سكران أن يقامر بعشيقته على كل خسارته ، فإما استرد نقوده وإما خسر عشيقته ، فقبل الاقتراح وقامر عليه وخسر عشيقته ..

ـــ وهل رضيت المرأة ؟!.

ـــ كانت فى حالة سكر بيِّن ، وقد انتقلت ملكيتها إلى الرابح ، أو ـــ وهو الأصح ـــ انتقلت ملكيته إليها .

ـــ من عسى أن يكون ذلك الصديق ؟.

ـــ أما هذا فلا ، لأن أحد الطرفين موجود بيننا .

وتبادلت الأعين نظرات الإنكار ، وابتسمت الثغور فى ريب ، ولاح الفضول فى جميع الوجوه خاصة النساء ، وسألت إحسان عفت بك :

ـــ من هذا المقامر يا ترى ؟

فسُرَّ الشاب بسؤالها وفسره على هواه ، ثم قال :

ـــ لا يدرى ذلك إلا الأستاذ شوكت ، ولعله لا يدريه أيضا .

ـــ أيعجبك هذا النوع من القمار ؟

فقال كالساخط :

ـــ أنا لا أقامر بمن أحب ..

وأدركت أنها تكلمت أكثر مما ينبغي ، وأجمعت على ألا تشرب غير كأسها الثالثة ، ودارت رءوس ورءوس ، فتشاحن زوجان علانية وتبادلا السباب ، وكاد الأستاذ حسنى شوكت يفقد صوابه ، وانتشى محجوب عبد الدائم ولعبت الخمر بعقله فتناسى همومه وأكب على الحديث والضحك .

ولما فرغت الصحاف والزجاجات هتف بهم عفت قائلا :

ـــ هلموا إلى الحديقة ..

ورددوا قوله : « إلى الحديقة .. إلى الحديقة » ومضوا أزواجا وأفرادا . وأراد محجوب أن يتخلف فى اليخت كما كان اعتزم ، وتنحى جانبا ، بالرغم من سكره الشديد ، ولكن لاحت منه نظرة فرأى زوجه متأبطة ذراع عفت بك فى مقدمة الراحلين ، فهاج دمه ، وقرض أسنانه بحنق ، وعثر به بعض الإخوان فتأبط ذراعه ودعاه إلى المسير معه ، فلم يقاوم ، ونسى عزمه ومخاوفه . وكانت الحديقة تموج بجماعات المرتادين نساء ورجالا ، بين سائرين يتضاحكون ، وجالسين يأكلون ويشربون ، وهؤلاء وأولئك ينفثون المرح فى كل مكان ، وقد ألفت بينهم جميعا دواعى الغبطة وأواصر الشباب والسرور وحب الفكاهة والمزاح ، فاشتبكوا فى الحديث على غير سابق معرفة ، وتراشقوا بالنكات بغير استئذان ، صاعدين هضبة معشوشبة أو هابطين مسيلا بين الزهور ، معتصمين بخميلة من اللبلاب والياسمين أو عابرين قنطرة على جدول يسيل بلجين القمر ، والبدر يطل عليهم من علياء السماء فى موكبه الأبدى تحف به الكواكب والنجوم ، غامراً الدنيا بنوره البهي ،. وطابت النفوس وصفت ، فراح ذوو الأصوات الجميلة يسجعون الأغانى . وانطلق العازفون يستنطقون الأوتار . وكان أصحاب اليخت يمضون فى المماشى باعثين ضجيجا صاخبا ، وكان الأستاذ حسنى شوكت يعربد بلا مبالاة ، فلفت نحوهم الأبصار . وسار

محجوب إلى يمين زوجه ـــ وعفت بك إلى جوارها ـــ وقد بلغ به السكر . وكان يتكلم ويضحك ولكنه كان متغيظا على الفتى الذى يلازم زوجه كظلها ، وعلى سكره ومرحه لم يستطع أن ينسى أنه فى القناطر ، فى بلده ، على كثب من والديه البائسين ، فجعل ينظر فيما حوله بحذر ، ويقاوم جهده شعور القلق الذى يساوره . وفكر أكثر من مرة أن يقفل إلى اليخت ، ولكنه ظل مستسلما لتيار الرفاق . وحدث أن أوقفهم حسنى شوكت عند بائع تين ليبتاع منه ، وكان البائع عجوزا يتوكأ على عصا من كبر وعجز ، تذكر محجوب أباه فى غمضة عين ، وجدُّوا فى طريقهم وصورة الرجل لا تفارقه ، فأبوه إذا قدِّر له أن يترك الفراش فلن يكون إلا صورة من هذا الرجل ، ولن يخطو خطوة بغير عصا يتوكأ عليها . وتفكر مليا ثم قال لنفسه : « ولا يبعد إذا تحطمت وسائله أن يرفع سلة تين ويسرح بها !. ومن يدريه فلعله يسرح الآن بسلة تين فى موضع ما من البلد ؟ وألقى بطرفه ناحية المحطة وهو يمشى كالمترنح وقد انقبض صدره انقباضا شديدا . لم يعد يشارك الرفاق لهوهم وسرورهم ، وولى عنه الصفاء والسرور ، وغلبه القلق والحزن والخوف . كان مجيئه خطأ كبيرا ، ولكن هل كان تخلفه يغير من واقع الأمر شيئا ؟.. إذا كان تقدير أبيه صادقًا فقد مضى عليه الآن ثلاثة أشهر وهو بلا عون ، فماذا صنع بنفسه وبأمه ..؟ وكيف واجه عبوس الحياة فى عجزه ومرضه ؟! ثلاثة أشهر أو يزيد : يونية ويولية وأغسطس ، وهذا الأسبوع من سبتمبر ، أى ذلك الزمن الذى ذاق فيه حلاوة العيش وطيب الحياة ، وثقل رأسه ، وخمدت نشوته مخلفة خمارا مصدعا ، وخانته جراءته التى تستهين بكل شىء ، حتى تساءل فزعا : أهذه يقظة ما يسمونه بالضمير ؟ أبعد تلك الثورة المدمرة التى شملت حياته الجامعية كلها ، وبعد مواجهة التجربة الخطيرة ثلاثة أشهر كاملة والظفر بالنجاح المطلق ، يجد نفسه فى هذه الحالة الزرية من الجبن والألم ؟. وكوَّر قبضته بعنف ، ورفض بعناد أن يعترف بضيعته وخوفه ، أو بأن الذى

يئن فى صدره ضمير ، أو بأنه لا يزال يتأثر بعاطفة البنوة ، رفض ذلك رفضا عنيدا مغيظا ، وقال يعزى نفسه ويشجعها : إن هو إلا الخوف من فضيحة قد تهدد مركزه الاجتماعى ، إنه لا يأسى على والديه ولكنه يخاف أن يدفعهما البؤس إلى إزعاج حياته وتكدير صفو مجده . وموعدهما أول أكتوبر فإذا تسلّم ماهيته الجديدة اشترى طمأنينته ببضعة جنيهات يرسلها إلى أبيه وانتهى من هذا العذاب . وردد هذا الرأى فى نفسه وأكده له تأكيدا شديدا ، وحاول أن يستعيد شجاعته وطربه . ولما عاوده شعوره بما حوله وجد نفسه يخبط منفردا ، فنظر فيما حوله ذاهلا فلم يجد إلا الأستاذ أحمد عاصم ، وسأله عن الرفاق ؟ فهز كتفيه قائلا : « لا أدرى » فأدرك أنه ضل الجميع . وشعر بتعب ، وغثيان مباغت ، ثم انقلب يقىء ..! وأخذه صاحبه من يده إلى اليخت ، وهناك مضى به إلى مقصورة ، فاستلقى على أريكة وراح فى سبات . ولم يدر كم لبث ، ولكنه كان يرى فى مخيلته دائما بائع التين حتى خاله أباه بالذات . وقد قهره الشقاء على ذل السؤال .

ـ ٤٣ ـ

وعادوا إلى اليخت وقد نال منهم التعب وبحّت منهم الأصوات . وأبحر اليخت قبل منتصف الليل بقليل . وسألت إحسان عن زوجها فأخبرها أحمد عاصم بأنه نائم فى مقصورة ، ودعاها لاصطحابها إليه ، ولكن عفت تطوع بالمسير بين يديها ، وهبطا معا إلى باطن اليخت ، وتقدمها فى ردهة جانبية إلى باب مقصورة وفتحه وأوسع لها فدخلت وتبعها على الأثر وردّ الباب ، ووجدت المقصورة خالية ، وطالعتها فى وسطها صورة لعلى عفت على نضد ، فتحولت إلى الوراء فرأت صاحبها يقف وراء الباب يبتسم إليها بعينين تنطقان بالهيام والظفر ، فأدركت أنه استدرجها إلى مقصورته ، وخامرها الخوف فسألته متجاهلة مقاصده :

ـــ أين محجوب .. ؟

فقال والابتسامة لا تزال على شفتيه ، وقد احمرت عيناه الجميلتان من أثر الخمار :

ـــ سنذهب إليه بعد استراحة قصيرة ..

فسألته بلهجة رزينة :

ـــ لماذا أتيت بى إلى هنا ؟

كانت ثقته بنفسه لا حد لها ، فكان جوابه أن جثا على ركبتيه عند قدميها وأحاط ساقيها بذراعيه وضدها إلى صدره ، وقال لها رافعا إليها وجهه :

ـــ لا تسألينى يا إحسان ، أنت تعرفين كل شيء ، والكلام فى مثل حالتى تحصيل حاصل ، ألم يتكلم قلبى منذ أول لقاء بيننا ؟ ألم يصرخ هذه الليلة حتى خفت أن تصك نجواه آذان الحافين بنا .. !.

وتولاها الاضطراب والاستياء ، وأمسكت بساعديه لتفك السلسلة التى تطوقها ، ودفعته بعنف ، وصاحت به بصوت خشن ، غاضب :

ـــ دعنى من فضلك .. دعنى ..

ثم اربد وجهها وعبس ، فقرأ فيه الجد والنفور ، وتورد وجهه خجلا ، وأرخى ذراعيه ، ونهض واجما دون أن ينبس بكلمة . وفتح الباب حتى غادرت المقصورة ، ثم دلها على مكان زوجها وعاد أدراجه . ووجدت محجوب نائما أو كالنائم ، وكان فى حالة إعياء شديد وقد علت وجهه صفرة شديدة ..

* * *

ورسا اليخت إلى قصر النيل حوالى الساعة الثانية صباحا . وعاد الزوجان إلى عمارة شليخر فى سيارة أحمد عاصم ، وكان محجوب أفاق قليلا ولكنه لبث متعبا منهوك القوى ، وما اعتور روحه وحالته المعنوية كان

أدهى وأمر . تركت نكسة السكر فى روحه آثارها فانقبض صدره ، وخمدت نشوته ، وامتعضت نفسه ، وأحس الدنيا بحواس المريض ، وغابت إحسان قليلا وجاءته بفنجان قهوة ، وجلست قبالته على الشيزلنج ، قالت له :

ـــ أفرطت فى الشراب ..

فأحنى رأسه بالإيجاب وإن ذكر الأسباب الأخرى التى كدرت صفوه وقال بسخط :

ـــ لقد قبلت الدعوة إلى هذه الرحلة على غير إرادتى ..

فقالت تدافع عن الرحلة :

ـــ وما ذنب الرحلة ؟.. كانت رحلة جميلة طيبة ..

فقال بحدة :

ـــ يا له من صفيق سى عفت بك هذا !

فابتسمت إحسان ، وترددت مليا ، ثم غمغمت :

ـــ انتهى .. أوقفته عند حده .

فثبت عليها عينيه الجاحظتين الذابلتين المحمرتين متسائلا ، فأوجزت له ما حدث ولكنه أبى إلا أن تسهب ولا تترك كبيرة ولا صغيرة ، فروت له الحادثة بحذافيرها ، حتى انفجر قائلا :

ـــ صفيق .. وقح ، ولكنك أحسنت كل الإحسان ، يا لهم من أرذال جميعا !..

واتقدت عيناه ، بيد أنه تساءل بأى حق يعيب أى إنسان فى هذه الدنيا وهو ما هو رأيا وفعلا ؟.. وقال وكأنه يجيب نفسه :

ـــ نستغفل الناس إذا شئنا ، ولكن لا نسمح لمخلوق بأن يستغفلنا .

فتفكرت فى قوله وعلى شفتيها ابتسامة غامضة ، وعاد يفكر فى والديه فصدقت نيته على مد يد المعونة إليهما حتى ينفض عن حياته أى ظل للكدر ، ثم عجب كيف أن تغيرا هينا فى الجسم قد يذهب ببهجة الدنيا

فى غمضة عين ، ويحيل لذاتها وصفاءها ألما وكدرا يزهقان النفس . واقترحت عليه إحسان أن ينام ، ولكنه أراد أن يرتاح قليلا بمكانه من المقعد ، فمضت هى إلى الفراش . وعاد يتساءل ماذا يحدث لو لازمه هذا التغير فدأب على تناول الحياة بحواس المرض والامتعاض ؟! واقشعر بدنه !.. ولم يجد سوى جواب واحد : الانتحار !. هكذا قد يقضى على نفسه مَن كرس نفسه للأنانية ! ومع ذلك يوجد فى هذه الدنيا أناس يؤثرون التعب والأهوال على السلامة ، كصاحبه القديم على طه ، ولا يمكن أن يسلم مخلوق بأنه ليس لهم لذّاتهم الخاصة بهم فى نضالهم وكفاحهم ، فأية لذة هذه ؟! أحقا للإيثار لذة كلذة الأثرة ؟ إنه يجل هذه اللذة ويحتقرها . وتمثل له على طه بوجهه الجميل وحماسه المتقد ، وذكر عهد دار الطلبة ومأمون رضوان ، فتحول رأسه وهو لا يدرى إلى الفراش ، ورنت عيناه إلى إحسان وقد غطّت فى سبات عميق . فبدت له الذكريات فى إطار من الدهشة والأحلام ..

— ٤٤ —

واستيقظ فى ضحى اليوم الثانى — الجمعة — وعاودته فى الحال ذكريات الليلة الماضية مقرونة بإحساساتها المحزنة . وغادر الفراش بهمة متوثبة ، واستحم بالماء البارد لينعش جسمه ونفسه ، وعاد إلى الصالة ، فالتقى بزوجه ، وقد سألته برقة :

— كيف أنت الآن ؟

فغمغم وقد ابتسم ابتسامة دلّت على الخجل والارتباك :

— عال .. شكرا لك ..

وارتدى ثيابه وانطلق إلى الخارج ، ومضى إلى حديقة صولت حيث اجتمع ببعض الزملاء من الموظفين ، وشرب كوبة من عصير الليمون ، ولبث ساعة بينهم يتحادثون هونا ، ثم غادر المكان ، تاركا قدميه للطريق ينقله من شارع إلى شارع مستسلما للذة المشى . فذكر الليلة الماضية

فعبس وجهه ، وهاله ما بثته فى نفسه من مشاعر الألم واليأس ، وما أشاعته فيها من أفكارسودوخواطر ضعف واستكانة . وتولاه خجل لما اعتوره من خور فى الجسم والنفس ، وقال لنفسه : « لقد ظفرت حتى الآن بفضل حرية عقلى وقوة إرادتى وتلك الحكمة العالية : طظ .. فلا يجوز أن أفرط فى كنز من كنوزى الغالية ! » .. أجل ، هنالك وظيفة سامية وطموح وجاه وخمر ونساء ومال وطعام وترف ، فكيف يسمح بأن ينغص عليه هذه اللذات أب مشلول ، وخواطر مرض ، وغيرة جنونية ؟!. وسرعان ما استرد نشاطه وحيويته ، وعقليته الصارمة الساخرة ، واستقبل الحياة مرة أخرى بجسارته المعهودة وطموحه الذى لا يعرف الحدود . وبدا كل شىء كأنما يسير فى مجراه الطبيعى ، وكأن الحياة ستظل مذعنة لمنطقه أبد الدهر .

وجاء يوم السبت وقد انتصف سبتمبر ، فأثبتت له حوادثه أنه إذا كان يستطيع أن يتحكم فى نفسه فإنه أعجز من أن يدَّعى القدرة على التحكم فى الحوادث ..

كان السبت يوم قاسم بك فهمى ، وكان محجوب يغادر الشقة فى تمام السابعة مساء ليهيىء للرجل الخلوة المنشودة . ولكن كانت الساعة السادسة حين رن الجرس ، ولم يكن الشاب يتوقع قدوم أحد فى تلك الساعة ، فدلف إلى الردهة الخارجية ليرى القادم ، وفتحت الطاهية الباب فرآه كما أراد . لم يصدق عينيه ، وجعل يحملق بذهول جنونى . رأى أباه ، أباه دون غيره من البشر ، وقد وقف الرجل على عتبة الباب متوكئا على عصاه ، ملقيا إليه ببصر جامد مكفهر . سمِّر كلاهما فى مكانه . وجمدت عيناهما لا تتحولان . وكابد محجوب فى تلك اللحظة الرهيبة شعورا بالخوف والقنوط والهزيمة لم يشعر بمثله من قبل ، ثم مزق الأب السكون الأليم فقال بصوت ضعيف ولكنه واضح ينم عن الألم والتهكم المرير :

ـــ ألم تعرفنى بعد .. لماذا لا تهرع إلى استقبالى ؟!
وأفاق الشاب من ذهوله فاقترب من أبيه فى خطى متهالكة ومد إليه يده ، ولكن الرجل تجاهلها . فقال محجوب بارتباك وتلعثم :
ـــ تفضل يا والدى ... تفضل ..
فتحرك الرجل متوكئا على عصاه يسير فى خطوات ثقيلة ، وقد تقوس ظهره ، وتهدم بنيانه ، وجعل يتفحص الأثاث والجدران بعين ملؤها الإعجاب الهازىء ، ويقول :
ـــ ما شاء الله .. ما شاء الله .. لشد ما تعانى يا بنى مرارة البؤس والفقر !؟
فاشتد ارتباك محجوب وحصر ، فما استطاع أن ينبس بكلمة ، ها هو ذا والده يملأ الشقة بالفزع وعما قليل يأتى قاسم بك ، حقيقتان لا يدرى كيف يمكن أن يجتمعا ، ومع ذلك فهما واقعتان لا محالة وإن أشفق من التفكير فى عقباهما . ترى كيف يذكر غداً هذا اليوم الخطير ؟! أيذكره كما يذكر مأزقا خطيرا نجا منه بأعجوبة ؟. أم يذكره يوما أسود انهارت فيه آماله جميعا ؟، ولم يستطع فى انفعاله الأول أن يحسن التفكير ولا التدبير . وفتح عند ذاك باب حجرة النوم وبرزت منه إحسان ، ولعله بعثها للخروج ما سمعت من صوت وحركة غير عادية ، فعجبت لوجود الشيخ الغريب ، وألقت على هيئته الرثة نظرة إنكار . وحوّل عبد الدائم أفندى إليها رأسه ، فلاحت على شفتيه ابتسامة حزينة ، وقال بغير مبالاة ملتفتا إلى ابنه :
ـــ زوجتك ؟!. (ثم حوّل رأسه إليها) أهلا بزوج ابنى ، أنا حموك يا عروس !؟.
وحدجت إحسان فى وجه زوجها فهالها جموده وارتباكه وكآبته ، وآنست فى عينيه نظرة منكسرة لم ترها من قبل ، فلم تشك فى صدق الرجل ، ولم تكن تعلم شيئا عما بين الرجلين مما يستوجب الموقف الذى

يقمه زوجها ، ولكنها لم تتردد عن القيام بواجبها ، فاقتربت من القادم ومدت له يدها باحترام ودعته إلى الجلوس . وكان محجوب يرى ما يقع أمامه بعينيه الذاهلتين ، ولكنه كان انتقل من ذهول سلبي إلى ذهول إيجابي ، فجعل يستصرخ إرادته وعقله لينتشلاه من ورطته وأخذ يفيق من وقع المباغتة فلم يرتح لوجود زوجه ، وأومأ لها إيماءة خفية بالانسحاب ، فلم تلبث أن تراجعت بلطف . وتوثب بجامع قوته ليمتلك زمام الموقف ويسترد عقله وإرادته ، وأعانه على ذلك الخطر الذى يتهدده باقتراب موعد الوزير . أجل ينبغي أن يخفي أباه عن عينى القادم عما قليل ويعالج أمره فى خلوة وهدوء ، هو أبوه على أية حال وليس شيطانا ولا قضاء وقدرا ، وقال له بصوت رقيق ليِّن :

ـــ تفضل معى يا أبتى ..

وأعطاه ذراعه ، فلم يرفض الرجل ، وأدرك أنه يريد أن يحادثه على انفراد ، فنهض بمعونته ، وسار به محجوب إلى حجرة الاستقبال على يمين الداخل ، ثم أغلق الباب ، وكان عقله لا ينى عن التفكير : ما الذى دله على مسكنه ؟ ما الذى جاء به ؟ وهل من المصادفات أن يجىء فى يوم الوزير وقبل موعده بقليل ، وشم فى الجو رائحة مؤامرة نتنة ، وتخايل لعينيه شبح الإخشيدى بوجهه المثلث وعينيه المستديرتين ، فسرت فى جسده رعدة ، وامتلأت نفسه حنقا وكراهية . ترى هل أفشى سره كله ؟ .. رباه أى كارثة ترصده ؟ .. ولكن كلا .. أبوه لا يعلم بسره الخطير ، وإلا ما استطاع ـــ وهو الريفى الغيور ـــ أن يتمالك أعصابه ، ولكن البغيض جاء به فى الوقت المناسب لعله أن يكتشف الحقيقة بنفسه لتكون الصدمة أفظع ، وتفصد جبينه عرقا باردا ..

وصوَّب الرجل نحوه نظرة ملتهبة وقال :

ـــ لماذا تقف أمامى هكذا ؟ ، لماذا لا ترحب بى ؟ .. وكيف لا تهنئنى بالشفاء ؟

وسكت الرجل الغاضب حتى تمالك أنفاسه ثم استدرك بلهجة ساخرة قاسية :

ــ لشد ما آلمنى ما علمت من فقرك وبؤسك وسعيك عبثا فى سبيل الحصول على وظيفة ، فحفزنى ذلك على ترك أمك وحدها فى القناطر ، والحضور بنفسى لمواساتك ، أعانك الله يا مسكين !.

واستطاع محجوب أن يتكلم بعد أن أغلق الباب واطمأن بعض الاطمئنان :

ــ أبتى .. لا تتهكم بى .. أنا أعلم أنى أستحق غضبك ولكن دعنى أشرح لك ما التبس عليك فهمه ، والحكم لك ..

ــ وهل من حاجة إلى الشرح يا بنى ؟.. حسبى أن أنظر فيما حولى لأدرك فى أى شقاء تعيش !..

فعض محجوب على شفتيه وقال :

ــ أبى ... ، والله ما غفلت عنك قط ، ووالله ما سنحت فرصة لمساعدتك فأهملتها ، ولكن ظروفى قاسية رغم هذه المظاهر الخداعة ، لذلك لم يرتح لى جنب ، وما كان ليقر لى قرار قبل أن أطمئن عليك وعلى والدتى ..

فاشتد اكفهرار وجه الشيخ وقال بحدة وحنق :

ــ ظروفك قاسية أيها الابن البار ؟!.. ماذا تنتظر حتى تتفضل علينا بجنيهين ؟ أتنتظر الوزارة ؟! ، إنى أعجب كيف طابت لك الحياة وأنت تعلم أن والديك يعانيان الفاقة والجوع والتشريد ! لقد استصرختك باكيا ولكنى علمت فيما بعد أنى خاطبت ضميرا ميتا . تركتنا للعجز والفقر حتى بعنا أثاث بيتنا ، وها أنت تنعم بالوظيفة العالية ، والماهية الكبيرة ، والمسكن الوثير ، ولكنك لا تجد فى ذلك كله إلا ظروفا قاسية لا تسمح لك بأن تنقذنا من التسول ، أليس كذلك أيها الشاب الهمام ؟.

امتقع وجه محجوب حتى حاكى وجوه الموتى ، شعر كالمختنق الذى ينتفض ويقتتل عبثا لاستنشاق نفس واحد . ولم يكن كلام أبيه قد حرك قلبه ولكنه أربكه وكرَّبه وأوقعه فى ضيق شديد ، فقال :

ــ لشد ما يؤلمنى كلامك يا والدى ، أصغ إلىّ ، سأكاشفك بالحقيقة وأصلح خطئى ، وأكفِّر عما تتهمنى به من عقوق . يعلم الله أنى كنت سأزف إليك أنباء توفيقى وأمدُّك بالمعونة أول الشهر القادم ، لقد وفِّقت إلى وظيفتى منذ شهرين وكنت معدما فكان علىَّ أن أهيىء نفسى بالمظهر اللائق ، وإلا ضيعت على نفسى فرصة لا تسنح فى حياة مرتين ، فاقترضت مبلغا كبيرا ما زلت مدينا به ، هكذا فزت بالوظيفة ولكن لا زلت أكابد الارتباك والفاقة ، هذه هى الحقيقة .

فهز الرجل رأسه فى ريبة وقال بامتعاض :

ــ إنك تعنى أكثر مما ينبغى بالمظهر اللائق ، والمسكن الأنيق ، والمآدب الفاخرة !..

فأدرك محجوب أن الإخشيدى وفى وشايته حقها ، وقال وهو يغالب عواطف الحنق والغضب :

ــ هذه المظاهر وإن بدت كمالية إلا أنها من ضرورات وظيفتى ..

ــ وهل من ضرورات هذه الوظيفة المجيدة أن نتضور جوعا ؟!

فقال الشاب وهو يبذل جهد المستميت ليدارى غضبه وحنقه :

ــ كلا يا أبى . لقد أبنت لك عن حسن مقصدى فلا تثبط همتى بنقمتك ودعنى أتم بنجاحى ..

ــ أحسبه لا يتم إلا بقتلنا ..

ــ بل سيتم بما فيه سعادتنا جميعا ..

وسكت عبد الدائم أفندى مليا وهو يرنو إليه بنظرة مليئة بالريبة وسوء الظن ، ثم قال متسائلا :

ـــ إذا كانت هذه حالتك فكيف تزوجت ؟! .. لماذا لم تؤجل الزواج إلى ميسرة ؟! وكيف تتزوج دون إخبارنا فضلا عن الرجوع إلى رأينا ؟..

وارتاح محجوب لتساؤل والده هذا الذى أكد له جهله بالسر الخطير ، وقال بصوت خفيض :

ـــ كانت الزيجة ثمن الوظيفة كما يحدث فى أيامنا هذه كثيرا ، لقد صاهرت أسرة محترمة تمت إلى الوزير بصلة القربى وكانت الزيجة من أسباب ارتباكى ، ولعلك أحطت الآن بالظروف القاسية التى اكتنفت حياتى فى الشهرين الماضيين .

بيد أن الرجل لم يكن مطمئنا ، واشتدت بالشاب حالة التوتر والاستياء ، وشعر كلاهما بأن لديه ما يقوله ، ولكن جرس الباب الخارجى رن بغتة ، وفتح الباب ثم أغلق : وسمعا وقع أقدام ثقيلة فى الدهليز يعرفها محجوب حق المعرفة ..

ـ ٤٥ ـ

وخفق قلبه بعنف ، وسرت فى جوارحه رعدة خوف لم يجد عليها من سلطان ، وتخايلت لعينيه مرة أخرى صورة الإخشيدى البغيضة . ترى كيف تنتهى هذه الليلة ؟ أيذكرها فى المستقبل وهو يضحك أم وهو يبكى ؟. وسمع أبوه وقع أقدام القادم فسأله :

ـــ هل كنت تنتظر ضيفا ؟

فقال بلا تردد وهو يتظاهر بالهدوء :

ـــ نعم .. هذا حمى جاء لزيارة كريمته ..

ـــ ألا تذهب للقائه ؟

فتلجلج لحظات ثم قال بحزم :

ــ كلا ، ستجد زوجى عذرا تنتحله لغيابى ، وسأقدمك إليه فى وقت آخر ..!

وساد الصمت ، وقد شعر الشيخ بأن ابنه يتأفف من تقديمه إلى حميه فنكس ذقنه فى سكون وحزن . وجلس محجوب قريبا من الباب يحاول جهده أن يضبط عواطفه ، واختلس من والده نظرات غاضبة تنم عن حنقه وحقده . ينبغى أن تنتهى الليلة بسلام . أحس فى باطنه بأنه إذا انتهت الليلة بسلام فقد نجا بحياته وآماله إلى الأبد . ولكن ما الذى يدعوه إلى الخوف ؟! قد بلغ الوزير المكان الذى يريده بسلام ، ونمت حالة والده على أنه يجهل سره الخطير ، فما عليه إلا أن يأخذ نفسه بالصبر والانتظار حتى يذهب البك ــ كما جاء ــ بسلام . بيد أنه لبث ــ على رغم ما تبشر به الحوادث ــ قلقا مغتما . وزاد من توتر أعصابه أن والده عاد يقول بنبراته الدالة على الإنكار والمرارة :

ــ لو كان قلبك حنونا يا بنى لاستهان بضرورات الوظيفة التى تعتذر بها ، ولشق عليك أن تترك والديك يتضوران جوعا . وأعجب لوالدتك ما برحت تدفع عنك جاهدة الظنون ، ونبذت ما نقل إلينا عنك ، وقالت لى : « ستبدى لك الأيام أنى أعرَف بابننا منك » فليتها جاءت معى لترى بعينيها ..!

وشعر محجوب بضجر ، وضاق بالرجل الذى لولا وجوده لم يكن فى المأزق الذى هو فيه ، وتوثب للرد عليه ، ولكن الجرس دق مؤذنا بقادم جديد ، فوجب قلب محجوب وجيبا مؤلما . من يكون الطارق ؟ هل من جديد ؟! وفتحت الطاهية ثم سمع صوت يتكلم بحدة ، فتميز الشاب غيظا ومضى إلى باب الحجرة وفتحه ، فرأى سيدة تزيح الطاهية من طريقها وتدخل فى حالة هياج عصبى شديد ، كانت السيدة أرستقراطية المظهر ،

أنيقة الزى ، فتولته الدهشة والانزعاج ، ثم ارتاع وذعر وأعيا عليه القول ، ورأته المرأة فأقبلت نحوه بهيئة متعجرفة ، تقدح عيناها شررا ، حتى وقفت أمامه وسألته بازدراء :

ـــ أأنت المدعو محجوب عبد الدائم ؟

وكان محجوب فى حالة جعلته مهيأ للذعر والتشاؤم ، وحدثته نفسه المضطربة بأنه ضحية مؤامرة غادرة ، أبوه أداة من أدواتها القتالة ، وغلبه القنوط ، وأيقن أن مجده بات معلقا بخيط وشيك الانقصاف . نظر إلى المرأة بإنكار وقال بصوت منخفض مشفقا من صوتها المرتفع الذى يصك أذنى أبيه :

ـــ نعم يا سيدتى أنا هو ..

فعبست حانقة ولوت شفتيها اشمئزازا وقالت بلهجة قاسية :

ـــ هلا دللتنى على الحجرة التى ينفرد فيها زوجى بالسيدة المصون زوجك ؟

فنفذ الكلام إلى قلبه فشقه شطرين ، وخارت قواه ، وأوشك أن يذهل عما حوله ، وتحولت المرأة عنه كالمجنونة إلى باب المخدع ، وأدارت الأكرة ، ولكنها وجدت الباب مغلقا ، فدقته براحة يدها بشدة صائحة بغضب جنونى :

ـــ افتحا الباب ، افتح أيها الرجل والوزير الخطير ، لقد برح الخفاء ورأيتك بعينى داخلا هذا الماخور .. افتح وإلا حطمت الباب .

وبلغ اليأس بالشاب نهايته ، فوقف مكانه لا يبدى حراكا ، وكأنه يرى فاجعة خطيرة لا تعنيه ولا يناط بها مصيره ، وكأنه كبر عليه أن يصدق أن مجده الذى حشد له ما حشد من قوة وفكر ، وبنى عليه ما بنى من آمال ، يمكن أن يصير فى بعض الدقيقة أثرا بعد عين . وشعر بوالده يقترب منه ويسأله بصوته الذى بات يمقته مقتا :

ــ ماذا هنالك ؟ .. ماذا تقول هذه السيدة ؟

ولكن لم يكلف الشاب نفسه مئونة الرد عليه ، وكأنه لم يسمع قوله ، فلم يعد يباله ، ولم تكف المرأة عن دق الباب ، وصاحت حانقة :

ــ إنى أنذرك بأنك إذا لم تفتح الباب طوعا فتحته كرها بقوة الشرطة .

فاستجمع محجوب قواه المشتتة ودنا من السيدة ، وقال لها بصوت ينم على الرجاء :

ــ سيدتى ..

ولكنها لم تتركه يتم كلامه ، فتحولت إليه ولطمته على وجهه بشدة وغل ، وصاحت به :

ــ لا تنبس بكلمة أيها القواد الخسيس ..

فتراجع محجوب مروعا إلى موقف أبيه وهو لا يدرى به . وانفتح عند ذاك الباب وبرز منه قاسم بك فهمى ثم أغلقه وراءه ، وسمع صرير المفتاح من الداخل ، وكان الرجل يحاول أن يتظاهر بالثبات ، ولكن ارتباكه كان أعظم مما تنفع فيه المداراة ، وقال لزوجه بسرعة :

ــ هلمى معى إلى الخارج من فضلك ..

فصاحت به وقد جنت غضبا :

ــ افتح هذا الباب ، لا بد من فتحه .

فقال لها بصوت خفيض :

ــ خفضى من صوتك يا هانم .. هذا لا يليق بك ..

فصاحت به بتهكم :

ــ حدثنى عما يليق وعما لا يليق يا معالى البك . هل من اللائق يا ترى أن أضبطك فى مخدع زوج هذا القواد الصفيق ! ، وهل يسرك أن يطلع ابنك وابنتك على سيرتك المحمودة ؟!

ــ كفى .. كفى ، هلمى معى ولنسوين خلافنا فى بيتنا .

وحاول أن يمسك بساعدها ، ولكنها نترت ساعدها من يده باحتقار وصاحت به :

ـــ سأغادر هذا البيت الملوث ، ولكن لا تمن نفسك بتسوية الخلاف . لقد فاض الإناء ، فلا تفاهم بعد اليوم ، ولأنتقمن منك انتقاما يكون الدهر عظة لأمثالك من المستهترين .

ومضت المرأة نحو الباب الخارجي ، والبك فى أعقابها ، وذهبا معا

* * *

وتمتم محجوب بصوت مبحوح :

ـــ انتهى كل شيء .

أعجب بها من حقيقة ! أيخفق ذاك الكفاح الجبار ولما يتسلم ماهيته الجديدة ؟.

أتصاب الحظوظ كالأعمار بالسكتة القلبية ؟!

وقطع عليه تفكيره صوت أبيه وهو يسأل محزونا :

ـــ ما معنى هذا يا بنى ؟.

وكأن هذه الجملة نفط ألقى على صدره الملتهب ، فالتفت نحوه هائجا تقدح عيناه شررا ، وقال بحنق وحقد :

ـــ انتهى كل شيء ، انتهت الوظيفة والماهية . هلم نتسول معا ...

وارتسمت فى عينى الرجل الذابلتين نظرة زائغة ذاهلة ، وبدا فى حيرة قتالة وكرب عظيم . لم يصدق ما رأت عيناه ولا ما سمعت أذناه . كابد الألم الممض والغضب المختنق . ولولا ما آنس من قنوط ابنه وهذيانه لانفجر بركانه . لم تنته الوظيفة والماهية فحسب ، ولكن ابنه نفسه انتهى ، ولم يعد ذا مال ولا ولد وسيقول لامرأته إذا عاد إلى بلده : لا تسألى عن محجوب ، فقد انتهى محجوب وغدا ذكرى من الذكريات . وشعر عند ذاك باعياء وخور ، وبأنه يسقط إن لم يطمئن إلى مجلس ، فولى

الشاب ظهره ، وعاد أدراجه فى خطوات ثقيلة ، متوكئا على عصاه يكاد يقع على وجهه .

وارتمى محجوب على مقعده فى الصالة ، مرتفقا يد المقعد ، مسندا رأسه إلى راحته . وكان السكون شاملا كأنه بيت مهجور ، وكل شيء بموضعه كأن أمورا خطيرة لم تنقلب رأسا على عقب . هل تستطيع روحه الثائرة أن تصمد لهذا الشلال العارم من الحظ العاثر ؟! هل يمكن أن ينبرى لمواجهة هذه الأزمة الخطيرة بدرعه المعهود : طظ ؟ وما الحيلة إذا لم يستطع ؟.. ما عسى أن يصنع أنانى مثله ، لا يهمه فى الدنيا شيء إلا نفسه ، إذا تألب الشقاء على سعادته ؟ أمامه سبيل واحد هو الموت !. تبا لحظه ! كيف انتهى مجده بهذه السرعة الجنونية ؟! ألا تكتظ الدنيا بأمثاله من المغامرين الذين تترفق بهم حتى النهاية ؟!

وتنبه من تأملاته على وقع أقدام خفيفة ، فرفع رأسه المثقل فرأى إحسان أمامه تطالعه بوجه تعلوه صفرة الموت . التقت عيناهما فى صمت أليم وكأن كلاهما يقول لصاحبه : « أهذه نهاية الكفاح والتعب ! »

وخرجت عن صمتها أخيرا فسألته بنبرات متضعضعة :

ـــ هل ذهبوا ؟

فأجابها فى مثل نبراتها :

ـــ أجل .. كما ترين .

فترددت هنيهة ثم سألت :

ـــ ما عسى أن ينتظرنا ؟

وكيف يدرى هو ! بيد أنه هز رأسه وقد أخذت يسراه تشد حاجبه ، وقال :

ـــ لا أعلم الغيب . يحتمل حدوث أى شيء ، ولكن لا مفر من التشاؤم ، فالأمر المؤكد أن أحلامنا تبددت . هذه هى الحقيقة .

وساد صمت ثقيل . ولاحت فى عينيها نظرة غائبة ، وجعلت تستحضر من الماضى ما أودعته من ذكريات ، ذكرت آمالها وكيف خابت واحدا بعد آخر ، فاعتلج بصدرها الألم والحسرة حتى اغرورقت عيناها ، وأغرق محجوب فى أفكاره مرة أخرى ، ولكنه لم يستشعر الندم ولا أقر بالخطأ ، كلا ولا عدل عن رأى ، وراح يتساءل هل يتكشف الغد عن حياة جديدة أو لم يبق له إلا الموت ؟! بيد أنه غلب على أمره هذه المرة فاستسلم لليأس والقنوط ، وغشيت عينيه سحابة مظلمة ، وحاول جهده أن يهيب بروحه المتمردة ، وغمغم بصوت لا يكاد يسمع هامسا : « طظ » ولكنها نمت — على خلاف عادتها — عما يكنه فؤاده من اليأس والاستسلام .

— ٤٦ —

اجتمع الرفاق الثلاثة — على طه وأحمد بدير ومأمون رضوان — بإدارة مجلة النور الجديد التى يصدرها على طه . وكان مأمون رضوان يكثر من اجتماعه بصاحبيه ليتزود منهما قبل سفره الوشيك . ولم يكن للناس من حديث فى تلك الأيام إلا حديث الفضيحة الكبرى التى لاكتها الألسن فى كل مكان . قيل : إن حرم قاسم بك فهمى همت بنشر بيان فى الصحف عن الأسباب التى أدت إلى طلاقها من زوجها . وقيل : إن بعض الجهات تدخلت فى الأمر وأقنعتها بالعدول عما كانت أجمعت عليه وانتهت المسألة باستقالة الوزير ، وسحب مذكرة ترقية مدير مكتبه من مجلس الوزراء ونقله إلى أسوان . استبعدت الفضيحة من أعمدة الصحف ولكنها لم تعد تخفى على أحد . وقد خاض فيها الرفاق بأسف شديد ، لأنهم لم ينسوا زميلهم القديم ، ولا نسوا عهد الزمالة والجيرة بالجامعة ودار الطلبة . وكان على طه أشدهم ألما ، ولكنه لبث ألما دفينا يعتلج مع بواعثه الباطنة وقد قال أحمد بدير :

ـــ أتذكرون أحاديث صاحبنا البائس المستهترة ؟. أتذكرون طظ المشهورة ؟.. لطالما حسبت ذلك لغوا وسخرية وفكاهة لا شأن لها بالعقيدة والعمل ..

فقال مأمون رضوان بنبرات تنم عن الأسى :

ـــ إذا تزعزع إيمان الإنسان بالله غدا صيدا سهلا لكل شر .

فابتسم على طه على حزنه وشجنه ، وقال :

ـــ اسمح لى أن أحتج على هذا الاتهام !

فقال مأمون رضوان مستدركا :

ـــ أنت لك إيمانك الخاص وإن كنت أراه دون الكفاية ..!

وابتسمت عيناه النجلاوان وتساءل قبل أن ينبس أحد بكلمة :

ـــ ترى أنصير فى المستقبل عدوين لدودين ؟

فقهقه أحمد بدير ضاحكا وقال :

ـــ لا شك فى هذا . ستهاجمك هذه المجلة التى تباركها الآن بتمنياتك وستتهمك غدا بالرجعية والجمود ، وستتهم أنت صاحبها ـــ صديقك ـــ بالزيغ والكفر والاباحية ، ومن يعش يره !.

وابتسم الأصدقاء الأعداء . ثم قال مأمون رضوان بثقة وإيمان :

ـــ مأساة اليوم هى مأساة الزيغ !

فهز على طه رأسه فى شك وقال :

ـــ كم فى المؤمنين من أوغاد . فليست الحقيقة ما ترى . وصاحبنا البائس وحش وفريسة معا ، فلا تنس نصيب المجتمع من جريرته . وهنالك مئات من المؤمنين يشقى الملايين لإسعادهم ، فليست جريمتهم دون جريمة صاحبنا التعس . فالمجتمع الذى نعيش فيه يغرى بالجريمة ، بيد أنه يحمى طائفة المجرمين الأقوياء وينهال على الضعفاء . أحب أن أسألكما : هل يكفى أن يستقيل ذلك الوزير ؟

فقال مأمون رضوان :

ـــ ما كان عمر بن الخطاب يتردد عن رجمه !

فقال أحمد بدير ساخرا :

ـــ دعنا من عمر . إن مجتمعنا يستطيع أن يهضم هذا الوزير وأمثاله إذا أساغه بشيء من النسيان . وسوف يقبع عاما أو عامين أو أكثر فى نادى محمد على ، وعسى أن تخرجه غدا المظاهرات الوطنية عن عزلته وتحمله كالأبطال إلى الوزارة مرة أخرى ، فيعيد سيرته الأولى ، أو يلعب دورا جديدا ، ومن يعش يره .

فقال مأمون رضوان ممتعضا :

ـــ حقيقة المسألة أنى أرى الخير متعلقا بجوهر الروح ، وتريانه ، أو يراه الأستاذ تابعا للرغيف . فإذا حسن توزيع الرغيف محق الشر ..!

فقال على بلهجة لم تخل من حدة :

ـــإنى لا أوافق على هذا الوضع للمسألة ، وإنك لتعلم بأنى أهيم بلذات الروح . وليس المجتمع الذى نحلم به بخال من الشر ، فلا خير فى مجتمع يخلو من نقص يحث على الكمال ، ولكن المجتمع الذى نحلم به يمحو شرورا نراها فى وضعنا الحالى ضربا من القضاء والقدر

وهنا ضحك أحمد بدير ضحكا عاليا وقال :

ـــ لماذا تتعجلان المعركة ولما يأزف موعدها ؟!

وابتسم الرفاق ، الأصدقاء الأعداء وتبادلوا نظرة ذات معنى ، وكأنهم يتساءلون معا : « ماذا تخبىء لنا أيها الغد ؟! » .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعه	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الاقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	العاشرة	١٩٨٢
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	العاشرة	١٩٧٩
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثانية عشرة	١٩٨٤
خان الخليلي	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	العاشرة	١٩٨٢
السراب	رواية	١٩٤٨	الثانية عشرة	١٩٨٤
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الرابعة عشرة	١٩٨٤
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثانية عشرة	١٩٨٣
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الثانية عشرة	١٩٨٤
السكرية	رواية	١٩٥٧	الحادية عشرة	١٩٨٤
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	الثامنة	١٩٨٤
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢	الخامسة	١٩٧٨
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سيء السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٢
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السادسة	١٩٨٣
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الاسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٥
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخـــر طبعة	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١	السابعة	٩٨٧
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	٩٨٢
المرايا	رواية	١٩٧٢	الخامسة	٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	٩٨٤
الكرنك	رواية	١٩٧٤	السابعة	٩٨٦
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	السادسة	٩٨٦
قلب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	٩٨١
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	٩٨٣
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الرابعة	٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	٩٨٧
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	٩٨٧
عصر الحب	رواية	١٩٨٠	الثانية	٩٨٧
أفراح القبة	رواية	١٩٨١	الثالثة	٩٨٧
ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثالثة	٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢	الثالثة	٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢	الثانية	٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣	الثانية	٩٨٥
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
التنظيم السرى	مجموعة	١٩٨٤		
العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥		
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥		
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧		
صباح الورد	مجموعة	١٩٨٧		

تحت الطبع

قشتمر	رواية
الفجر الكاذب	مجموعة

الاستاذ احسان عبد القدوس

- صانع الحب وبائع الحب
- انا حرة
- الطريق المسدود
- اين عمرى
- النظارة السوداء
- فى بيتنا رجل
- لا انام
- منتهى الحب
- لا تطفىء الشمس (جزء اول)
- لا تطفىء الشمس (جزء ثان)
- شىء فى صدرى
- زوجة أحمد
- البنات والصيف
- لا شىء يهم
- أنف وثلاث عيون (جزء اول)
- أنف وثلاث عيون (جزء ثان)
- شفتاه
- لا .. ليس جسدك
- عقلى وقلبى
- بئر الحرمان
- علبة من صفيح
- ثقوب فى الثوب الأسود
- بنت السلطان

- سيدة فى خدمتك
- نساء لهن اسنان بيضاء
- لا أستطيع ان افكر وانا ارقص
- الوسادة الخالية
- دمى ودموعى وابتسامتى
- الراقصة والسياسى
- حتى لا يطير الدخان
- العذراء والشعر الابيض
- ونسيت انى امراة
- الهزيمة كان اسمها فاطمة
- لا تتركونى هنا وحدى
- الحياة فوق الضباب
- آسف لم اعد استطيع
- وتاهت بعد العمر الطويل
- لم يكن ابدا لها
- وعاشت بين أصابعه
- زوجات ضائعات
- الرصاصة لا تزال فى جيبى
- الحب فى رحاب الله
- على مقهى فى الشارع السياسى ج ١
- على مقهى فى الشارع السياسى ج ٢
- ومضت أيام اللؤلؤ
- فى وادى القلابة
- رائحة الورد وانوف لا تشم

الإســتاذ يوســف الســباعى

- اثنا عشر رجلا
- اثنتا عشرة امرأة
- ست نساء وستة رجال
- الســقا مات
- طــريق العــودة
- بين الأطــلال
- لست وحدك
- جفت الدمــوع (الجزءالأول)
- جفت الدمــوع (الجزء الثانى)
- ليل له آخــر (الجزء الأول)
- ليل له آخــر (الجزء الثانى)
- هذه النفوس ــ هذه الحياة
- من العالم المجهول ــ خبايا الصدور
- ليالى ودموع ــ أطياف
- نفحة من الإيمان ــ صور طبق الأصل
- ليلة خمر ــ من حياتى
- مبكى العشـاق ــ فى موكب الهوى
- ســمار الليالى
- هذا هو الحب
- طائر بين المحيطين

- من وراء الغيم
- ابتسامة على شفتيه
- اغنيــات ـ الشيخ زعرب
- بين أبو الريش وجنينة ناميش ـ يا أمة ضحكت
- نائب عزرائيل ـ البحث عن جسد
- همسة عابرة ـ اقوى من الزمن
- أم رتيبة ـ جمعية قتل الزوجات
- ناديـــة (الجز الأول)
- ناديـــة (الجزء الثانى)
- رد قلبى (الجزء الأول)
- رد قلبى (الجزء الثانى)
- نحن لا نزرع الشوك (الجزء الأول)
- نحن لا نزرع الشوك (الجزء الثانى)
- إنى راحلة
- ارض النفاق
- فديتك يا ليلى
- وراء الستار
- العمر لحظــة

رقم الإيداع ٢٢٢٦/
الترقيم الدولى ٤ ــ ٣٥٠ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٥ ٣٥ قرشا